مسرحيات

وليم شكسبير

الكاملة

التاريخيات

تعريب

أ. ر. مشاطي

إشراف وتقديم

نظير عبود

توزيع

دار الجيل

مَسرحيات

وليم شكسبير

الكاملة

التَاريخِيَّات

(١٠)

تعريب

أ. ر. مشاطي

إشراف وتقديم

نظير عبود

دار نظير عبود

ص.ب : ۸۰۸٦ / ۱۱ تلفون : ۹۳٦۷۷۲ ـ ۹۲٤۷۱٤

يحتوي هذا المجلد على:

هنري السادس

القسم الأول

أشخاص المسرحية

الملك هنري السادس.
دوق كلوسستر : عم الملك وحامي المملكة.
دوق بدفورد : عم الملك ووصي على عرش فرنسا.
توماس بوفور دوق إكساتر : عم والد الملك.
هنري بدفورد: اسقف ونشستر، فيما بعد كردينال، عم والد الملك.
جون بوفور دوق سومرست
ريشار بلانتاجينيه : بِكْر المتوفّي ريشار، كونت كمبريدج، فيما بعد دوق يورك.
كونت ورْويك.
كونْت سالزبري.
كونْت سوفولك
لورد تالبوت : فيما بعد كونت شروزْبري
جون تالبوت : ابنه.
ادموند مرْتيمور : كونت مارْش
سير جون فسْتولف.
سير وليم لوسي.
سير وليم كلانْسدايل.
سير توماس كارْكرايف.

محافظ لندن.

وذْفيل : ملازم البرج

فرنون : من جماعة الوردة البيضاء، فريق يورك.

باسي : من جماعة الوردة الحمراء، فريق لنكاستر.

رجل قانون.

دوق بوركون.

شارل : ولي العهد، فيما بعد ملك فرنسا.

رينيه : دوق انجو وملك نابولي.

دوق آلنْسون.

لقيط اورليان.

حاكم باريس.

ضابط المدفعيّة في اورليان وولده.

قائد الفيالق الفرنسية في بوردو.

راع عجوز : والد جان دارك.

جان دارك : الملقبة بالعذراء.

مرغريت : ابنة رينيه، فيما بعد زوجة هنري السادس.

كونتيس أوفارن.

شياطين تظهر على العذراء، لوردات ووجهاء، حرّاس وضبّاط وجنود، رسل ورجال حاشية، رقيب وبوّاب إلخ.

تجري الأحداث حيناً في انكلترا وحيناً آخر في فرنسا.

الفصل الأول

المشهد الأول

في دير وستمنستر

(يُسمع لحن جنائزي. جثمان الملك هنري الخامس مسجى في نعش فاخر، يحيط به دوق بدفورد ودوق كلوسستر ودوق أكساتر وكونت ورْويك وأسقف ونْشستر وأسقف هيرو إلخ...)

بدفورد : لتتّشح السماء بالسواد! وليحلّ الليل محلّ النهار! وأنت أيتها الكواكب المالكة سلطة تبديل الأزمنة والأمبراطوريات هزّي في أعالي الفَلَك جدائلك البلّوريّة، واجلدي بالسياط النجوم الخبيثة المتمرّدة التي تكاتفت للقضاء على هنري الخامس، الملك اللامع الذي لم يعش طويلاً ولم تعرف انكلترا عاهلاً عظيماً نظيره.

كلوسستر : قبْلهُ لم تعرف انكلترا ملكاً تحلّى مثله بكرامة الحكم الفاضل. فكان السيف في يده بتّار، اهتدى بلمعانه الرجال، وطالت ذراعاه أجنحة التنّين، وتطاير من عينيه البراقتين شرر الغضب الذي هزم اعداءه. الكليلي البصر أكثر مما تفعله الشمس وسط كبد السماء في رابعة النهار. ماذا أقول؟ كانت أفعاله

تتحدّى جميع الأقوال، ولم يرفع يده إلا لينال الغلبة والنصر.

اكساتر : نحن نَلبس السواد حداداً، فلماذا لا نُلبس خصومنا أثواباً من الدماء، لقد مات هنري ولن يعود الى الحياة. اننا نحيط الآن بنعش من خشب، ونمجّد بحضورنا جلال الموت الذي أذلّنا كأننا أسرى مكبّلين بالسلاسل ومشدودين الى عربة المنتصر. فهل نلعن الكواكب المشؤومة التي تآمرت علينا وهدمت أمجادنا؟ أو نعتقد بأن الفرنسيين البارعين هم سحرة أرعدتهم سطوة مليكنا فوضعوا حداً لحياته وندبوه بأشعار بليغة؟

ونشستر : لقد كان ملكاً باركه رب الأرباب الذي سيقتصّ يوم القيامة من الفرنسيين وينزل بهم ويلات أقسى من كل ما انتابهم في هذه الدنيا. ولقد ربح المعارك في سبيل إله الجيوش بفضل دعاء رجال الدين الذين استمطروا عليه الخيرات.

كلوسستر : لكن أين رجال الدين؟ لو صلّوا كما يجب لما انقطع خيط حياته هكذا باكراً. أنتم تفضّلون أميراً متخنّثاً بوسعكم أن تسيطروا عليه كأنه تلميذ مدرسة.

ونشستر : مهما كان مَيْلنا يا كلوسستر، أنت حامي الأمير وتود أن تديره وتتحكّم بملكه. زوجتك المتشامخة تسيطر عليك أكثر من ربك ومن رجال الدين الأجلاء.

كلوسستر : لا تتكلم عن الديانة، لأنك منشغل بملذات الحياة، وطوال السنة لا تصلي، وإن فعلت فلتطلب المصائب لأعدائك.

بدفورد : كفى، كفى هذا الشجار. إلزما الهدوء. فبدلاً من الدعاء سنقدم لله أسلحتنا التي لم يعد لها من فائدة بعد وفاة هنري. وعوضاً عن الازدهار سنعاني سنوات من البؤس والشقاء، فيها لن يرضع أطفالنا سوى لبان الحزن والأسى، ولن تبلّل جزيرتنا سوى دموع التعاسة والهوان بدلاً من قطرات الندى والصفاء، ولن يبقى إلا النساء لندب الأموات والتحسّر عليهم.

أيا هنري الخامس الراحل، أستحلف خيالك أن تصون هذه المملكة وتحفظها من خلافات أهلها، وأن تقاتل كواكب اخصامنا في السماء لأن روحك نجم يتألق مجداً أكثر من يوليوس قيصر.

(يدخل رسول).

الرسول : أحيّيكم يا سادتي المحترمين، وآتيكم من فرنسا بأنباء سيئة عمّا حلّ بنا من الدمار والمجازر والويلات. فقد خسرنا مستعمرة غويّانا ومقاطعة شمبانيا ومدن روان ورانس وأورليان وباريس وجيزور وبواتيه.

بدفورد : ماذا تقول، أيها الرجل، أمام جثمان هنري؟ أخفض صوتك، وإلّا فمقابل فقدان هذه المدن الكبيرة سيشقّ المرحوم ما يغلفه من صفائح الرصاص ويقوم من بين الأموات.

كلوسستر : هل خسرنا باريس؟ وهل استسلمت مدينة روان؟ لو عاد هنري الى الحياة لأزهقت هذه الأنباء روحه حتماً.

اكساتر : كيف حلّت بنا هذه الخسائر؟ وأية خيانة جرّتها علينا؟

الرسول : لا، ليست الخيانة بل قلة الرجال والمال. لقد سرت بين الجنود همسات بأنكم تدبّرون هنا شتى المكائد، وعندما يقتضي الأمر ارسال جنود لمساندة حملة ما، تتشاجرون على اختيار القوّاد. الأوّل يريد تمديد الحرب بأقل التكاليف، والثاني يود أن ينهيها بأسرع ما يستطاع بدون أن تكون لديه الإمكانات اللازمة، والثالث يفكّر بأن السلم يمكن أن يتم بدون ثمن أو بالكلام المعسول. استيقظوا، استيقظوا يا نبلاء انكلترا! لا تدعوا التخاذل يبدّد أمجادكم الحديثة العهد. فأزهار الزنبق قد انتزعت عن سلاحكم ونصف أمجاد انكلترا قد مرّغت في الوحل.

اكساتر : اذا غابت أسلحتنا بعد هذه الجنازة، فان أنباء ضعفنا ستزيد الطين بلّة وسيطفح الكيل.

بدفورد : أنا المقصود بكل هذا التحقير، بصفتي وصي عرش فرنسا. أعطوني درعي الفولاذي لأذهب الى محاربة الفرنسيين واستردّ سلطتنا عليهم. ابعدوا عني هذه الثياب المعيبة التي تدل على التقاعس. فأنا أريد أن تذرف عيون الفرنسيين دمعاً بل أن تنزف جراحهم دماً على بؤسهم الذي تخلّى عنهم لحظة.

(يدخل رسول آخر).

الرسول الثاني: أرجوكم، يا سادتي، أن تقرأوا هذه الرسائل الحافلة بالأحداث المشؤومة. ان فرنسا بأسرها قد ثارت على الانكليز، ما عدا بضعة مدن صغيرة لا أهمية لها. وولي العهد شارل قد تُوّج في مدينة رانس، ولقيط أورليان قد انضم اليه. كذلك رينيه دوق أنجو قد سانده، كما أن دوق آلنسون قد خفّ الى اعلان ولائه له.

اكساتر : هل حقًّا توّج ولي العهد ملكاً والجميع يعلنون له الولاء؟ الى أين علينا أن نهرب للخلاص من هذا العار؟

كلوسستر : علينا أن نردّ كيد أعدائنا الى نحرهم. فان لم تصمّم بعد على ذلك يا بدفورد، فأنا وحدي أخوض غمار هذه الحرب.

بدفورد : لماذا تشكّ بحماسي، يا كلوسستر؟ لقد جمعت في فكري جيشاً لجباً، أخذ منذ هذه اللحظة يجتاح أراضي فرنسا.

(يدخل رسول ثالث).

الرسول الثالث : يا سادتي الأفاضل، هل عليّ أن أضاعف ما ذرفته عيونكم من دموع في هذه الفترة، على نعش الملك هنري؟ لا بدّ لي من اطلاعكم على وقوع معركة هائلة بين اللورد تالبوت العظيم وبين الفرنسيين.

ونْشستر : معركة انتصر فيها تالبوت طبعاً، أليس كذلك؟

الرسول الثالث : لا، لا. لقد خسرها اللورد تالبوت. واليكم تفاصيلها :
في العاشر من شهر آب الماضي، رفع هذا اللورد المخيف الحصار عن مدينة أورليان وكان تحت أمرته ستة آلاف مقاتل، فطوّقه وأغار عليه ثلاثة وعشرون الف فرنسي. فلم يتسنَّ له توزيع رجاله ووضع الجذوع أمام رماة السهام، فاستبدل الجذوع بأوتاد اقتلعها من الأسيجة وغرسها عشوائياً لمنع الفرسان من اقتحام صفوفنا. ودام العراك أكثر من ثلاث ساعات، فاجترح تالبوت الشجاع معجزات بسيفه ورمحه، وأرسل الى الجحيم المئات من أعدائه، ولم يقوَ، أحد على الصمود أمامه. فهنا وهناك وفي كل مكان زرع الموت بغضب هائل، حتى ظنّ الفرنسيون أن الشيطان ذاته كان يصول ويجول في أرض المعمعة. فذهل جيشهم وحار ضباطهم في أمرهم، لا سيما حين سمعوا جنودنا يهتفون بحماس لدى رؤيتهم بسالة قائدهم : تالبوت، تالبوت. ويندفعون الى الميدان غير هيّابين. فحسم هذا الاندفاع مصير الفوز، وكانت كفة النصر رجحت الى ناحيتنا، لولا تصرف جون فستولف الجبان الذي كان في مؤخرة الجيش كاحتياط ليساند باقي الجند، لكنه هرب بدون أن يضرب ضربة واحدة. فاذا بالهزيمة تحلّ بنا وتقع المجزرة الكبرى، لأن الأعداء كانوا قد التفّوا حولنا وأحكموا تطويقنا. والأنكى أنّ خسيساً من رجال الوالون، كي ينال حظوة في عين ولي العهد، طعن برمحه من الخلف تالبوت الذي لم تكن فرنسا برمّتها وبكل قوى رجالها الأشداء مجتمعين لتجسر على النظر اليه وجهاً لوجه.

بدفورد : بما أن تالبوت قد قتل، فليس أمامي سوى أن أنتحر، لأني عشت هنا لا أبدي أي نشاط، متنعّماً بالبحبوحة والرخاء، بينما قائدنا الشجاع هذا لم تصله النجدة في حينها فأسلمه

أصحابه هكذا بأفظع خيانة الى ألدّ أعدائه الجبناء.

الرسول الثالث : لا، لا، هو لا يزال حيًّا، لكنه أسير، نظير اللورد سكال واللورد هنفرفورد، أما الباقون فأغلبهم قد لاقوا حتفهم أو سيقوا الى الأسر.

بدفورد : عليّ أنا وحدي أن أدفع الجزية. سأُنزل ولي العهد عن العرش الذي اعتلاه وسأجعل تاجه فدية صديقي. سأستبدل كل أربعة من رجالهم برجل واحد منا. فالوداع يا سادتي. أنا ذاهب لأداء واجبي. عليّ أن أضرم حالاً نيران الفرح في فرنسا لإحياء عيد شفيعنا الفارس جاورجيوس. سأصطحب عشرة آلاف جندي لنقهر بغزواتنا الدامية أرض أوروبا من أدناها الى أقصاها.

الرسول الثالث : ستحتاج الى هذا العدو، لأن أورليان محاصرة، والجيش الانكليزي قد ضعف وانهار، والكونت سالزْبري يطلب النجدة. وهو يسعى ليحول دون تمرّد رجاله عليه اذا لاحظوا قلة رجاله، ويخشى أن لا يمكنه التغلّب على مثل هذا العصيان.

اكساتر : تذكروا يا سادة، يمينكم أمام هنري بأن تبيدوا جيش ولي العهد عن بكرة أبيه أو أن تعيدوه صاغراً ذليلاً الى طاعتنا.

بدفورد : أنا أتذكر ذلك جيداً، وأغادركم الآن لأكمل استعداداتي.

(يخرج).

كلوسستر : سأقصد البرج بأقصى السرعة لتفقّد المدفعية والذخيرة. ثم أعلن تولّي الملك هنري الشاب شؤون البلاد.

(يخرج).

اكساتر : وبما أني عيّنت حاكماً بأمر من الملك الفتى، أنا ذاهب

الى مدينة ألتْهام حيث يقيم الآن لاتخاذ التدابير الفعالة الآئيلة الى حمايته من كل مكروه وحفْظ حياته بأمان.

(يخرج).

ونْشستر : فلينصرف كلّ منا اذاً الى وظيفته، ما دمت قد نحّيتُ جانباً ولم يعد لي من عمل أقوم به. لكني لن أبقى طويلاً بدون مهمة، فلا بدّ لي من سحب الملك من ألتْهام، والمباشرة في ادارة دفة الأشغال العامة.

(يخرج).

المشهد الثاني

في فرنسا، أمام مدينة أورليان

(تُسمع موسيقى. يدخل شارل مع جنوده وآلنْسون وريبيه وغيرهم).

شارل : أرى أن موقف إله الحرب مارس في السماء، كما هو على الأرض، لا يزال مجهولاً غامضاً. وقد آزر الانكليز في انتصاراتهم الأخيرة، أمّا الآن وقد أصبح النصر حليفنا، فقد ابتسم لنا الحظ. ما هي المدن الهامة التي لم تعد تحت سيطرتنا. اننا لا نأتي الآن بحركة أمام أورليان، والانكليز الجائعون بسحنهم الصفراء كأشباح الموتى يحاصروننا بجمود منذ أكثر من شهر.

آلنْسون : هم بحاجة الى التغذية نظير البغال، وإن تكن مخلاتهم دوماً في رقبتهم وسحنهم تشبه الفئران الحقيرة التي تغرق في فنجان ماء. تعالوا نهاجمهم ونجبرهم على فكّ الحصار. لماذا نظل هنا جامدين؟ لقد غاب تالبوت الذي كنا نخشاه. ولم

يبقَ سوى الغبي سالزبْرَي الذي يسعه أن يبلع ريقه غضباً بدون جدوَى، ما دام لا يملك رجالاً ولا مالاً لخوض غمار الحرب.

شارل : اقرعوا نواقيس الخطر. وهيا نُهاجمهم ونشترك في المعركة تشريفاً للفرنسيّين المتحفّذين. أنا مستعد لمسامحة من يقتلني اذا رآني أتراجع خطوة أو أهرب.

(يخرج الجميع. يسمع صوت نفير استنجاد. الانكليز يدحرون الفرنسيين ويكبّدونهم خسائر فادحة).

(يدخل شارل وآلنسون ورينيه وغيرهم).

شارل : من رأى أمراً كهذا؟ ومن هم هؤلاء الرجال؟ أليسوا من الكلاب الجبناء الرعاديد؟ أنا ما كنت تراجعت أبداً لو لم أترُكْ وحيداً وسط أعدائي.

رينيه : إن سالزبري مجرم دنيء. هو يحارب كمن سئم الحياة. وسائر اللوردات كالذئاب الجائعة يهاجموننا ويفتكون بنا كأننا فرائسهم.

آلنْسون : أحد مواطنينا، وأسمه فرواسار، قد نقل الينا نبأً مفاده أن انكلترا لا تنجب إلا أمثال أوليفيه ورولان في عهد الملك ادوارد الثالث. فهل هذا لا يزال صحيحاً كما كان على الدوام؟ هم أشباه شمشون وجليات، يقبلون على هذه المعركة كأنهم واحد لقاء عشرة، وهم نحلاء كأنهم جلد على عظم، وما ظن أحد أنهم يستبسلون بمثل هذه الشجاعة.

شارل : لنغادر المدينة اذًا، لأن هؤلاء الأنذال لا يفكّرون، ولا يزيدهم الجوع إلا شراسة. أنا أعرفهم منذ زمن بعيد، وأعتقد بأنهم يفضّلون مناطحة الجدران على فكّ الحصار الذي أحكموه حولنا.

رينيه : أظن أن قبضات أيديهم تحركها نوابض أو آلات غريبة لكي

يضربوا بانتظام كرقاص ساعة حائط ضخمة. وإلا ما استطاعوا أن يصمدوا هكذا. على كل حال لا بد لنا من أن نقاومهم.

آلنسون : فليكن ما تريد.

(يدخل لقيط أورليان).

اللقيط : أين ولي العهد؟ لديّ أنباء تهمه.

شارل : أهلاً ومرحباً بك، يا لقيط أورليان.

اللقيط : يخيل إليّ أنك كئيب واجف. هل هذا ناجم عن المصيبة الأخيرة؟ كُفّ عن الخوف، لأن النجدة باتت قريبة. اني آتيك بصبيّة عذراء أوعزت اليها السماء بأن تطارد الانكليز إلى ما وراء حدود فرنسا. أما مقدرتها العجيبة على التنبّؤ فهي أقوى مما كان للملهمات التسع في روما القديمة. وهي تستطيع معرفة الماضي والمستقبل في كل الأمور. فهل تود أن أحضرها لك؟ صدّقْني، أنا واثق بصواب ما أخبرك به.

شارل : هيا جئني بها (يخرج اللقيط). لكن لكي أوقن أولاً بصدق معلوماته، خذ، يا رينيه، مكاني كأنك أنت ولي العهد. استجوبها بحنكة وانظر اليها بحدة وبأسٍ، فنستطيع هكذا أن نقف على مدى معرفتها الأمور.

(ينتحي جانباً).

(تدخل العذراء ولقيط أورليان وغيرهما).

رينيه : أيتها الحسناء، هل أنت واثقة بأنك قادرة على انجاز هذه الأعمال الباهرة؟

العذراء : هل تظن، يا رينيه، أنك تستطيع خداعي؟ أين ولي العهد؟ (تتجه نحو شارل) هيا أخرج من مخبأك (يتقدم شارل). أنا أعرفك بدون أن أكون قد رأيتك سابقاً. لا تنذهلْ، لا شيء يخفى

عليّ. أودّ أن أكلمك على انفراد. ابتعدوا يا سادة، واتركونا لحظة على انفراد.

رينيه : كبداية، أراها تتصرف بشجاعة.

(ينتحي الوجهاء جانباً).

العذراء : يا ولي العهد، أنا بالولادة ابنة أحد الرعاة، ولم أتدرّب ذهنيًّا على أيٍ من الفنون. لقد شاءت السماء وسيّدة النعَم أن ترفع عني البؤس. ذات يوم وأنا أرعى خرافي الوديعة، وأعرّض وجنتيّ لحرارة الشمس المحرقة، ظهر لي ملاك من السماء، ومن خلال رؤيا جليلة أشار عليّ بأن أغادر أهلي وأن أبتعد عن منطقتي وعن ويلاتها. وقد وعدني هذا الملاك بأن يساعدني وأن يؤمّن لي كل النجاح وقد ظهر لي بأروع مجده. وكنت الى ذلك الحين حنطية اللون، فاذا بالأنوار التي سلّطها عليّ قد وهبتني هذا الجمال الذي ميّزني عن غيري. إطرح عليّ ما شئت من الأسئلة لأردّ عليها ارتجالاً بدون استعداد. امتحن بسالتي، إذا شئت، بإرسالي الى ساحة المعركة فتقتنع بأني أقوى من جميع بنات جنسي، لا تتردد، فلن تندم على وثوقك بي واتكالك عليّ في الحرب.

شارل : لقد أدهشني حديثك الجريء الفخور. وأنا مستعد لأن أمتحنك على هذا الأساس. ستنازلينني في صراع منفرد، فاذا تغلبتِ عليّ تكون أقوالكِ صادقة، وإلا امتنعت عن الوثوق بشخصكِ.

العذراء : أنا على أتم الاستعداد، وهذا سيفي بحدّه القاطع تزيّنه خمس زنابق. وقد لقيته في مقبرة أحد معابد مدينة تورين بين كومة من الحديد العتيق.

شارل : هيا اذاً، وباتكالي على الله، أنا لا أخشى أية امرأة.

العذراء : وأنا أيضاً، ما دمت حية لن أهرب أبداً من أمام أي رجل.

(يتعاركان).

شارل : أوقفي يدك، بربّك. أنت جبارة، والسيف في يدك قاطع بتّار.

العذراء : الله معي، وبدون عونه أراني في غاية الضعف.

شارل : مهما كانت القوة التي تؤازرك، فقد نويت الاستعانة بك، وبتّ أتوق الى صحبتك، اذ هيمن لطفك على فؤادي كما أخذ عنفوانك يشدّد عزيمتي. أيتها العذراء الكريمة، ان كان هذا اسمك فاسمحي لي بأن أكون لك خادماً لا سيداً. وأنا بصفتي وليّ عهد عرش فرنسا ألتمس منك أن تعتبريني هكذا.

العذراء : عليك أن لا تضحّي بنفسك في سبيل الحب. فأنا استمد رسالتي المباركة من العلاء. وبعد أن اطرد من هنا جميع أعدائك، سأفكّر بما أطلبه من مكافأة.

شارل : بانتظار ما سيحدث، ألتمس منك أن تجودي بنظرة عطف على أسير هواك.

رينيه (على حدة لآلنسون) : يخيل اليّ أن سيدي يطيل الشرح.

آلنسون (على حدة لرينيه) : لا شك في أنه يميل الى هذه الصبية بكل جوارح قلبه، وإلاّ لما واصل معها الحوار هكذا.

رينيه : هل علينا أن نقاطعه أثناء كلامه الذي لا نهاية له؟

آلنسون : قد يكون له هدف آخر غير الذي نتصوره نحن الرجال المساكين. لأن هؤلاء النساء المحتالات لا يكلّ لهنّ لسان.

(يتقدم رينيه وآلنسون).

رينيه : أين أنت، يا مولاي؟ هيّا قرّري أحد أمرين : إما مغادرة أورليان للنجاة، وإمّا البقاء فيها للدفاع عنها.

العذراء : أؤكد لكم طبعاً أنني لن أغادرها. وعليكم اذاً أن تقاتلوا الى جانبي حتى الرمق الأخير. وأنا أكون حاميتكم وفي مقدمتكم.

شارل : وأنا أؤكد لكم صدق ما تقوله هذه الصبية، وسنقاتل بضراوة.

العذراء : لقد أرسلتني الأقدار لأكون وبالاً على الانكليز. وهذه الليلة بالذات سأفكّ الحصار ويمكنكم أن تنتظروا مني العجائب، لأني مصممة على خوض غمار هذه الحرب. فالمجد يشبه دوائر في الماء تظلّ تتسع باستمرار حتى تضمحل ولا يبقى لها من أثر. بموت هنري انهارت عظمة الانكليز وجميع أمجادهم تبددت هباءً منثوراً في الهواء. أنا الآن كالمركب الفخور الجسور الذي حمل ذات يوم قيصر ومصيره.

شارل : وكما كان الحمام الوديع مصدر وحي الأنبياء، هكذا النسر هو مصدر الهامك. انما لا هيلانة والدة قسطنطين الكبير ولا بنات فيلبّوس يعادلنك. فيا نجمة فينوس المتلألئة الهابطة على الأرض كيف يتسنى لي أن أبجّلك بخشوع؟

آلنْسون : لنختصر التفاصيل، ولنفكّ الحصار أولاً.

رينيه : افعلي ما باستطاعتك يا امرأة لانقاذ حياتنا وأمننا. اطردي الأنكليز وتمتعي بالخلود.

شارل : هلمّ بنا نحاول فوراً. هيّا الى العمل. فأنا لم أعد أثق بأي نبي اذا لم يتحقق ما أترقّبه.

(يخرجون).

المشهد الثالث

في لندن أمام البرج

(دوق كلوسستر يتقدم نحو أبواب البرج، يتبعه رجاله ببزّات زرقاء).

كلوسستر : جئت أتفقد البرج. فمنذ وفاة هنري بتّ أخشى بعض الاختطافات. أين الحرس؟ لماذا ليسوا هنا في أماكنهم؟ (يرفع صوته) افتحوا الأبواب أنا كلوسستر أنادي.

(يطرق خادمه الباب).

الحارس الأوّل (من الداخل) : من يطرق هكذا بشدّة؟
الخادم الأول : دوق كلوسستر النبيل.
الحارس الثاني (من الداخل) : أياً كنتم لا سبيل الى ادخالكم الآن.
الخادم الأول : أهكذا تردّ على اللورد حامي المملكة أيها الوغد؟
الحارس الأول (من الداخل) : حفظك الرب. هذا جوابنا. نحن ننفّذ ما أُمرنا به.
كلوسستر : من الذي أصدر الأوامر؟ من غيري يأمر هنا؟ ليس من يحمي المملكة سواي. اخلعوا الأبواب، وأنا المسؤول عن ذلك. هل وصلنا الى حدّ أن يعصى الأنذال أوامري؟

(يهجم رجال كلوسستر على الأبواب. ويقترب ملازم البرج وذْفيل من الداخل).

وذْفيل (من الداخل) : ما هذا الضجيج؟ من الخائن الذي يقاومنا؟
كلوسستر : أيّها الملازم، هل هو حقًّا صوتك الذي يبلغ أذنيّ؟ هيا افتح الأبواب حالاً، انا كلوسستر أريد الدخول.
وذْفيل (من الداخل) : اصبرْ قليلاً أيها الدوق النبيل. لا يمكنني أن أفتح لك. فالكردينال ونْشتسر منعني لأنه هو الذي أمر بأن لا أدع أحداً يدخل، لا سيادتك ولا أعوانك.

كلوسستر : أيها الوقح وذْفيل، هل تعتبر، أرفع مقاماً مني، هذا المتكبّر المدّعي ونشستر الذي لم يكن ملكنا المرحوم هنري يحبّه؟ أنت لست وفياً لا لله ولا للملك. افتح الأبواب أو أطردك فوراً.

الخادم الأول : افتحوا الأبواب للّورد حامي المملكة، أو أخلعها وأخلعكم معاً اذا لم تخرجوا حالاً.

(يدخل ونشستر تحيط به حاشية من الخدم ببزّات صفراء).

ونشستر : يا هنري المتطاول، ما معنى كل هذا؟

كلوسستر : هل أنت أمرت بأغلاق الأبواب في وجهنا؟

ونشستر : أجل أنا أيها المستبدّ، لأني لا أعتبرك حامي الملك والمملكة.

كلوسستر : اليك عني، أيها المتآمر الحقير. فأنت الذي دبرت مقتل ملكنا المتوفي، أنت الذي أعطيت لشذّاذ الآفاق صلاحيات دنيئة سأدعك تدفع غالياً ثمن مكائدك.

ونشستر : أخرج أنت من هنا. فأنا لن أتزحزح من مكاني قيد أنملة. أنت مجرم ملعون كقايين الذي قتل أخاه.

كلوسستر : أنا لا أنوي أن أقطع رأسك، بل أكتفي بطردك فقط. وسأخرجك من هذا البرج كالعنزة الجرباء.

ونشستر : افعل ما تشاء، فأنا أتحدّاك.

كلوسستر : هل وصلت بك وقاحتك الى حد احتقاري مع رجالي بالرغم من امتيازاتي في هذا المكان؟ سنرى لمن الغلبة، أللملابس الزرقاء أم الصفراء؟

(كلوسستر ورحاله يهاجمون الكردينال).

أيها المفضال، احرص على لحيتك التي سأنتفها وسأمرّغك في الوحل وأدوس قبعتك بالرغم من مقام رؤسائك، وأشدّ لك أذنيك الأثنتين.

ونشستر : يا لك من ذبابة حقيرة. هاتوا حبلاً (لرجاله) والآن أخرجوه بالقوة من أمامي. لماذا تتركونه ها هنا؟ (للكردينال) سأطردك طرد الكلاب، أيها الذئب المتستر بجلد الحمل. هيا أخرجوا من هنا جميع البزّات الصفراء. أخرج أيها المنافق المتخفّي بالثوب الأرجواني.

(يحدث صخب، ثم يدخل محافظ لندن ومرافقوه).

المحافظ : تباً لكم أيها اللوردات، أصحاب المناصب العليا لأنكم تقلقون الراحة العامة.

كلوسستر : الأمان، أيها المحافظ. أنت لا تدري بالاهانة التي ألحقها بي بوفور هذا الذي لا يخاف الله ولا يحترم الملك، والذي استولى زوراً وبهتاناً على البرج لغاياته الشخصية الشريرة.

ونشستر : من يتكلم بهذه اللهجة؟ عدوّ المواطنين الذي يدفعهم دائماً الى الحرب لا الى السلم، والذي يفرض عليهم الجزيات الباهظة ليملأ بها جيوبه الجشعة، والذي جاء الآن يضع يده على أسلحة البرج وما فيه من ذخيرة لكي يفرض نفسه سيداً على البلاد بعد أن يقضي على الأمير.

كلوسستر : لن أجيبك بالكلام، بل بالضرب.

(ينشب شجار جديد).

المحافظ : في هذه المعمعة الصاخبة لم يبقَ عليّ إلا أن آمر باعلان النفير، تقدم أيها الضابط واصرخ بأعلى صوتك.

الضابط : أيها الرجال من جميع الرتب المجتمعون ها هنا والمدجّجون بالسلاح لمحاربة سلام الله والملك، نحن ننذركم ونأمركم باسم سموّه بالعودة الى مساكنكم وبأن لا تحملوا أي سلاح ولا تشهروا من الآن وصاعداً أي سيف أو خنجر، تحت طائلة العقاب بالموت.

كلوسستر : أيها الكاردينال، أنا آبى أن أخالف القوانين. انما سنلتقي أنا وأنت قريباً ونتفاهم على كل هذه الأمور.

ونشستر : أجل يا كلوسستر ستتقابل وسيكلفك عنادك غالياً. كن على ثقة بأنني لن أتراجع عن هدر دمك بسبب ما بدر منك اليوم من لؤم وخساسة.

المحافظ : سأنادي حَمَلَة الهراوات اذا لم تنسحبوا. يبدو أن هذا الكردينال هو اليوم أوقح من الشيطان.

كلوسستر : الوداع أيها المحافظ. أنت لا تفعل سوى واجبك.

ونشستر : يا لك من وغدٍ يا كلوسستر. احفظ رأسك لأني مصمّم على دحرجته من فوق كتفيك قريباً جداً.

(يخرج مع رجاله).

المحافظ : أخلوا هذه الحواجز كي ننصرف. يا الهي! ما أشدّ حقد هؤلاء النبلاء. أنا لا أشاجر أحداً مرة واحدة في أربعين سنة.

(يخرج مع رجاله).

المشهد الرابع

في فرنسا، أمام مدينة أورليان

(يصل الى الحاجز ضابط المدفعية وابنه).

ضابط المدفعية : أتعلم يا ولدي كيف ضرب الحصار حول اورليان، وكيف استولى الانكليز على ضواحيها؟

الابن : أعرف يا أبي. وقد سدّدت مراراً اليهم قنابلي. لكني لم أستطع أن أنال منهم وطراً، يا للأسف.

ضابط المدفعية : انما الآن لن تفشل في اصابتهم. استمع الى تعليماتي.

أنا أمهر مدفعي في هذه المدينة، وعلي أن أبهر الناس بضربة بارعة تميّزني عن سواي. لقد أخبرني جواسيس الأمير أن الانكليز محصّنين في خنادقهم المحفورة في الضواحي، وأن مدخلها سرداب سري منشأه هناك في البرج الذي يطلّ على المدينة ويكشف جميع طرقاتها ومكانها حيث يستطيعون أن يرهقونا بقنابلهم ويقضوا علينا بهجومهم. فلكي تمنعهم من التحرك سأصب قنابلي على مخابئهم. أنا أسهر منذ ثلاثة أيام على مراقبتهم بدقة. والآن يا ولدي تيقّظ أنت بدورك، لأني لا أقوى على البقاء هكذا أكثر مما فعلت. واذا جدّ أمر، أعلمني حالاً، وستجدني عند الحاكم لأني ذاهب توًّا إليه.

الابن : استرحْ يا أبي، ولا يقلق لك بال، فلن أزعجك اذا تمكنت من رؤيتهم.

(يخرج ضابط المدفعية).

(يدخل من جسر البرج العالي اللوردات سالزبري وتالبوت وسير وليم كلانسدايل وسير توماس كرُكرايف وغيرهم).

سالزبري : يا تالبوت، أنت كل حياتي وسعادتي، كيف جئت الى هنا؟ وكيف عُوملتَ وأنت في الأسر؟ كيف استعدت حريتك؟ أرجوك أن تخبرني، ونحن صاعدون الى هذا البرج.

تالبوت : كان لدى دوق بدفورد أسير شجاع اسمه سير بنْطون كزانتراي، فاستبدلني به. أوّلاً أراد أن يستبدلني برجل سلاح غير مرموق، لكني رفضت ذلك بإباء، وأعلنت له أني أفضّل الموت على هذه المقايضة. أخيراً استجاب طلبي. لكن خيانة فستولف مزّقت قلبي. وسأقتله بيدي متى وقع في قبضتي.

سالزبري : لكنك لم تخبرني كيف كانت معاملتك هناك.

تالبوت : طبعاً لم أنجُ من الاهانة والتحقير. إذ إقتدت الى ساحة عامة وعرضت لعيان كل السكان، وقد قيل عني أني أمثّل الارهاب

الفرنسي، وأني أخيف جميع الأطفال. فتخلصت حالاً من الضباط الذين اقتادوني واقتلعت بأظفاري حجارة من الطريق ورميت بها المتفرجين على مذلّتي. واذا بغضبي يرعب الجميع فولّوا هاربين ولم يجسر أحد على الاقتراب مني خوفاً من الموت المحتم. لأن الناس لم يصدّقوا أني محجوز ضمن قضبان من حديد. ولقد تفاقم فزعهم حتى أفقدهم ذكر اسمي صوابهم وظنوني قادراً على تحطيم القضبان، وإن كانت من الفولاذ، وعلى هدم الأعمدة مهما كانت صلبة كالصخر. لذلك احاطوني بحراس أشداء لا يفارقونني. ولو أتيت وأنا في سريري بأقل حركة لكانوا أفرغوا رصاص غدّاراتهم في قلبي وقضوا عليه.

(يدخل ابن المدفعي وبيده قضيب مشتعل لاطلاق قنابل المدفع).

سالزبري : تألمت لعلمي بأنك قاسيت الأمرّين. الآن حان موعد العشاء في أورليان. ومن خلال الحاجز يسعني أن أعدّ الجنود الفرنسيين وأن أرى أين يتحصّنون. لننظر الى هذا المشهد المفرح. يا سيدي توماس كارْكرايف وسير وليم كلانسدايل صارحاني بآرائكما بالضبط، والى أين تريان أن من الأفضل توجيه قذائفنا لتدميرهم بفعالية محكمة.

كارْكرايف : أعتقد بأن من الأنسب توجيهها نحو الباب الشمالي حيث تتجمع أكثرية قوّاتهم.

كلانسدايل : أنا أرى من الأنسب توجيهها الى جادة الجسر.

تالبوت : أرى أن الأوفق هو تجويع هذه المدينة واضعافها بمناوشات طفيفة ولكن متتابعة.

(تنطلق قنبلة مدفع من الحاجز. فيسقط سالزبري وكاركرايف).

سالزبري : يا الهي، اشفق علينا ونجّنا.

كاركرايف : يا الهي، ارحمني أنا التعيس.

تالبوت : ما هذه الكارثة التي تشلّ فجأة مساعينا؟ تكلّم يا سالزبري، اذا كنت لا تزال تستطيع الكلام. كيف حالك يا خيرة المحاربين؟ ها قد فقدت عيناً وجرحت خداً بهذه القذيفة. مشؤوم هذا التصرف، وملعونة اليد التي أطلقتها وسببت لنا هذه المأساة الفاجعة! لقد انتصر سالزبري في ثلاثة عشر معركة عملت أولاها على ايصال هنري الخامس الى العرش. فكان سيفه يحصد الرؤوس في ساحة الوغى كلما علا صوت البوق ودوى رنين الطبل. ألا تزال على قيد الحياة يا سالزبري؟ فاذا خانك النطق أمكنك أن ترفع عينك الباقية نحو السماء وتلتمس الرحمة والعون فالشمس بعين واحدة تشمل أشعتها الكون بأسره. لا تشفقي أيتها السماء على أحد من الأحياء اذا لم ينل سالزبري من لدنك نعمة. اجلبوا جثمانه الى هنا، كي أساعد على دفنه. وأنت يا سير توماس كاركرايف ألا تزال حيًّا؟ كلم تالبوت على الأقل وارفع انظارك اليه. يا سالزبري عزّي نفسَك بهذه الفكرة : لن تفارق الحياة طالما... هو يشير اليّ بيده ويبتسم، كأنه يقول لي : عندما أموت وأرحل لا تنسَ أن تثأر لي من الفرنسيين. فأنا كأحد أفراد عائلة بلانتاجينيه أتعهد بذلك. ونظير نيرون سأعزف على القيثارة وأنا أرى المدن تحترق. أريد أن تسبب شهرتي شقاء فرنسا (يقصف الرعد. ثم تسمع موسيقى التحذير). ما هذا الضجيج؟ ما هذا الصخب الآتي من السماء؟ ما هو مصدر هذه الانذارات المدوّية؟

(يدخل الرسول).

الرسول : سيدي اللورد، لقد عزّز الفرنسيون قواتهم، بينما ولي العهد

تسانده عذراء نبيّة ظهرت حديثاً، قد وصل مع جيش لجب لفكّ الحصار.

(يتنهّد سالزبري).

تالبوت : اسمعوا، اسمعوا كيف تنهّد سالزبري. ها هو يتحسّر لأنه لا يقوى على الانتقام. أيها الفرنسيون سأحلّ محل سالزبري. فان كانت هناك عذراء أو حية رقطاء، أو كان ولي عهد أو أشرس أسد، سأسحق رؤوسكم بحوافر جوادي وسأجعل من أدمغتكم المهدورة وحلاً قذراً. خذوا سالزبري الى خيمته، وسنرى ما بوسع هؤلاء الفرنسيين الجبناء أن يفعلوا.

(يخرجون وهم يحملون جثمانه).

المشهد الخامس

أمام باب من أبواب مدينة أورليان

(تبدأ المعركة. تسمع موسيقى استنفار. تجري اشتباكات.
يمرّ تالبوت على المسرح وهو يطارد ولي العهد الهارب أمامه.
ثم تمرّ العذراء وهي تطارد الانكليز الهاربين.
يدخل حينئذٍ تالبوت).

تالبوت : أين عزيمتي؟ أين شجاعتي؟ أين قواي؟ ان فيالقنا الانكليزية تنسحب، وأنا لا أستطيع ايقافها، لأن امرأة مرتدية درعاً تطاردهم.

(تدخل العذراء).

ها هي قد أقبلت. أنا مستعد لمنازلتك، أيتها الخبيثة،

وسأستحضر روحك بعد مماتك. سأسفك دمك، أيتها الساحرة الشريرة، وأرسل حالاً نفسك الى زبانية الجحيم التي تخدمينها.

العذراء : تَعالَ، تعالَ لأذلّك وأقضي عليك.

(يتعاركان).

تالبوت : كيف تسمحين بانتصار الشيطان هكذا، أيتها السماء، حتى إن انفجر صدري من بذل أقصى جهودي، وإن تفكّك ذراعي عن كتفيّ، سأنزل أشد العقاب بهذه الغادرة المنافقة.

العذراء : وداعاً يا تالبوت. لم تأتِ ساعتك بعد ولم يحن أجلك. عليّ الآن أن أذهب لأموّن أورليان بالأغذية. إنتظرني اذا استطعت، فأنا لا أبالي بقوتك. اذهب وأشحذ همم جنودك الذين أنهكهم الجوع. ساعدْ سالزبري على كتابة وصيته. فهذا نهارنا الموعود وستتبعه أيام لا تحصى من العزّ.

(تدخل العذراء الى المدينة مع جنودها).

تالبوت : رأسي يدور كدولاب الهواء. لا أدري أين أنا ولا ماذا أفعل. هناك ساحرة سلاحها الارهاب لا المقدرة نظير هنيبعل قد شتّتتْ رجالنا وظفرت كما يحلو لها. هكذا يُطرد النحل من قفيره بواسطة سحب الدخان، والحمام من برجه بواسطة الروائح الكريهة. ونحن، بسبب تشبّثنا، نُدعى كلاباً انكليزية، ونظير الجراء نهرب فزعاً ونحن نواصل العواء.

(تسمع موسيقى تحذير قصيرة).

اسمعوا يا بني قومي، إما أن تجدّدوا العزم على القتال، وإما أن تنتزعوا رسم الأُسود من شعار انكلترا، وتتخلوا عن أرض آبائكم وأجدادكم وتضعوا بدل الأسود خرافاً لأن الخراف

وحدها تهرب أمام الذئاب. فالخيل والبقر تهرب أمام النمر المتوثب بأقل جبانة منكم حين تولّون الأدبار أمام هؤلاء الانكليز الصعاليك الذين كثيراً ما أخضعتموهم في الماضي. هذا لا يصدّق. (تُسمع موسيقى واستغاثات جديدة). انسحبوا الى خنادقكم، فأنتم جميعاً شركاء في موت سالزبري. لأن لا أحد منكم يريد أن يضرب ضربة ليثأر له. ولقد دخلت العذراء أورليان رغم أنفنا ورغم كل جهودنا. آه! كم أشتهي أن أموت مع سالزبري! لأن عاراً كهذا يضطرني الى إخفاء وجهي خجلاً.

(تُسمع موسيقى استنفار، ويليها انسحاب. يخرج تالبوت ورجاله يلاحقهم الفرنسيون).

المشهد السادس

في ذات المكان

(تظهر العذراء على الحاجز ومعها شارل ورينيه وآلنسون وجنودهم).

العذراء : إرفعوا على الجدران أعلامنا الخفاقة. فقد أنقذنا أورليان من أنياب الذئاب الانكليز. وهكذا بررت بوعدي.

شارل : يا مباركة، يا شجاعة، إنك تستحقين كل تكريم على بطولتكِ. ان وعودك مثل حدائق أدونيس، بالأمس كانت مزهرة واليوم بالذات أثمرت اينع الفواكه. لقد انتصرت فرنسا على يدكِ القديرة وأنقذت مدينة أورليان، ولم تشهد بلادنا منذ زمن بعيد مثل هذا الحدث المجيد.

رينيه : لماذا لا تطلب قرع أجراس المدينة؟ يا سموّ ولي العهد، أصدر أوامرك الى المواطنين كي يضرموا نيران الفرح ويعيّدوا

ويقيموا الولائم في الشوارع احتفالاً بالظفر الذي منّ الله به علينا.

آلنسون : ستبتهج كل فرنسا عندما تعلم بأننا أثبتنا رجولتنا وبسالتنا بهذا النصر العظيم.

شارل : ها هي جان دارك، لا نحن، قد ربحت معركة هذا النهار. وعرفاناً بجميلها سأشركها معي في الحكم. فجميع رجال الدين في مملكتي سيهلّلون ويشيدون بفضلها، وسأبني لها هرماً أضخم من أهرام ممفيس في مصر. ولتخليد ذكرها بعد وفاتها، سأحتفظ برماد جثمانها في صندوق صغير من خشب ثمين مطعّم من مخلفات داريوس، سنطوف به أمام ملوك فرنسا وملكاتها. وستكون جان دارك العذراء شفيعة بلادنا فرنسا. هيا نرجع الآن لنحتفل بمأدبة ملكية بهذا اليوم المجيد المظفّر.

(تصدح الموسيقى. ثم يخرج الجميع).

الفصل الثاني

المشهد الأول

أمام مدينة أورليان

(هبط الليل. وظهر أمام باب المدينة رقيب فرنسي واثنان من الحرس).

الرقيب : إلى أمكنتكم يا رفاق، وكونوا يقظين. فاذا لاحظتم قيام ضجة أو اقتراب جندي من السور، اعلموا الحرس بإشارة بارزة.

الحارس الأول : نعدك بذلك، أيها الرقيب. (ينسحب الرقيب). وهكذا يظل الحرس متيقّظين في عتمة الليل وتحت الأمطار يتحمّلون البرد، بينما الآخرون يغطّون في النوم على أسرّتهم الدافئة.

(يصل تالبوت وبدفورد وبوركون وجنود حاملين سلالم، وغيرهم يقرعون الطبول بشدة).

تالبوت : أيها اللورد الوصي، وأنت يا بوركون المريع، وقد أعدت لنا بتحالفك معنا صداقة مناطق ارتوا ووالون وبيكارديا، بينما الفرنسيون في هذه الليلة الهادئة يستريحون بأمان، بعد أن شربوا وأكلوا أثناء المأدبة طوال النهار. هيّا نغتنم هذه الفرصة

لمعاقبتهم على خيانتهم التي لم تنجح والحمد لله رغم تفننهم وسحرهم المشؤوم.

بدفورد : كم لطّخ الفرنسي الجبان اسمه بالعار، وهو يشكّ بقوة زنده، فلجأ الى زبانية الجحيم مستعيناً بمكرهم وخداعهم.

بوركون : لا أعرف أن للخونة شركاء. ولكن من هي هذه الصبية التي تشيدون بطهارتها؟

تالبوت : يقال أنها عذراء.

بدفورد : عذراء، وتحارب بضراوة؟

بوركون : نتمنى أن تظل طويلاً على هذه الحالة من الرجولة كي تظل تقاتل وهي مدجّجة بالسلاح تحت لواء فرنسا كما بدأت.

تالبوت : دعِ الناس يتحدثون هكذا عن الأرواح الشريرة. سينصرنا الله ويمنحنا الظفر، فما علينا إلا أن نصمم على السير في طرقاتهم الحجرية حتى نستولي عليها.

بدفورد : اصعد أيها الشجاع تالبوت وسنلحق بك.

تالبوت : ليس كلكم دفعة واحدة. الأنسب، على ما أرى، أن ندخل من عدة جهات، حتى اذا أخفق أحدنا يتسنى للباقين أن ينقضّوا على أعدائنا.

بدفورد : أنا موافق. وسأذهب من هذه الناحية.

بوركون : وأنا الى تلك الجهة.

تالبوت : وهنا سأنجح أو أخفق. والآن يا سالزبري، أحارب لأجلك ولأجل تثبيت حقوق هنري ملك انكلترا. هذه الليلة سأبرهن لكم كم أنا وفيّ لك وله.

(يتسلق الانكليز الأسوار وهم يصرخون : عونك اللهم، أنصر تالبوت، ويدخل الجميع المدينة).

حارس (من الداخل) : الى السلاح، الى السلاح. فالعدو يهاجمنا.

(يقفز الفرنسيون على الأسوار وهم بالقمصان. يصل من عدة أمكنة اللقيط وآلنسون ورينيه وهم نصف عراة).

آلنْسون : ما هذا يا سادة؟ جميعكم هكذا تقريباً عراة.

اللقيط : عراة! أجل ونحمد الله على نجاتنا.

رينيه : حان الوقت كي نستيقظ ونغادر أسرّتنا، لأننا سمعنا الانذار يعلو عند أبواب غرفنا.

آلنْسون : في الحقيقة منذ أن أصبح حمل السلاح مهنتي، لم أسمع أبداً بمغامرة أسوأ من هذه.

اللقيط : أظن أن تالبوت شيطان قادم من الجحيم.

رينيه : وان لم يكن من الجحيم، فالسماء تُعينه.

آلنْسون : ها هو شارل مقبل. وقد أدهشتني غيرته وحماسته.

(يدخل شارل تصحبه العذراء).

اللقيط : هذا أمر مفروغ منه طالما جان دارك تعهدت بحمايته.

شارل (لجان دارك) : هل هذا كل ما تحسنين عمله، أيتها الآنسة الخبيثة؟ لقد خدعتنا أوّلاً إذْ أمنت لنا ربحاً زهيداً، ثم أنزلت بنا خسارة فادحة.

العذراء : لماذا أنت قليل الصبر حيال صديقتك؟ هل تريد أن تكون مقدرتي على الدوام شرعية سواءً أكنت نائمة أو مستيقظة؟ هل يتحتم عليّ أن أكون منتصرة باستمرار، وإلا وجّهت اليّ اللوم والعتب؟ أيها الجندي المتسرع، لو تيقّظت كما يجب لما حلّت بك هذه الكبوة.

شارل : الخطأ صادر عنك يا دوق آلنسون. فبصفتك الضابط المولج بالحراسة ليلاً، كان الأولى بك أن تظل ساهراً على تأدية مهمتك.

آلنْسون : لو كانت جميع مواقعك محروسة جيداً نظير الموقع الذي كان في عهدتي لما حلّت بنا هذه الكارثة المشينة.

اللقيط : موقعي أنا كان محروساً جيداً.

رينيه : وكذلك موقعي، يا مولاي.

شارل : أما أنا فطوال الليل لم أكفّ عن اجتياز مقرّ العذراء ذهاباً واياباً، يميناً ويساراً، وأنا أتفقد الحراس في كل مكان. فكيف ومن أين دخل الأعداء؟

العذراء : لا تسألوا يا سادتي كيف ومن أين؟ لا شك في أنهم وجدوا ثغرةً، حراستها ضعيفة وغير كافية، فتسلّلوا منها. والآن لم يبق، أمامنا إلا جمع شتات رجالنا ودرس خطط جديدة لمواجهة العدو وقهره.

(يسمع تحذير. يدخل جندي انكليزي وهو يصرخ : تالبوت، تالبوت. يهرب الفرنسيون تاركين ثيابهم فيلمّها الجندي).

الجندي : أسمح لنفسي بأن آخذ ما تركوه. وقد أرعدتني صرخة تالبوت كأنها طعنة خنجر. ها أنا أجمع ما خلّفه الهاربون وراءهم، بدون استعمال أي سلاح إلا المناداة باسمه فقط.

(يخرج).

المشهد الثاني

في أورليان، وسط ساحة السوق

(يدخل تالبوت وبدفورد وبوركون وضابط وسواهم).

بدفورد : ها قد طلع الصباح وهزم ظلام الليل الذي كان يغطي الأرض بوشاحه الأسود. هيّا بنا ندق النفير للانسحاب، ونوقف مطاردتنا الحامية.

(ينفخ بوق الانسحاب).

تالبوت : هاتوا جثمان سالزبري العجوز، ضعوه هنا في ساحة السوق وسط المدينة الملعونة. الآن وفيت بالوعد الذي قطعته على نفسي أمامه. فلقاء كل قطرة دم سالت من جسمه، مات هذه الليلة خمسة فرنسيين على الأقلّ. ولكي ترى الأجيال القادمة كم أوقعنا من الخسائر في صفوف الأعداء انتقاماً له، سأقيم في أكبر معابدهم ضريحاً يدفن فيه جثمانه ويكتب على بلاطه بوضوح ما يشهد بما أنزلناه من ويلات بمدينة أورليان، وبالفخ الذي سبب موت المأسوف عليه الذي زرع الرهبة والفزع في كل فرنسا. لكن يا سادة، يدهشني أن لا نتكلّم أيضاً عن سموّ ولي العهد، ولا عن فضيلة جان دارك، ولا عن أيٍ من هؤلاء الشركاء الجاحدين.

بدفورد : يبدو لي، يا لورد تالبوت، انهم في أول المعركة طُردوا من أسرَّتهم، وإنهم راحوا يسيرون، وهم غارقون في النوم، ويخترقون صفوف المسلّحين، ثم يقفزون من فوق الحواجز كي يلجأوا الى البراري.

بوركون : أنا ذاتي، بقدر ما تسنّى لي أن أميّز من خلال أبخرة الشفق عند اقتراب الليل، أراني واثقاً بأني جعلت ولي العهد يهرب مع حسنائه المسيطرة عليه وهما لا يفترقان نهاراً وليلاً متشابكَيْ الأيدي كالعشاق. فعندما يتم اتخاذ كل التدابير هنا سنطاردهما بكل قوانا.

(يدخل رسول).

الرسول : مولاي، عليك السلام. من هو هذا المركب الأميري، المدعو تالبوت المحارب الذي تشيد بمآثره مملكة فرنسا بأسرها.

تالبوت : ها أناذا تالبوت. فمن يريد أن يكلمني؟

الرسول : سيدة فاضلة، هي كونتيس أوفارن المعجبة بشجاعتك وشهرتك، وهي التي تلتمس منك على لساني، أيها اللورد

الكريم، أن تتنازل وتزور قصرها المتواضع لكي يتسنى لها أن تفاخر بأنها رأت فعلاً رجلاً تملأ أمجاده الدنيا.

بوركون : هل هذا صحيح؟ اني ألاحظ أن حروبنا ستصبح مهازل سلميّة اذا كانت السيدات يلتمسن مثل هذه المقابلات. لا يسعك، يا مولاي، أن تزدري مثل هذا الطلب.

تالبوت : لا تستغرب كثيراً إن احتقرت ذلك. فان ما لا تقوى مجموعة من الرجال أن تناله مني، سهل على امرأة لطيفة، أن تفرضه عليّ فرضاً. (للرسول) قل لها اذاً أني مستعد لتلبية طلبها، وأني سأذهب اليها بكل طيبة خاطر. (لدوق بوركون وبدفورد) ألا تريدان، يا سيديَّ، أن ترافقاني؟

بدفورد : كلا، لأن هذا يخالف اللياقة، وقد سمعت مراراً أن الضيف غير المنتظر لا يلقى أي ترحاب.

تالبوت : اذاً، بما أن هذا رأيكم، فسأمضي وحدي لاختبار حسن ضيافة هذه السيدة. تعالَ الى هنا أيها الضابط. (يكلم الضابط بصوت خافت). أنت تفهم قصدي.

الضابط : طبعاً يا مولاي. وسأعمل بموجب تعليماتك.

(يخرجان).

المشهد الثالث

في باحة قصر أوفارن

(تدخل الكونتيس يتبعها البوّاب).

الكونتيس : أيها البواب تذكر أوامري. وبعد أن تنفذها أرجع إليّ المفاتيح.

البواب : أمرك مطاع، يا سيدتي.

(يخرج).

الكونتيس : لقد رسمت الخطة. واذا نجحت سأكتسب شهرة نظير « توميريس شيتي » عند موت سيروس. كانت شهرة هذا الفارس تطبّق الآفاق وأعماله العظيمة باهرة. أريد أن أضيف الى ما تسمعه أذناي ما تراه أيضاً عيناي من هذه القصص الفريدة.

(يدخل رسول تالبوت).

الرسول : سيدتي، حسب مشيئتك وتلبية لدعوتك الكريمة، ها هوذا تالبوت يلبّي دعوتك.

الكونتيس : أهلاً وسهلاً. هل هو هذا؟

(تشير الى تالبوت).

الرسول : أجل يا مولاتي.

الكونتيس : هل هو من أنزل الضرب بفرنسا وقد أرجف اسمه القاصي والداني، وعَقَل لسان الأولاد؟ فممّا أراه أمامي أستنتج أن التقارير خيالية ومغلوطة، اذ كنت أنتظر أن أرى مارداً كهرقل وجباراً كهكتور، رؤيته ترعد الفرائص وجسمه الضخم وعضلاته المفتولة تبعث الرعب في النفوس. لكنني أبصر أمامي ولداً صغيراً بل قزماً مضحكاً. ولا يعقل أن يكون هذا الهزيل النحيل قد ضرب أعداءه ضربة قاضية أنزلت بهم الموت والدمار.

تالبوت : سيدتي، يؤسفني أن أزعجك. أراكِ الآن غير مرتاحة. لذا سأزورك فيما بعد.

(يتهيّأ للخروج).

الكونتيس : ماذا تقول؟ (للرسول) اذهب واسأله الى أين هو ماضٍ.

الرسول : أرجوك أن تقف يا مولاي، لأن السيدة تودّ أن تعرف الى أين أنت متّجه فجأة.

تالبوت : والله، هي مخطئة. وأنا أنوي أن أثبت لها أني باقٍ ها هنا.

(يدخل البوّاب ومعه المفاتيح).

الكونتيس : ان كنت أنت تالبوت، فأنت اذاً سجيني.

تالبوت : سجين من؟

الكونتيس : سجيني أنا، أيها اللورد الملطخ اليدين بالدم. ولذلك استدرجتك للمجيء اليّ. منذ زمن بعيد، خيالك في قبضتي، لأن رسمك معلّق في قاعة قصري. أمّا اليوم فشخصك بالذات انتهى الى شرّ المصير. سأكبّل يديك ورجليك بالحديد أيها الطاغية المستبدّ، بعد اجتياحك بلادنا وقتلك مواطنينا وأسرك أولادنا وأزواجنا.

تالبوت (يقهقه ضاحكاً) : ها ها ها.

الكونتيس : أراك تضحك أيها الشقي الحقير. سأقلب ضحكاتك الى آهات وتنهدات.

تالبوت : أنا أضحك لأني أجدكِ في غاية البساطة، يا سيدتي. أنت تتصورين أنك تملكين خيال تالبوت طبقاً لأهوائك السخيفة.

الكونتيس : أولا تكون الرجل المقصود؟

تالبوت : بلى، أنا هو.

الكونتيس : اذاً، أصبح الأصل في قبضتي، كما كنت أحتجز الخيال.

تالبوت : لا، لا. أنا لست خيالاً. أنت واهمة. فأنا شخصياً لست هنا. لأن من تشاهدينه أمام عينيك ليس سوى جزء صغير من الرجل. أؤكد لك ذلك يا سيدتي، ولو كان هنا بكامله، فنظراً الى ضخامته الهائلة، لا يتسع له سقفك مهما علا.

الكونتيس : أرى أن هذا المشعوذ يتكلم بالألغاز. فهو حاضر هنا ويدّعي أنه غائب عنا. ما هذه التناقضات، وكيف التوفيق بينها؟

تالبوت : سأبيّن لك ذلك حالاً. (ينفخ في الأبواق وتقرع الطبول. ثم تقصف المدافع وتخلع أبواب القصر ويدخل الجنود). ما قولكِ، يا سيدتي؟ هل اقتنعت بأنك لا تريد سوى خيالي؟ وها هو شخصي بعينه، وها هي عضلاتي وذراعاي وقواي التي استخدمها لوضع جميع المتمردين المقاومين تحت نير سيطرتي فأجتاح المدن وأقلب الأوضاع رأساً على عقب وأدهور كل شيء في هوة العدم كأنه ما كان.

الكونتيس : أيها المنتصر تالبوت، أطلب منك السماح على ما الحقته بك من سوء. فأنت حقاً تفوق ما توحي به طلعتك. أسألك أن لا تقابل استهتاري بغضب، لأني آسفة على كوني لم أقابلك بالاحترام اللائق بمقامك وبمقدرتك.

تالبوت : لا ينشغل لكِ بال، أيتها السيدة الحسناء، ولا تتجاهلي شهامتي كما جهلت تفوّقي. فان ما بدر منك لم يغظني أبداً، والمنّة التي التمسها منك هي أن تذيقيني خمرك وما يتوفر لديك من أطايب الحلوى، لأن شهية الجندي دائماً مفتوحة وممتازة.

الكونتيس : حباً وكرامة. يسعدني ويشرّفني أن استضيف على مائدتي محارباً لامعاً مثلك.

(يخرجان).

المشهد الرابع

في لندن، وسط حديقة المعبد

(يدخل الكونت سومرست وسوفولك ووورويك وريشار بلانتاجينيه وفرنون ورجل قضاء).

بلانتاجينيه : أيها اللوردات والسادة، ما معنى هذا السكوت؟ لا أحد يجرؤ على اعلان الحقيقة.

سوفولك : نحن نضجّ كثيراً داخل المعبد. هذه الحديقة أنسب لحديثنا.

بلانتاجينيه : اعترفوا كلكم حالاً بأني بيّنت الحقيقة، وان المشاغب سومرست مخطئ.

سوفولك : لعمري، أنا لست بارعاً في تطبيق مبادئ علم الحقوق، ولم أخضع أبداً للقانون. لذلك أخضعت القوانين دائماً لمشيئتي.

سومرست : أحكُم اذاً بيننا أنت، يا لورد ورويك.

ورويك : على كل حال، من منكما يرتفع صوته في الجو أكثر؟ ومَن من الكلبين نباحه أعلى؟ ومن من النصلتين حدّها أرهف؟ ومن مِن الجوادين قياده أسهل. ومن من الصبيتين تغمز بعينها أفضل؟ أعتقد بأن لي من النظر الثاقب ما يكفي للبتّ في كل هذه المسائل. انما في هذه القضايا الدقيقة لست أولى حكماً من سواي.

بلانتاجينيه : لا، لا، هذا مهرب مهذّب. فالحقيقة المجردة بادية للعيان لا يغفل عن رؤيتها حتى كليل البصر.

سومرست : ومن جهتي، هذه ظاهرة ناصعة كالشمس لا تحتاج الى برهان، حتى أنها لا تغيب عن عيون الأعمى.

بلانتاجينيه : بما أنك لا تفتح فمك وتأبى أن تتكلم، ما عليك إلا أن تعبّر عن رأيك بشهادة صامتة. فمن ولد في أحضان النبل يبرز نسبه العالي ويؤمن بأني أدافع عن الحق، فيقطف من هذه الشجيرة وردة بيضاء.

سومرست : ومن ليس جباناً ولا متملقاً يجسر على الوقوف الى جانب الحق ويقطف معي من بين هذه الأشواك وردة حمراء.

ورويك : أنا لا أحب الألوان، وبدون الألوان لا تلميحات ولا تزلفات، لذا أقطف وردة بيضاء مع بلانتاجينيه.

سوفولك : أنا أقطف هذه الوردة الحمراء مع سومرست الشاب، وأضيف أنه وقف الى جانب الحق.

فرنون : تمهّلوا، أيها اللوردات والسادة، قبل أن تتابعوا ما باشرتموه،

وأعلموا أن الذي يقطف من الاثنين وروداً أقل عدداً يكون هو صاحب الحق.

سومرست : أيها الأستاذ فرنون، هذا حل ملائم، واذا كان نصيبي أنا العدد الأقلّ فاني أوافق بصمت.

بلانتاجينيه : أنا كذلك.

فرنون : اذاً باسم الحقيقة والعدل، أقطف هذه الزهرة الشاحبة خفراً وحياءً كوجنتي العذراء، وبذا أعلن قراري بتأييد الوردة البيضاء.

سومرست : لا تدع الشوك يؤلم أصابعك، وأنت تقطف الورود خوفاً من أن تصبغها بحمرة دمك وتنحاز إليّ قسراً.

فرنون : مولاي، اذا سفكت دمي في سبيل رأيي فان رأيي يضمّد جراحي ويشدني إلى من وقع عليه اختياري.

سومرست : حسناً. هيا، من يقطف أيضاً؟

رجل القضاء (لسومرست) : إن لم تخدعني دراساتي ومجلداتي، أعلن أن هذه الطريقة غير سليمة. لذلك أنا أيضاً أقطف وردة بيضاء.

بلانتاجينيه : والآن أين حجتك يا سومرست؟

سومرست : هنا في غمد سيفي. وما عليّ إلا أن أحتكم اليه لأصبغ وردتك البيضاء بدمك الأحمر.

بلانتاجينيه : في هذه الأثناء أرى وجنتيك قد استعارتا لونهما من ورودنا التي شحبت لدى بروز الحق الى جانبي.

سومرست : لا يا بلانتاجينيه، ليس خوفاً بل غضباً، وقد احمر خداك عاراً وخزياً بينما أنت ترفض أن تعترف بغلطك.

بلانتاجينيه : أليس من دودة تنخر وردتك، يا سومرست؟

سومرست : أليس من أشواك تحيط بوردتك أنت، يا بلانتاجينيه.

بلانتاجينيه : نعم، أشواك حادة مؤلمة تدافع عن الحقيقة، بينما دودتك تلتهم دناءتك.

سومرست : لن أعدم أصدقاء يحملون ورودي الدامية ويؤكدون أن ما أعلنه هو عين الصواب بينما المراوغ بلانتاجينيه لا يجرؤ على الظهور في الساحة.

بلانتاجينيه : اذاً، بحق الوردة النضرة التي أمسكها بيدي أنا أحتقرك وأحتقر شعارك، أيها الولد العاق.

سوفولك : لا تحوّل ازدراءك الى هذه الناحية، يا بلانتاجينيه.

بلانتاجينيه : لقد فعلت ذلك، أيها المتعجرف، وأنا أحتقركما كليكما.

سوفولك : أنا أهزأ بهذا الاحتقار وأردّ كيدك الى نحرك.

سومرست : كفى، كفى يا عزيزي وليم. نحن نكرم هذا المشعوذ أكثر مما يستحق بمواصلة حديثنا معه.

ورويك : والله أنت تهينه يا سومرست. كان جده ليونيل دوق كلارنس ثالث أبناء ادوارد ملك انكلترا. فهل من هذه الأسرة العريقة ينحدر مثل هذا الدجّال؟

سومرست : بحق من خلقني سأقرن أقوالي بالافعال على أي صعيد كان. أولم يُنفَّذ بوالدك ريشار كونت كمبريدج حكم الاعدام عقاباً على خيانته في عهد الملك الراحل؟ وبخيانته ألا يلحق بك العار ويجردك من كل نبل عائلتك العريقة؟ ان جريمتك لا يزال خزيها يسري في عروقك وإلى أن يعاد اعتبارك ستظل في نظر الجميع مشعوذاً دجالاً.

بلانتاجينيه : لقد اتهم أبي زوراً، ولم يلحق به أي عار. بل نفّذ به حكم الاعدام عقاب خيانة مزعومة. لكنه لم يكن خائناً، وأنا مستعد لأن أثبت ذلك بالرغم من ادعاءات من هم ألمع من سومرست عندما يحين الأوان حسب خطتي. بينما يلتصق بك وبشريكك في الخساسة، هذا الافتراء الذي لن أنساه، وسأنزل بكما القصاص اللازم في حينه لغسل اساءتكم بحقي. فكونا على حذر متيقّظين.

سومرست : أجل، سنكون دائماً على أتم الاستعداد، وستذكرك بعدائنا

هذه الألوان التي سيحملها أصدقائي شئت أو أبيت.

بلانتاجينيه : بحق السماء، سأحمل هذه الوردة الشاحبة غضباً كرمز حقدي الذي سيرتوي من دمك، كما يحملها جميع أنصاري الى أن تذوي معي في القبر أو تتفتّح أكمامها فرحاً في جوّ انتصاري.

سوفولك : أكمل، وليقتلك غرورك. على هذا أودّعك حتى لقائنا القريب.

(يخرج).

سومرست : سأتبعك. فالوداع يا ريشار الغبي.

(يخرج).

بلانتاجينيه : لقد احتملت سماجتهم ووقاحتهم، وعليّ أن أصمد في وجههم.

ورويك : ان هذه اللحظة التي يعيبون بها اسرتك ستمّحي في أول اجتماع للمجلس المدعو الى اقرار الهدنة بين ونشستر وكلوسستر. فان لم ترقّ الى مقام دوق يورك، فأنا لن أكون ورويك. في هذه الأثناء وكعربون لما أحفظه لك من مودّة ولسومرست ووليم من عداوة، سأحمل هذه الوردة وأكون الى جانبك. واليك ما أتوقعه : ان المناقشة التي جرت في حديقة المعبد، وهذا الانقسام الى فريقين، وردة حمراء ووردة بيضاء، سيؤدي بحياة ألوف الرجال في هذه الليلة الجنائزية بالذات.

بلانتاجينيه : عزيزي الأستاذ فرنون، أنا مدين لك لأنك قطفت زهرة لصالحي.

فرنون : ولأجلك سأحملها على الدوام.

رجل القضاء : وأنا أيضاً.

بلانتاجينيه : أشكركم يا سادتي. هيا بنا نتناول طعام العشاء نحن الأربعة.

فاني أجسر على القول أن هذه المشادة سترتوي دماءً غزيرة في وقت قريب.

المشهد الخامس

في برج لندن

(يدخل مرتيمور يحمله اثنان من الحراس على كرسي).

مرتيمور : يا حارسي الأمين في شيخوختي المتخاذلة، دعني أنا المنازع أسترحْ ها هنا. فان سجني الطويل قد سبب لي العرج كأني رجل أُنقذ هذه اللحظة من منصة الاعدام. فقد شخت نظير نسطور من كثرة الهموم، وأعلنت هذه الشعرات البيضاء نذير الموت، قرب نهايتي أنا ادمون مرتيمور، وخمد النور في عينيّ نظير سراج شحّ زيته وكاد ينطفئ، وأرهق كفيّ الهزيلتين وقر الحزن والأسى، وارتعشت يداي كأوراق الخريف التي تتساقط الى الحضيض عن أغصانها اليابسة، وفقدت رجلاي قواهما، وقد جفّ عودي، ولم تعودا قادرتين على حمل جسمي الذي أمسى كالخزف المعطوب يسير بي الى القبر برجلين هرمتين عاجزتين كأنهما أحسّتا بأني بتّ لا أملك ملاذاً ولا ملجأ في هذه الدنيا الفانية. قل لي بربك أيها الحارس هل سيأتي ابن أختي؟

الحارس الأول : أجل، سيأتي ريشار بلانتاجينيه يا مولاي. فقد ارسلنا الى المعبد وإلى منزله من يستدعيه، وقيل لنا أنه قادم.

مرتيمور : هذا يكفي لتهدئة روعي. مسكين هذا الوجيه! ان مذلّته هي مذلتي. فمنذ بدء حكم هنري « مونموت » الذي سبقت عظمته أمجادي السالفة التي أورثتني الاحتجاز منذ ذلك

الحين، غاب ريشار عني وتركني في غياهب النسيان، كما خسرت ميراث العزّ والشرف. لكن الموت هو نصيب اليائس ومنقذ البائس من الشقاء والهوان، لن يلبث أن يجود عليّ بالخلاص. وكم وددت أن يكون زمن هزّاته العنيفة قد ولّى وأن يدعني وشأني بأمان وسلام.

(يدخل ريشار بلانتاجينيه).

الحارس الأول (لمرتيمور) : مولاي، وصل ابن أختك الحبيب.

مرتيمور : ريشار بلانتاجينيه نسيبي؟

بلانتاجينيه : أجل، يا خالي النبيل المتّم بالدنايا، وصل ابن أختك تدفعه اليك اهانة جديدة.

مرتيمور : اقترب مني كي أضمك الى صدري بذراعيّ الهزيلتين، قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة. دع شفتي تقبل وجنتيك بعطف وحنان. والآن اشرح لي يا سليل أسرة يورك العريقة ما ألمحت اليه من تحقير جديد.

بلانتاجينيه : اتكئ على ذراعي بيدك الهزيلة فأعلمك بسبب انزعاجي. في نقاش حول قضية حقوق، تبادلتُ اليوم أنا وسومرست بضع كلمات ناشفة إذْ عيّرني بظروف موت والدي. فأغلق هول هذا الاتهام فمي، وإلا كنت ألقمته جواباً كالحجر. لذا أرجوك، يا خالي العزيز، باسم والدي وفي سبيل شرف أسرتنا واكراماً لنسابتنا، أن تفيدني بصراحة عما سبّب وفاة أبي كونت كمبريدج، ولماذا قُطع رأسه؟

مرتيمور : نفس الحجة، التي من أجلها سجنت أنا يا ابن أختي، منذ أيام شبابي وأُودعتُ زنزانة ضيّقة بغيضة، كانت الدافع الى اعدامه الرهيب.

بلانتاجينيه : أرجوك أن تذكر لي ما أجهله من تفاصيل لا أستطيع تخيّلها.

مرتيمور : سأشرحها لك بقدر الامكان اذا لم تباغتني منيّتي قبل أن

أنهي لك القصة. ان هنري الرابع جد الملك الحالي قد خلع ابن اخته ريشار، بكْر الملك ادوارد الثالث، وريثه. وفي عهده وجد أفراد عائلة برسي الشمالية أن اغتصابه التاج كان ظلماً وعدواناً فحاولوا أن يجلسوني على العرش. وادّعى هؤلاء اللوردات المناوئون أن أبعاد ريشار تمّ هكذا لأنه ليس وريثاً شرعياً له من صلبه، وهذا يجعلني أقرب بالنسب الى الإستئثار بالملك، لأن والدتي سليلة ليونيل دوق كلارنس ثالث أولاد ادوارد الثالث، بينما هو ينتسب الى يوحنا دي غان الذي لم يكن سوى الرابع في هذه السلالة. انما، إستمع الي جيداً، في هذه القضية الخطيرة التي ترمي الى ردّ الحقوق الشرعية لصاحبها، قد فقد المعارضون حياتهم كما فقدت أنا حريتي. بعد زمن طويل، خلف هنري الخامس، المتوفي الآن، والده بولنبروك على العرش، بينما والدك كونت كمبريدج انحدر من النبيل ادمون لنكلي دوق يورك الذي تزوج أختي والدتك، فغص لحزني العميق، وجند جيشاً جديداً كي ينقذني ويعيد اليّ التاج. لكن هذا الكونت المنصف أخفق مثل غيره فنُفّذ فيه حكم الاعدام وقطع رأسه. وهكذا أُبيدت أسرة مرتيمور صاحبة الحق بهذا العرش المتنازع.

بلانتاجينيه : وأنت، يا مولاي، آخر شخص من هذه السلالة الكريمة.

مرتيمور : هذا صحيح. وبما أني لم أرزق أولاداً، وكلامي المتهدج ينبئ بدنوّ أجلي، فأنت وريثي الوحيد، وأرجوك أن تستخلص مرامي. لكنني أوصيك بالحذر الشديد أثناء تنفيذ مهمتك الشاقة الخطرة.

بلانتاجينيه : لن أنسى ما تسديه اليّ من نصح سديد. انما يخيّل الي أن أنزال عقوبة الاعدام بوالدي لم يكن سوى عمل دموي شنيع وطغيان دنيء.

مرتيمور : أكتم، يا ابن أختي هذا السر السياسي، لأن أسرة لنكاستر

قد وطدت قواعدها وكالجبل الراسخ لا سبيل الآن الى زحزحتها بسهولة. لكن خالك على وشك الانتقال الى العالم الآخر كما ينقل الأمير بلاط حكمه وقد تعب من طول الاقامة في نفس المكان.

بلانتاجينيه : آه! يا خالي. كم أود التخلي عن سنين عديدة من عمري لاطالة أيام شيخوختك.

مرتيمور : هل تريد أن تزيد شقائي وآلامي نظير الجزار الذي يطعن عدة مرات ضحيته، بينما طعنة واحدة تكفي للقضاء عليها. لا تأسف على ما فات، إلّا إذا كانت سعادتك رهينةً في الميدان. أصدر أوامرك لدفني بشكل لائق. وعلى هذا استودعك الله، آملاً أن تحقق جميع امانيك، وأن تكون حياتك حافلة بالأفراح والتوفيق في أيام السلم وأيام الحرب على السواء.

بلانتاجينيه : لترافق السلامة نفسك الراحلة. لقد أقمت طويلاً في السجن. وقضيت أيامك في عزلة كالناسك المتعبد. أجل، سأحفظ نصائحك في أعماق قلبي وسأسعى الى تحقيق أحلامي. أيها الحراس خذوه من هنا وسأقيم له جنازة لائقة أبهى من حياته القاتمة. (يخرج الحراس حاملين مرتيمور) هنا انطفأ مشعل وجود مرتيمور، وقد خبا نوره الذي أخمدته الأطماع الخسيسة. أما الاهانة والمسبات البذيئة التي وجهها سومرست الى أسرتي فلن أسكت عنها أبداً بل سأعمل على رفع الحيف عني لإحقاق الحق المغتصب. لذلك سأسرع الى المجلس حيث أسعى الى ردّ اعتباري واسترداد مكانتي جاعلاً من الشر اداة لخيري.

(يخرج).

الفصل الثالث

المشهد الأول

في لندن، وسط قاعة المجلس

(تصدح الموسيقى. يدخل الملك هنري واكساتر وكلوسستر وورويك وسومرست وسوفولك وأسقف ونشتسر وريشار بلانتاجينيه وغيرهم.
يتقدم كلوسستر لتسليم وثيقة اتهام فينتزعها منه ونشستر ويمزّقها).

ونشستر : أنت تأتينا بمستند استغرقت كتابته تفكيراً طويلاً وبمنشور متقن التدبيج، يا همغري كلوسستر. فاذا كنت تتهمني ولديك ما تثبت به قولك، لا تتأخر أبداً عن ابرازه بدون استعداد، لأني متأهب لردّ جميع ادعاءاتك حالاً بصورة ارتجالية.

كلوسستر : يا رجل الدين، يا متجبّر، ان هذا المكان يفرض عليّ التبصّر والصبر، وإلا لكنت عدّدت لك ما ألحقته بي من إهانات. لا تظن إن بينت لك كتابةً جميع جرائمك المنحطة اني أخترعتها واني غير قادر شفاهياً على تكرار ما سطّرته ريشتي. كلا، يا محترم. فهذه جسارتك الحقيرة أردّها اليك مع كل مساوئك التي لا تخفى حتى على الأولاد، مقرونة بكبريائك وعجرفتك. فأنت أبغض المرابين وعلى جبينك وصمة أسفل

الطباع، أنت عدو السلام أما خيانتك فلا تحتاج الى برهان. ألم تحاول أن تسلبني حياتي في كمين عند جسر لندن بالقرب من برجها. واذا نبشنا خباياك أخشى أن لا ينجو حتى مليكك نفسه من حبائل حسدك وحقدك الأسودْ أيها اللئيم العاتي.

ونشستر : اني أتحداك يا كلوسستر. تكرموا يا سادة باصغائكم الى ردّي. لو كنت طامعاً جشعاً أو مغتصباً دنيئاً كما تدّعي، فكيف بقيت فقيراً؟ لماذا لا أحاول أن أتقدم أو أن أترفع بل أكتفي بتتميم واجبات منصبي؟ ومن جهة الفوضى، من هو المتشبّث بالسلام أكثر مني إلّا حين إستجابة التحدي. لا يا سادتي الأفاضل، ليس هذا ما يغيظ الدوق ولا ما يثيره. المهم هو أنه يريد أن ينفرد بالحكم وأن يتمتع وحده بالحظوة في عيني الملك. ان ما يجعل خدّيه يصطبغان بالاحمرار هي الإتهامات الموجّهة اليه. لكنه سيعلم أني أوازيه نسباً وكرامة ومقداراً.

كلوسستر : أنت توازيني؟ يا لقيط جدّي؟

ونشستر : أجل أيها المحتال. أنت لست سوى مدّعٍ يسيطر على عرش سواه.

كلوسستر : أولست أنا حامي هذا العرش أيها الأحمق الوقح؟

ونشستر : وأنا، أولست من رجال الدين البارزين؟

كلوسستر : بل أنت سارق استوليت على هذا القصر وجعلت منه مغارة لصوص.

ونشستر : تباً لك من منافق دجّال، يا كلوسستر!

كلوسستر : ان ما يستدعي الاحترام هو مقامك الرفيع لا شخصك الوضيع.

ونشستر : ستعالج روما هذه المشكلة.

ورويك : هيا بنا أيها الرجل الفريد في عصره.

سومرست (لورويك) : يا مولاي، من صالحك أن لا تصل المسألة الى روما.

وورويك (لسومرست) : حاول أن توقف الأسقف عند حده.

سومرست : يخيّل إليّ أن على مولاي أن يعرف جميع واجبات رجال الدين.

وورويك : يخيّل اليّ أنا أيضاً أن الواجب يقضي عليك، يا سيدي، أن تكون متواضعاً اذ لا يليق برجل الدين أن يخوض مثل هذا المماحكات المريبة.

سومرست : نعم، عندما يمس وقاره واعتباره.

وورويك : لا أهمية هنا لوقاره (يشير الى كلوسستر) أوليس سيادته حامي الملك؟

بلانتاجينيه (على حدة) : أنا بلانتاجينيه، كما أعتقد، عليّ أن أصون لساني من الزلل، خشية أن يُقال لي : تكلم يا صاح، عند الاقتضاء. هل لحكمك الجريء من محلٍ في مناقشات اللوردات؟ وإلا كنت ألقمت ونشستر أحجاراً تخرسه الى الأبد.

الملك هنري : يا اخواني كلوسستر وونشستر أبرز حرّاس المصلحة العامة، أودّ إن كان لرجائي من وزن لديكم، أن تصلحوا بين المتخاصمين بصداقة ومودة. ما هذه الفضيحة التي تطال عرشي الذي اختلف في خدمته اثنان من النبلاء أمثالكم. صدقوني يا سادتي ان قلت لكم ان الخلاف المدني كالحية الرقطاء تسمّم أحشاء الحكم. (تسمع صرخات من الخارج) لتسقط البزات الصفراء. ما هذا الضجيج؟

وورويك : هذه مشاجرة أثارها رجال الأسقف.

(صيحات حديدة : الحجارة، الحجارة).

(يدخل محافظ لندن ووراءه بعض الحرس).

المحافظ : يا سادتي الكرام، وأنت أيها الملك الفاضل هنري، اشفقوا على مدينة لندن هذه وارحمونا. ان رجال الأسقف ورجال كلوسستر الذين حُرِّمَ عليهم من عهد قريب حمل السلاح

قد ملأوا جيوبهم حجارة وانقسموا الى فريقين متعادين وراحوا يتراشقون بعنف حتى كادت رؤوسهم تتهشم. لقد تكسّر زجاج نوافذنا في جميع الشوارع واضطررنا من قبيل الاحتياط الى اغلاق حوانيتنا.

(يدخل رجال كلوسستر، ورجال ونشستر وهم يتضاربون).

الملك هنري : اني انذركم، بموجب سلطتي، أن تجمدوا أيديكم الآثمة وان تلزموا الهدوء والسلام. أرجو يا عمي كلوسستر أن تضع حداً لهذه المشاغبات.

الحارس الأول : اذا منعتم عنّا الحجارة قاتلنا بأسناننا.

الحارس الثاني : تجاسروا قدر استطاعتكم، فنحن مصمّمون على العراك.

(يتواصل الشجار).

كلوسستر : أنتم رجالي، وأنا أطلب منكم أن توقفوا هذه المشاحنة وأن تضعوا حداً لهذا النزاع السافل.

الحارس الثالث : نحن نعلم أن سعادتك رجل مستقيم، وتحاول، بفضل كرم نسبك الملكي ونظراً الى كونك لا تعترف بسيّد عليك سوى جلالة الملك، أن تكون أميراً فاضلاً على رأس حكم صالح، وأن لا تتلقى أية اهانة من صعلوك، لذا ترانا مع نسائنا وأولادنا مستعدين جميعاً للقتال في سبيل نصرتك ومحاربة أعدائك وافتدائك بدمائنا.

الخادم الأول : أجل، سنقاتل، وبأظفارنا سننبش أرض المعركة اذا قدر لنا أن نموت لأجلك.

كلوسستر : قفوا، قفوا، أقول لكم. ان كنتم حقاً تحبونني كما تصرحون، أرجوكم أن تبرهنوا على صدق نيّتكم وتتمالكوا أنفسكم.

الملك هنري : كم يدمي قلبي هذا الخلاف! هل بإمكانك يا لورد ونشستر أن تسمع أنّاتي وترى دموعي بدون أن يرقّ فؤادك لحالي؟

مَن غيرك سيكون حليماً رحوماً بحقّي؟ مَن يصون السلم اذا حلا لرجال الدين ان يتخاصموا؟

وررويك : يا حامي المملكة، تحمّل مسؤوليتك، واذا لم تشأ أن تلبي نداء الواجب اقتل مليكك واهدم اركان المملكة. انظرْ كم سببت بعدائك من الشقاء ومن الضحايا. بادرْ الى توطيد التفاهم والوئام اذا لم تكن متعطشاً الى سفك الدماء.

ونشستر (يشير الى كلوسستر) : إمَّا أن يعلن خضوعه أو لن أرضى أبداً بالوفاق.

كلوسستر : اشفاقي على الملك يضطرني الى الإزعان. وإلا عمدت الى ازهاق روح هذا الحبر قبل أن ألين.

وررويك : أنظر يا مولاي ونشستر؟ لقد تحاشى الدوق موجة التذمّر، وهذا محياه الهادئ يدلّ على ذلك. فلماذا يلازمك هذا العبوس المأسوي.

كلوسستر : اليك يا ونشستر أمدّ يدي.

الملك هنري : تباً لك يا عمي بوفور. لقد سمعتك تؤكد في مواعظك أن الحقد خطيئة فظيعة. فهل لك أن تطبق بنفسك الدرس الذي تلقيه على غيرك، وأن لا تكون أول المخالفين؟

وررويك : أتسمع أيها الملك الكريم، جئير هذا الأسقف المرائي؟ يا للعار، يا لورد ونشستر. سلّم بالواقع. ما هذا التصرّف؟ أتحتاج الى ولدٍ كي يعلمك واجبك؟

ونشستر : اذاً، تراني أنحني أمامك، وأقابل محبتك بمودتي وأصافح اليد الممتدّة اليّ.

كلوسستر (على حدة) : أخشى أن يكون تصريحك عكس ما تضمره لي. اسمعوا يا أصدقائي، ويا مواطنيّ المخلصين. هذا يدل على وجود هدنة فيما بيننا نحن الاثنين وبين جميع رجالنا. فاسأل العون من الله كي يوفّقني في كل مساعيّ.

ونشستر (على حدة) : ربنا لا يأخذ بيدي، إن لم أكن صافي النيّة.

الملك هنري : يا عمي العزيز، دوق كلوسستر الكريم، كم يسرني هذا

التفاهم والوئام! (لرجال الدوق ورجال الأسقف) : اذهبوا يا أصحابي، ولا تسببوا لي أي قلق كما فعل سادتكم.

الخادم الأول : أمرك مطاع يا مولاي. أنا ماضٍ إلى الجرّاح.

الخادم الثاني : وأنا أيضاً.

الخادم الثالث : وأنا ذاهب لأرى أي دواء أجرع في الحانة.

(يخرج المحافظ ورجال الدوق ورجال الأسقف).

وورويك : أيها الملك الحكيم. نلتمس منك أن تقبل باسم ريشار بلانتاجينيه، ما نقدّمه لجلالتك.

(يقدم ورقة معروض للملك).

كلوسستر : فكرة ممتازة يا مولاي وورويك. (للملك) فعلاً، أيها الأمير العزيز، اذا أخذت جلالتك هذه الظروف بعين الاعتبار يكون الحق بجانبك خاصة اذا منحت ريشار حقوقه حسب ما بينته أنا لجلالتك في محلّة ألْتهام.

الملك هنري : هذه الأسباب، يا عمي العزيز، كانت موجبة. وهكذا، يا سادتي اللوردات الأكارم، يسعدني أن أعيد الى ريشار جميع ما يحقّ له بسحب مولده النبيل.

وورويك : لِتُعَدْ الى ريشار جميع حقوق أسرته، وهكذا يُعوّض عما لحق بوالده من اهانات.

ونشستر : ما يريده سائر الوجهاء أريده أنا أيضاً.

الملك هنري : اذا كان ريشار أميناً، فلن أتوقف عند هذا بل أعيد اليه كل ما يخصه من إرث بيت يورك الذي ينحدر منه رأساً.

بلانتاجينيه (للملك) : خادمك المطيع يعاهدك على الخضوع لأوامرك وعلى خدمتك بوفاء حتى الممات.

الملك هنري : إركع اذاً، وضع ركبتك تجاه رجلي، ولقاء هذا الامتثال أقلّدك سيف يورك الموسوم بالشجاعة والإقدام. إنهض يا

ريشار بصفتك كفرد أصيل من آل بلانتاجينيه. إنهض أيها الأمير، دوق يورك.

بلانتاجينيه : أتمنى لريشار كل النجاح، ولأعدائه السقوط، كما أرجو أن تبرهن دائماً عن اخلاصك، وليهلك كل من أراد سوءاً بجلالتك.

الجميع : لتحيا أيها الأمير الكبير، دوق يورك القدير.

كلوسستر (للملك) : الآن أصبح من الضروري أن تستعجل جلالتك في اجتياز البحر كي تتوّج ملكاً على فرنسا. لأن حضور الملك يولّد الحب في قلوب رعاياه وأصدقائه الأوفياء ويخزل جميع أعدائه.

الملك هنري : عندما يتكلم كلوسستر بصدق، يتعاظم شأني كملك لأن نصيحة الصديق تفشّل مكائد الأخصام.

كلوسستر : مراكبكم جاهزة.

(يخرج الجميع ما عدا اكساتر).

اكساتر : أجل علينا أن نعتصم بالاقدام سواء في انكلترا أو في فرنسا. لأننا لا نعلم بما يخبئه لنا المستقبل. أن هذا الخصام المتأجج بين الزعماء يشتعل تحت رماد خداع وصداقة مصطنعة لا بد لها من أن تنفجر وتلتهم نيرانها الأخضر واليابس معاً. ونظير أعضاء فاسدة في الجسم تتلفها القروح وتنخر فيها العظم واللحم والأعصاب، هكذا ينتشر الحسد في الدين ويلتهم كل شيء وقد بتّ الآن أخشى تحقيق هذه النبوءة المشؤومة التي تملأ، في أيام هنري الخامس، حتى أفواه الأطفال الرضّع قائلين :

للملك هنري المولود في « منموت » كل الأفراح
وللملك هنري المولود في « وندسور » كل الأتراح.

هذا بديهي لا يحتاج الى برهان، حتى أن اكساتر تمنى

أن يدنو أجله قبل أن تحلّ بنا هذه الكوارث الفظيعة.

(يخرج).

المشهد الثاني

في فرنسا، أمام حواجز مدينة روان

(تدخل العذراء متخفّية مع جنود مرتدين ثياب فلاحين حاملين أكياساً على ظهورهم).

العذراء : ها هي أمامنا أبواب مدينة روان التي يجب علينا أن نفتح فيها ثغرة. انتبهوا وخذوا حذركم، وأثناء حديثكم تكلموا كسائر أهل السوق الذين يأتون ليبيعوا قمحهم. فاذا تمكنا من الدخول كما أتمنى، ووجدنا المكان مهملاً غير محصّن، نبّهت أصدقاءنا باشارة كي يطلبوا من ولي العهد شارل المبادرة الى مهاجمتهم.

الجندي الأول : سنملأ أكياسنا من غنائم المدينة وسنصبح قريباً سادة روان. لذلك علينا أن نطرق بشدة.

(يطرقون الأبواب).

الحارس (من الداخل) : من الطارق؟

العذراء : نحن فلاحون مساكين من فرنسا جئنا نبيع قمحنا.

الحارس : ادخلوا، ادخلوا. فقد افتتح السوق.

(يفتح الأبواب).

العذراء : والآن، يا روان، سأزعزع شوارعك وأهدمها برمّتها.

(تدخل العذراء مع جنودها الى المدينة).

(يتقدم شارل ولقيط أورليان وآلنسون والقوات الفرنسية حتى الحواجز).

شارل : لتبارك السماء هذا التدبير الحكيم، سننام مرتاحين في روان هذه الليلة.

اللقيط : من هنا دخلت العذراء مع جنودها. وبما أنها أضحت قريبة منا ستدلّنا على الممر الآمن والأفضل.

آلنْسون : ان رَفَعْنا المشعل في أعالي هذا البرج دلّ ذلك على أن المكان الذي تسلّلنا منه مهمل غير محروس.

(تظهر العذراء في أعلى البرج ممسكةً بمشعل يلتهب).

العذراء : ها هي الشعلة المباركة التي تجمع مدينة روان بسكانها وهي مصدر شؤم على أتباع تالبوت.

اللقيط : أنظر أيها النبيل شارل مشعل صاحبتنا الذي ينير أرجاء هذا البرج.

شارل : دعها تضيء نظير الشهاب المنتقم، مؤذناً بسقوط جميع أعدائنا.

آلنْسون : لا تُضِع الوقت سدى. فللتفاصيل نتائج خطيرة. تعالوا ندخل هاتفين لولي العهد، ثم ندمّر مراكز العدوّ.

(يدخلون المدينة).

(تسمع موسيقى انذار. يدخل تالبوت وبعض الانكليز).

تالبوت : كفّري يا فرنسا بدموعك عن هذه الخيانة، إن عاش تالبوت بعد هذا الجحود. وهذه العذراء الساحرة، هذه الدجالة الماكرة قد فاجأتنا بمكيدتها الجهنمية التي نجوْنا منها بشقّ النفس وكانت لصالح الفرنسيين.

(يدخل الجميع الى المدينة. تُسمعْ موسيقى انذار، تليها حركة جنود يخرج بدفورد من المدينة مريضاً محمولاً على كرسي يتبعه تالبوت وبوركون وجنود انكليز. حينئذ تظهر العذراء على الحاجز مع اللقيط وآلنْسون ورينيه وغيرهم).

العذراء (للانكليز) : نهاركم سعيد، أيها الذوات، هل تحتاجون الى قمح لصنع خبزكم؟ أظن أن دوق بوركون سيصوم بعض الوقت قبل أن يحصل على خبز بهذا الثمن لأن القمح كان مملوءاً زؤاناً وكان مذاقه مرًّا.

بوركون : تندّري على هواك، أيتها الماكرة الخبيثة. أرجو أن أدوسك قريباً برجلي مع قمحك، وأنا أْلعن هذا المحصول الكريه.

شارل : قد تموت سيادتك جوعاً قبل أن تصل الى هذه الغاية.

بدفورد : ليكن انتقامنا لقاء هذه الخيانة، بالفعل لا بالقول.

العذراء : ماذا تنوي عمله أيها الشائب المتطاول؟ هل تود أن تكسر رمحك وأن تحمل النير، وأنت مقعد على هذا الكرسي؟

تالبوت : تباً لهذه الشيطانة الفرنسية، هذه العاهرة خالعة العذار المحاطة بعشاقها المتهتكين، هذه الماكرة التي لا تتورّع عن الهزء بشيخوخة رجل نصف مائت ونعته بالجبانة. سأريكِ أيتها الآنسة حين أهاجمك مرة أخرى، أنا تالبوت، كيف سأتغلّب عليك، وإلّا متّ خجلاً وخزياً.

العذراء : ألا تزال شديد الحماس يا مولاي؟ عليّ أن ألوذ بالصمت، ومهما دوّى صوتك، يا تالبوت، ستمطر السماء حتماً (يتشاور تالبوت وأصحابه). بارك الله في المجلس. مَنْ سيكون الخطيب هذا النهار؟

تالبوت : تجاسروا واخرجوا كي تتصدّوا لنا في السهل.

العذراء : سيادتك، على ما يظهر، تظن أننا مجانين لنتعرّض لمسألة لا تخصنا.

تالبوت : أنا لا أكلّم الدجالة الساحرة، بل أكلمك أنت وآلنسون والآخرين. هل تريد أن تخرج للقتال على غرار هؤلاء الجنود؟

آلنسون : كلا، يا سيدي.

تالبوت : اذهب واشنق نفسك، يا هذا. تبًّا لسائقي البغال الفرنسيين،

الذين يظلون مختبئين خلف الجدران كاللصوص الأنذال، ولا يجرؤون على حمل السلاح كالرجال الشجعان.

العذراء : هيا ننسحب أيها الضباط، ونغادر الحاجز، لأن نظرات تالبوت لا تنبئ بأية بادرة صالحة. (لتالبوت) : ليكن الله معنا يا مولاي. لقد جئنا لنراك ونثبت وجودنا هنا.

(تغادر العذراء الحاجز مع الجنود).

تالبوت : وبعد قليل من الوقت سنكون هناك حيث أودّ أن أستبدل العار بأعظم مجد يليق بالبواسل أمثالي. أستحلفك يا دوق بوركون بشرف اسرتك التي عانت اضطهاد الشعب الفرنسي، أن تسارع الى انقاذ هذه المدينة التي توشك أن تموت.

بوركون : أمنيتي تعانق أمنيتك.

تالبوت : لكن قبل الذهاب تعالوا نعتني بهذا الأمير الموجوع دوق بدفورد الهمام. تعالَ يا مولاي. ستمكث في مكان آمن من هنا وأنسب لمرضك ولتقدمك في السن.

بدفورد : يا لورد تالبوت، لا تذلني هكذا. أريد أن أبقى داخل روان لأشاركك السرّاء والضرّاء.

بوركون : أيها الشجاع بدفورد، دعنا نؤكد لك...

بدفورد : لن أرحل عن هذا المكان. كلا، لقد قرأت في الماضي أن التنين بندراكون كان مريضاً. فحضر وهو على فراشه الى ساحة الوغى وانتصر على أعدائه. يخيّل اليّ أنا أيضاً أني أستطيع استنهاض همم جنودنا لأني كنت دائماً على وفاق معهم.

تالبوت : تبًّا لروحك المتمرد في جسم عليل منازع. ليكن ما تشاء، ولتحرسك السماء يا بدفورد العجوز. والآن كفًّ عن النقاش، يا بوركون المقدام. علينا أن نستجمع قوانا المشتّتة وننقضّ على عدوّنا الوقح.

(يخرج بوركون وتالبوت ورجالهما تاركين بدفورد وحرسه. يسمع نفير التحذير، وتتحرك الجيوش. يدخل سير جون فستولف وضابط).

الضابط : الى أين أنت ذاهب هكذا بسرعة، يا سير فستولف؟

فستولف : الى أين ذاهب؟ أنا هارب لأنجو بنفسي. اذ ربما خسرنا المعركة.

الضابط : ماذا تقول؟ أنت هارب يا لورد تالبوت؟

فستولف : أجل، أنا وجماعة تالبوت، لنغنم أنفسنا.

(يخرج).

الضابط : يا لك من فارس جبان! ليحلَّ بك البؤس والشقاء.

(تسمع موسيقى الانسحاب وتليها حركة جيوش. العذراء وآلنسون وشارل والفرنسيون يخرجون من المدينة مشتتين).

بدفورد : لتنطلق الآن نفسي الى خالقها بأمان! لأن عينيّ أبصرتا هزيمة أعدائنا أين هي ثقة الرجل المتخاذل، وأين قوته؟ ان من يتحدّونا ببذاءتهم هم الآن راضون بالخلاص هرباً من بطشنا.

(يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو محمول على كرسيه).

(تسمع موسيقى تحذير. يدخل تالبوت وبوركون وسواهما).

تالبوت : لقد خسرنا المدينة واسترجعناها في يوم واحد. وهذا عمل عظيم يا بوركون. فلتحفظ لنا السماء كل أمجاد هذا الانتصار الخالد.

بوركون : يا تالبوت المحارب الظافر، اني أقدّرك شخصياً كل التقدير وأشيد بنبل بطولتك وسموّ شمائلك.

تالبوت : أشكرك، أيها الدوق الكريم. لكن أين العذراء في هذه الساعة؟ أعتقد بأن شيطان حماسها يرقد الآن. وأين عنتريات اللقيط، وأين أعلام شارل؟ هل تبددوا جميعاً؟ ان روان تنكس رأسها

وهي ترثي لحال المنهزمين من أبنائها الشجعان. هيا بنا نحتلّ النقاط الحساسة في المدينة، ونوكل امر حراستها الى ضباط يقظين. ثم نذهب الى باريس لموافاة الملك، لأن هنري الشاب قد سبقنا اليها مع النبلاء من رجاله.

بوركون : كل ما ترغب فيه يا لورد تالبوت يعجبني.

تالبوت : على كل حال، قبل أن تمضي لا تنسَ النبيل بدفورد الذي لفظ أنفاسه الأخيرة منذ هنيهة. علينا أن نقيم له في روان جنازة تليق بمقامه الرفيع. اذ ليس من محارب أشجع منه أبلى البلاء الحسن، وليس من انسان أنبل منه ساهم مثله في ادارة شؤون البلاط. لكن الملك والعظماء لا بدّ لهم هم أيضاً من أن يشربوا كأس المنيّة، لأن هذه النهاية مصير محتوم على كل البشر بدون استثناء في هذه الدنيا التعيسة الباطلة.

(يخرجون).

المشهد الثالث

في سهل قرب مدينة روان

(يدخل شارل واللقيط آلنسون والعذراء ورجالهم).

العذراء : هدّئوا روعكم أيها الأمراء في هذه المحنة، ولا تسمحوا لأنفسكم بأن تروا روان مستردة على هذا النمط. فالعطف ليس دواءً شافياً بل سماً زعافاً يقضي على كل من يتجرّعه مستكيناً. دعوا المتعصب تالبوت ينتصر لحظة ويعرض ريشات ذيله كالطاووس المغرور. سننقضّ عليه ونحطّم كبرياءه، ولن

تتجه اليه بعد ذلك أنظار ولي العهد وسواه من المخدوعين بأوهام تبجّحه.

شارل : لقد تبعناكِ حتى الآن ونحن لا نشك بمهارتك. ولن تثنينا عن الاتكال عليك أية كبوة عابرة تعترض سبيلكِ.

اللقيط : ابحثي أيتها العذراء في ذهنك عن دوافع سريّة، ونحن نجعل شهرتك تطبق الآفاق.

آلنسون : سنقيم لكِ تمثالاً في مكان بارز ونكرمكِ كأنكِ قديسة. فتصرّفي كعذراء لطيفة ولا تسعي إلا لصالحنا.

العذراء : هذا ما يتحتم عليكم أنتم أيضاً عمله. فصواب الرأي يقضي بأن نقنع دوق بوركون بحجج دامغة يدعمها كلام معسول، وأن نحمله على التخلّي عن تالبوت والالتحاق بنا.

شارل : بربك يا صديقي، اذا نجحنا في الوصول الى مبتغانا فان رجال هنري لا يسعهم أن يصمدوا في فرنسا. وستقلع هذه الأمة عن مقابلتنا بوقاحتها المعهودة فتقتلع جذورها من مناطقنا.

آلنسون : سنبعدهم عن فرنسا الى الأبد، ولن يكون لهم موطئ قدم في بلادنا.

العذراء : سترون يا سادة ما سأفعله لبلوغ المرام. (تقرع الطبول). اسمعوا يمكنكم أن تعرفوا من قرع هذه الطبول ان جنودهم يزحفون نحو باريس.

(يسمع النشيد الانكليزي. تالبوت ورجاله يجتازون المسرح مبتعدين).

ها هو تالبوت يمر وأعلامه مرفوعة، وكل الجيش الانكليزي يتبعه.

(يصدح النشيد الفرنسي. ويدخل دوق بوركون وقواته).

الآن يسير الدوق وأصحابه في المؤخرة، وقد جعله حظه

الميمون في هذا الوضع. تعالوا نطلب التحدث اليه ونفاوضه.

(يدق النفير لطلب مفاوض).

شارل : التفاوض مطلوب، يا دوق بوركون.

بوركون : من يطلب مفاوضتي؟

العذراء : مواطنك شارل أمير فرنسا.

بوركون : قل حالاً يا شارل، ماذا تريد؟ فأنا راحل من هنا.

شارل : تكلمي يا عذراء، واسحريه بالفاظك الحماسية.

العذراء : أيها الشجاع بوركون، يا أمل فرنسا الذي لا يخيب، قف لتحدثك خادمتك المتواضعة.

بوركون : تكلمي بإيجاز ولا تسهبي.

العذراء : انظر الى بلدك الجميل، انظر الى فرنسا الخصبة، وشاهد المدن الكبيرة والصغيرة التي شوهتها وحشية غزوات العدو الشرس. وكما تتأمل الأم المنهوكة ولدها الذي اختطفه الموت من بين ذراعيها، انظر، انظر الى نزاع فرنسا. أبصر هذه الجراح العميقة الخبيثة التي أثخنتها بها. هيا وجّه خنجرك الى صدر غيرها، واطعن من طعنوها لا من دافعوا عنها ببسالة. ان كل قطرة دم تسيل من قلب وطنك الصريع يجب أن تؤلمك أكثر من نهر من دم الغريب. اذرف اذاً سيلاً من الدموع لتغسل بها جراح بلدك المغلوب.

بوركون : لقد سحرتني بكلماتك البليغة واستدررتِ عطفي فجأة.

العذراء : ان جميع الفرنسيين يستغيثون بك، وهم لا يشكون بأصالة مولدك وشرعية نضالك. قل لي من حالفت؟ أأمّة شامخة لا تثق بك الا بقدر ما تخدم مصالحها؟ ان تالبوت متى استقر في فرنسا بعد أن يستخدمك كأداة شر لتهديم البلاد، مَن من الانكليز غير هنري سيكون سيدك؟ حينئذٍ تصبح منبوذاً ومطارداً كالهارب من وجه العدالة. تذكر الماضي

وفكّر جيداً حتى تقتنع بصحة ما أقوله لك. ألم يكن دوق أورليان عدوّك اللدود؟ ها قد أُطلق سراحه بدون فدية نكاية ببوركينيون وبجميع أصدقائه. أنت تقاتل أبناء وطنك وتناصر من سيكونون قريباً جلّاديك. هيا عُدْ الى رشدك أيها النبيل الضالّ. فان شارل وجميع أعوانه يفتحون لك صدورهم.

بوركون : أنا مقتنع بسموّ هذه الكلمات التي صعقتني كقذائف المدفع، والتي حدت بي الى الركوع على ركبتيّ. سامحني يا وطني، واعفوا عني يا أبناء بلدي. وأنت أيها المولى الكريم تقبّل اخلاصي ومودتي. ها هي كل امكاناتي، وها هم جميع رجالي في خدمتك. والآن وداعاً يا تالبوت لأني لم أعد أثق بك.

العذراء (على حدة) : ها هوذا الفرنسي الصادق في عواطفه الذي لا يحيد عن الحق.

شارل : أهلاً بك أيها الدوق الباسل. ان صداقتك عزيزة على قلوبنا.

اللقيط : وتنفخ فينا روح الجرأة والبسالة.

آلنسون : لقد قامت العذراء بدور رائع تستحق عليه إكليلاً من الغار.

شارل : هيا بنا الآن إلى السير يا سادة، لننضمّ الى قواتنا ونسعى للتغلب على عدونا.

المشهد الرابع

في باريس، داخل القصر الملكي

(يدخل الملك هنري وكلوسستر ونبلاء آخرون وفرنون وباسيه وغيرهم ويأتي لملاقاتهم تالبوت وبعض ضباطه).

تالبوت : أيها الأمير الوسيم، وأنتم أيها النبلاء الأشراف، علمت بقدومكم الى هذه المملكة فأوقفت بعض الوقت نشاطي الحربي لكي آتي وأقدم لمليكي واجب الاحترام. وبناء على ذلك، وبعد أن أخضعت لسلطتك أكثر من خمسين قلعة واثنتي عشرة مدينة كبيرة وسبع مدن صغيرة محاصرة رغم أسوارها المتينة العالية، وما يناهز المئة والخمسين سجيناً من كبار القوم، ها هي يدي تضع سيفي عند أقدام جلالتك، وبأمانة الجندي الأمين أتوج هامتك باكليل فتوحاتي مرضياً بذلك ربّي وضميري الذي يأبى إلا المجد والشرف الرفيع.

الملك هنري : عمي كلوسستر، هل هذا هو اللورد تالبوت الذي أقام طويلاً في فرنسا؟

كلوسستر : أجل يا مولاي، هو تحت تصرف جلالتك.

الملك هنري : أهلاً بك أيها الضابط الشجاع، أيها اللورد المظفّر. عندما كنت أنا فتى، ولا أزال في شرخ الشباب، أتذكر بأني سمعت أبي يكرر أن ليس من بطل امتشق الحسام وحارب بمثل مهارتك. فمنذ أمد طويل أنا أقدّر وفاءك وخدماتك الجليلة. ومع ذلك لم تنل مني أية مكافأة على شهامتك ولا أي شكر على براعتك قبل هذه الساعة لم يتسنّ لي أن أراك وجهاً لوجه. فلأجل هذه الخدمات أسألك أن تنهض لأمنحك لقب كونت شروز بري، وتظهر بهذه الرتبة الرفيعة في حفلة تتويجي.

(يدق النفير وتقرع الطبول، ويخرج الملك هنري وكلوسستر وتالبوت والنبلاء).

فرنون (لباسّيه) : والآن يا سيدي، أنت الذي قاتلت فوق أمواج البحر ورفعت عالياً لوائي الذي تحمله الى جانب النبيل لورد يورك، هل تتجاسر على ترديد الكلام الذي قلته فيما مضى؟

باسيه : أجل يا مولاي، اذا جرؤ لسانك على العواء أمام اللورد النبيل دوق سومرست.

فرنون : أيها المحتال، أنا أكرّم اللورد على ما يستحقه.

باسيه : من هو هذا الرجل، وهل يساوي يورك؟

فرنون : كلا، على ما أعلم. أتسمعني؟ وكبرهان على ذلك، خذ هذا.

(يضرب باسيه).

باسيه : أيها الوقح، أنت تعلم أن شريعة السلاح تقضي بانزال عقوبة الموت بمن يشهر سيفه، وإلا فهذه الطعنة ستسيل دمك الطاهر كالنهر. أنا ذاهب لمقابلة جلالته، وسأطلب منه السماح لي بالانتقام منك على هذه الاهانة التي لا تُغتفر، سترى ما سيكون من أمري. سألحق بك وأجعلك تدفع باهظاً ثمن تصرفك الأرعن.

فرنون : حسناً؛ أيها اللئيم. سأكون الى جانب الملك حالما تمضي اليه. ثم سألحق بك حالما تشاء أن أوافيك.

(يخرجان).

الفصل الرابع

المشهد الأول

في باريس، وسط قاعة التتويج

(يدخل الملك هنري وكلوسستر واكساتر ويورك وسوفولك وسومرست وونشستر ووورويك وتالبوت وحاكم باريس وغيرهم).

كلوسستر : أيها اللورد الأسقف، ضع التاج على رأسه.

ونشستر : حفظ الله الملك هنري السادس.

كلوسستر : الآن وأنت حاكم باريس، اقسم اليمين (يركع الحاكم) أقسم بأنك لن تعترف إلّا بسلطة الملك، وأن تعتبر أصدقاءه أصدقاءك وأعداء الذين يناوئون حكمه كأعدائك، وأنك ستفي بتعهدك هذا. وفّقك الله في جميع مساعيك.

(يخرج الحاكم وحاشيته).

(يدخل سير جون فستولف).

فستولف : أيها الملك الكريم، بينما كنت آتياً من مدينة كاليه على

جوادي لأصل بأسرع ما يمكن وأشاهد تتويجك، سلّمني أحد الرجال رسالة موجّهة اليك من دوق بوركون.

تالبوت : تباً لك يا دوق بوركون، ولك أيضاً أيها الفارس القذر. لقد أقسمت، في أول مرة أصادفك بأنك لست أهلاً لنيل حمّالة جرابك وهي سمة شرف لا تستحقها نظراً الى جبانتك (ينتزع عنه حمّالة جرابه) اني أفعل ذلك لأنك تدنّس مثل هذا الامتياز السامي. أعذرني أيها الملك هنري، وأعذروني أنتم أيضاً أيها النبلاء. عندما لم يكن لديّ في معركة « باتيه » سوى ستة آلاف محارب، وكان الفرنسيون حوالى عشرة مقابل واحد، قبل الصدام الأول، وقبل أن أسدّد أية ضربة، هرب هذا الجبان نظير صعلوك رعديد. وفي هذه المعركة فقدنا ألفاً ومئتي رجل. وأنا والعديد من النبلاء فوجئنا بذلك وكان نصيبنا الأسر. فاحكموا أيها السادة الكرام، اذا كنت أسأت التصرف، وإذا كان هؤلاء الجبناء يستحقون أن يحملوا شارة الفروسية الرفيعة هذه.

كلوسستر : في الحقيقة هذا عمل خسيس يعيب حتى الرجل العادي، فكم بالحري الفارس والضابط والوجيه.

تالبوت : عندما أنشىء هذا الامتياز، يا سادة، كان فرسان حمّالة الجراب من ذوي الأصل النبيل والشجعان الأفاضل ومن الرجال الذين برزوا كالأبطال في ساحات الوغى لا يهابون المنايا ولا تنال منهم الشدائد، بل يتغلبون على الصعاب والمحن. أما مَن لا يملك المواهب والمزايا الحميدة فلا يستحق أن يكون من الفرسان، لأنه يلطّخ هذا الشرف السامي، وبناءً على ذلك، حتى إن كان أهلاً للحكم في مثل هذا الموقف، يظل مجرداً من هذا الشرف كدجّال حقير مولود في ظل سياج ويدّعي أصالة النسب العريق.

الملك هنري (لفستولف) : استمع أيها المنبوذ في قومك الى الحكم الصادر

عليك بأن ترحل حالاً من هنا، وإن كنا اعتبرناك فارساً بدون استحقاق، فمن الآن وصاعداً نحن نحتقرك ونريد بعدك تحت طائلة معاقبتك بالموت الزؤام إن خالفت مشيئتنا (يخرج فستولف) والآن يا مولاي حامي المملكة، إقرأ هذه الرسالة التي وردتني من عمي دوق بوركون.

كلوسستر (يقرأ الرسالة) : ماذا يريد مولاي أن يقول؟ هل غيّر رأيه؟ ما هذا التعبير الجاف : الى الملك؟ هل نسي أن العاهل سيده وولي نعمته؟ ما هذا التوجيه الوقح؟ هل هو دليل تقدير واحترام؟ ماذا جرى؟ يقرأ : « لأسباب خاصة، وقد صعقتني كارثة بلادي، كما آلمتني الشكوى المريرة التي صدرت عمّن ثقل عليهم وقر ظلمك، قد أبيت مخالفتك المشؤومة وانضويت تحت لواء شارل ملك فرنسا الشرعي ». يا للخيانة المشينة! هل للصداقة والمودة والايمان المغلظة أن تؤول الى مؤامرة أحطّ وأقذر من هذه؟

الملك هنري : ماذا جرى يا عمي، يا مولى بوركينيون المقفرة؟

كلوسستر : أجل، لقد أصبح اللورد عدوك اللدود.

الملك هنري : هل هذا النبأ السيء كل ما تضمنته الرسالة؟

كلوسستر : نعم يا مولاي. هذا كل ما هو مكتوب.

الملك هنري : اذاً، سيذهب اللورد تالبوت ويكلمه وسينال عقابه على هذه السفالة. (لتالبوت) ما قولك أيها السيد؟ هل يناسبك هذا التدبير؟

تالبوت : تسألني ان كان يناسبني يا مليكي الكريم! أجل، ولو لم تنبّهني اليه لكنت التمست منك تكليفي بهذه المهمة الخطيرة.

الملك هنري : هيّا اجمع قواتك وهاجمه، وليعلم كم ساءتني خيانته وأية جريمة ارتكب بحق أصحابه.

تالبوت : أنا ذاهب يا مولاي وكلّي توق الى جعلك تلمس لمس اليد تخبّط اعدائك وتدهورهم.

(يخرج).

(يدخل فرنون وباسيه).

فرنون : دعني أقاتل، أيها الملك الكريم.

باسيه : وأنا أيضاً يا مولاي، إسمح لي بخوض المعركة الى جانبه.

يورك (مشيراً الى فرنون) : هذا أحد رجالي، أرجوك أن تستمع اليه أيها الأمير النبيل.

سومرست (مشيراً الى باسيه) : وهذا من رجالي، أيها الحبيب هنري، أرجوك أن تشمله بعطفك ورعايتك.

الملك هنري : صبراً أيها اللورد. دعهما يذهبا. (لفرنون وباسيه) قولا لي ما سبب هذا الطلب، ولماذا ترغبان في القتال، ومَن ستقاتلان؟

فرنون (مشيراً الى باسيه) : أنا سأنازله لأنه أهانني.

الملك هنري : ما هي هذه الإهانة التي تشكوان منها كلاكما؟ هل لي أن أعرفها لأرى بماذا أجيبكما؟

باسيه : بينما كنا نجتاز البحر من انكلترا الى فرنسا، لامني هذا بكلام قاسٍ على اختياري الوردة التي أحملها وهي بلون الأحمرار الذي صبغ خدَّيْ سيدي ذات يوم حين شاء أن ينكر الحقيقة في قضية حقوق كانت موضوع نقاش حادّ بينه وبين دوق يورك. وقد أضاف اليها بضع كلمات غير لائقة بل مهينة. فلكي أعاقبه على هذا التحقير الغليظ، ودفاعاً عن شرف مولاي طلبت تعزيز هذا الشرف بقوة السلاح.

فرنون : وأنا أيضاً طلبت الأمر عينه أيها اللورد النبيل، لأنه مهما كان بارعاً في دفاعه المزيّف الخدّاع، ومهما لطف الجو بنفاقه المعهود، إعلم يا مولاي أنه تحداني وتهجّم على هذا الرمز النبيل (يشير الى الوردة البيضاء التي يحملها) مدعياً أن شحوب لون هذه الوردة دليل على انحطاط مولاي.

يورك : أولن تكفّ عن هذه الأساليب الوضيعة يا سومرست؟

سومرست : حقدك الشخصي، يا لورد يورك، يظهر عليك دائماً بصورة مبطنة لا تستطيع اخفاءها.

الملك هنري : يا الهي، ما هذا الهوس الذي يسيطر على عقول البشر؟ لأتفه الأسباب يشهرون عداوتهم القاتلة. فيا أبناء عمي يورك وسومرست، هدّئا روعكما وعيشا بسلام.

يورك : لِنُصَفِّ حساباتنا هذه بالاحتكام الى السلاح أولاً، ثم تفرض جلالتك علينا السلام والوئام.

سومرست : المشاجرة لا تخصّ أحداً سوانا نحن الأثنين، فاسمح لنا بأن نصفّيها فيما بيننا.

يورك (يرمي بقفّازه في وجه خصمه) : هذا هو ردّي، فاسمح لي بجوابك، يا سومرست.

فرنون : كلا، لتظلَّ المناوشة حيث بدأت.

باسيه : تفضّل بالقبول، أيها اللورد الوقور.

كلوسستر : أتطلب موافقتي؟ ملعونة هي مشاجراتكما. ولتهلككما معاً ولتقضِ على ثرثراتكما الوقحة. تباً لكما من شريرين متبجّحين. أولا تخجلان من المجيء بهذه البذاءات والطلبات المشينة، لتقلقا وتضايقا الملك وتضايقانا أيضاً؟ (ليورك وسومرست) وأنتما أيها اللوردان، يخيّل اليّ أنكما مخطئان بتشجيع اتهاماتهما المجرمة. والأفظع أنكما تستفيدان من خلافاتكما لتثيرا الحزازات بينكما شخصياً. اسمعا جيداً، عليكما أن تنتهجا سبيلاً أحكم من هذا.

اكساتر : الأمر يؤلم جلالته. فأرجوكم أيها اللوردات الكرام أن توثقوا عرى الصداقة فيما بينكم.

الملك هنري (لباسيه وفرنون) : إقتربا مني أنتما اللذان تودّان أن تتقاتلا. أرجو منكما إن كنتما حقاً تريدان راحة بالي أن تنسيا مشاكلكما وأسبابها. (ليورك وباسيه) وأنتما أيها اللوردان تذكّرا أننا نحن هنا في فرنسا وسط شعب متقلب متمايد، اذا عرف ما

بينكما من خصام وانقسام انقلب علينا وتحدّانا بتمرد عنيد وثورة جارفة. وما عدا هذا، فأية اهانة تلحق بكما عندما يعرف الأمراء الأجانب انكما لأجل مسألة تافهة، أنتما كبيرا نبلاء الملك هنري، تتعاديان وتتناحران وتزجّان مملكة فرنسا في أسوأ المهالك. أناشدكما أن تتذكرا فتوحات والدي، وسني حداثتي، كي لا نخسر، لأسباب تافهة، عرش فرنسا الذي كلّفنا دماء ذكية ثمينة. دعوني أفصل في هذا الخلاف المريب. (يتناول وردة حمراء) اذا حملت، هذه الوردة فأنا لا أرى موجباً للظن بأني أميل الى سومرست أكثر من يورك. فكلاهما من أنسبائي، أنا حامل التاج والصولجان. لعمري ان ملك اسكتلندا المتوّج هكذا يقنعكم ويزوّدكم بما هو أفضل من ارشاداتي وحججي. وإلا لما جئنا لنواصل بسلام عيشنا في ظل التفاهم والانسجام. يا ابن عمي يورك، انا أختارك وصياً على ولايات فرنسا، وأنت أيها اللورد الكريم سومرست إجمع رجالك وفرسانك، وكمناصرين أوفياء ومخلصين كرماء أباً عن جدّ، سيروا بشجاعة واتفاق، وصبّوا جام غضبكم على رؤوس أعدائنا. فاني أيها اللورد حامي المملكة، بعد استراحة قصيرة، سأعود الى مدينة كاليه، ومن هناك الى انكلترا حيث آمل أن يبلغني قريباً نبأ الانتصار على الملك شارل وآلنسون وكل الزمرة الخائنة.

(تسمع موسيقى، ويخرج الملك هنري وكلوسستر وسومرست وونشستر وسوفولك وباسيه).

وورويك : أيها اللورد يورك، يخيل اليّ أن الملك قد أصغى راضياً الى خطابي.

يورك : في الواقع، هذا ما لا يعجبني، لأنه يحمل شعار سومرست.

وورويك : هذه ليست سوى أهواء. فلا نلمْهم عليها. يسرني أن أؤكد لك أيها الأمير العزيز، أنه لم يفكر بأي شر.

يورك : لو صدّقته!... لكن الأولى بنا أن نغفل هذا الأمر، إذْ لدينا مسائل أخرى يجب أن نهتم بها.

(يخرج يورك ووورويك وفرنون).

اكساتر : حسناً فعلت يا ريشار، اذ قطعت فوراً كل صلة بهذا الموضوع. فلو اظهرت عواطفك، لكنّا اكتشفنا، كما أخشى، اشنع حقد وأقبح عداء وأعنف تعصّب يمكن تصوره واحتماله. مهما كانت القضية شائكة، فالرجل الأكثر بساطة يسعه أن يبصر الخلافات المؤذية البعيدة عن المروءة وعن اتفاق رجال البلاط وتكاتفهم، بل هذا الانقسام المفضي الى تفاقم الحزازات والى التناحر المشؤوم، في الحقيقة لا يستبعد أن يكون الصولجان مجلبة الويلات عندما يكون في يد ولد عديم الخبرة، ويكون شرّه أفدح عندما ينخر قلبه الحسد والخساسة التي تجرّ الفوضى والخراب.

(يخرج).

المشهد الثاني

في فرنسا، أمام مدينة بوردو

(يدخل تالبوت ومعه رجاله).

تالبوت : يا نافخ النفير إذهب الى أبواب بوردو، واطلب ظهور القائد على الحاجز. (يسمع صوت النفير ويظهر القائد الفرنسي عند الحاجز) أيها الضابط الذي يدعوه الانكليز جون تالبوت، ويعتبرونه أكبر رجل مسلح في خدمة هنري ملك انكلترا الذي يقول لك : افتح أبواب المدينة واخضع له. واهتف لملكي كأنه

مليكك، قدم له الاحترام والإجلال كأحد رعاياه الأوفياء وسنبتعد عنكم أنا ورجالي الأشداء. أما اذا احتقرتم السلام الذي أعرضه عليكم فتستمطرون عليكم الغضب والوبال من أسلحتي الثلاثة المبيدة، ألاَ وهي الجوع الكافر والحديد المدمر والنار المحرقة التي بطرفة عين تحوّل أبراجكم الشامخة الى ركام، ومنازلكم العامرة الى حطام على رؤوسكم جميعاً، اذا رفضتم الصداقة التي أكنّها لكم.

القائد : يا لك من يوم مشؤوم يقود الى الخراب والدمار، وهو آفة شعبنا وقد ذاق مر الاستبداد. أنت لا تستطيع الدخول الينا إلا على أشلاء القتلى. لأننا، كما أعلنت لك، محصّنون ومستعدون للقتال بضراوة. فاذا صممت على الانسحاب، فولي العهد المحاط بحاميةٍ شديدة البأس متأهب لزجك في غياهب الهلاك على ساحة الوغى. فحولك، أينما كنت، تلاقي فرقاً شاكية السلاح، واقفة لك بالمرصاد فوق الأسوار لتسقيك كاسات المنون وتسدّ عليك مسالك الهرب، فلا تقوى على التحرك يميناً أو يساراً بدون أن تواجه الموت الزؤام الذي يحصد أمثالك الجبناء ممّن يتهيّبون مواجهته إلا بوجوه شاحبة وأسنان تسطك هلعاً. لقد أقسم عشرة آلاف فرنسي على صبّ قنابل مدافعهم بدون هوادة على رأس تالبوت الانكليزي. فها أنت واقف هنا تفيض حيويّة وحسن نيّة وهمّة عالية وقناة لا تلين. وهذا أقصى تكريم أخصّك به أنا عدوك لقاء أمجادك السالفة. لأني قبل أن يتم نزول الرمال في الساعة الزجاجيّة، وفيما العيون البرّاقة تبصر الصحة التي تملأ برديك قد ذوت وشحبت كأن صفرة الموت تعلو محياك. (يسمع قرع طبول بعيدة) اسمع اسمع. هذه الطبول تعلن وصول ولي العهد، بل هذا نذير نهايتك وناقوس

الحزن الذي ينبئ بقرب موكب جنازة شخصك البغيض، ونعي موتك المريع فوراً.

(ينسحب القائد وجنوده من الحاجز).

تالبوت : هذه ليست رواية. ها أنا أسمع العدو يقترب، هيا بنا أيها الفرسان الشجعان نستكشف طلائعه. تباً لهذه المحاولات المستهترة اليائسة. اننا مطوّقون من كل الجهات. قبحاً لكم أيها القطعان الانكليزية الحائرة التي تحاصرها جماعات الفرنسيين بيقظة وإحكام فيا أيها الانكليز، ان كنتم فعلاً كالغنم، فكونوا من نوع أصيل، لا بهائم تخاف المطاردة، بل كونو كالغزلان النافرة التي ترتد بقرونها الجارحة، فتزرع الهلع في قلوب مهاجميها. على كل منا أن يدع العدو يدفع ثمناً باهظاً من حياته قبل أن ينال منا الوطر. أجل دعوهم يدفعون ثمن هجومهم غالياً أيها الأصدقاء، بعون الله وشفيعنا الفارس جاورجيوس. فبحياة تالبوت، وبحق انكلترا، يجب أن تظل بنود أعلامنا خافقة ومرفرفة فوق معاركنا الضارية.

(يخرجون).

المشهد الثالث

في سهل بمنطقة كسْكون

(يدخل يورك مع رجاله، ثم يوافيه رسول).

يورك : هل عاد الكشافة البواسل الذين أرسلناهم لمطاردة جيش ولي العهد؟

الرسول : أجل عادوا، يا مولاي، وأعلنوا لنا أن ولي العهد قد توجّه

الى بوردو مع قواته لمحاربة تالبوت. وفي هذه الأثناء أبصر جواسيسك جيشين أهم من جيش ولي العهد قد انضمّا اليه وتابع الجميع مسيرتهم الى بوردو.

يورك : تباً لهذا الحقير سومرست الذي يؤخر هكذا وصول الإمدادات الموعودة، من خيّالة لفكّ هذا الحصار. ان تالبوت الألمعي ينتظر نجدتي. لكني ذهبت ضحية خائن حقير، وما عدت قادراً على مساندة هذا الفارس النبيل. كان الله بعونه في هذه المحنة. فاذا أخفق، فعلى حروب فرنسا السلام.

(يدخل سير وليم لوسي).

لوسي (ليورك) : يا قائد القوات الانكليزية، هل من حاجة أمسّ من هذه الآن ونحن على أرض فرنسا؟ سارع الى نجدة النبيل تالبوت الذي يحيط به حالياً حزام حديدي يهدّده بالهزيمة والدمار. فإلى بوردو، أيها الدوق المحارب، الى بوردو، يا يورك. وإلّا وداعاً يا تالبوت، ويا فرنسا، ويا شرف انكلترا.

يورك : يا الهي، إن سومرست هذا الذي يعميه كبرياؤه، يشلّ حركتي. لماذا لم يذهب عوضاً عن تالبوت؟ لكنّا أنقذنا وجهاً باسلاً، وتخلّصنا من خائن جبان. إني أبكي غضباً وتحرّقاً، وأنا أرى أنفسنا نهلك هكذا، بينما الخونة المارقون يرقدون هنا غير مبالين.

لوسي : هيا ارسلوا نجدة الى هذا المولى الغائص في ضيق خانق.

يورك : إن مات فقدنا كل شيء. وأكون أنا قد نقضت وعدي كمحارب. نحن نبكي وفرنسا تضحك، نحن ننهزم وخصومنا ينتصرون علينا دائماً. وكل ذلك بسبب الخائن الحقير سومرست.

لوسي : تغمّد الله اذا تالبوت بفيض رحمته، وكذلك ابنه الشاب جون الذي وافاه منذ ساعتين. بعد أن انقضت سبع سنوات بدون

أن يشاهد أحدهما الآخر، ولم يلتقيا اليوم إلا ليموتا معاً.

يورك : يا للأسف! كم كان فرح تالبوت عظيماً وهو يرحّب بولده ليترافقا الى القبر. كفى. يكاد الألم يخنقني، وأنا أفكر بهذين الصديقين اللذين فرّق بينهما البعد طويلاً، وهما يلتقيان ساعة دنوّ أجلهما. وداعاً يا لوسي. ان كل ما بوسعي أن أفعله هو أن ألعن المانع الذي حال دون مساعدتي هذا الرجل. فقد ضاعت من أيدينا مدن ماين وبلوا وبواتيه وتور بسبب اهمال سومرست وتقاعسه.

(يخرج).

لوسي : وهكذا بينما سوس الخلاف والعداء ينخر قلوب قوادنا نرى الجمود والاستهتار يؤمّنان لأعدائنا الفتوحات المبينة وقد امتاز بها القائد الأكبر الذي يكاد جثمانه أن يبرد، أعني به الرجل الدائم الغلبة هنري الخامس. وفي هذه الساعة، كل وجودنا ومجدنا وأرضنا، برمّتها تتدهور الى أعماق الهاوية ويبتلعها العدم.

المشهد الرابع

في سهل آخر من مقاطعة كسْكون

(يدخل سومرست مع قواته، يرافقه أحد ضباط تالبوت).

سومرست : لقد فات الأوان. لم يعد بامكاني أن أرسلهم في هذه الساعة. فيورك وتالبوت قد تهاونا في التفكير بهذه الحملة. وكل قواتنا مجتمعة يمكن تطويقها وهي خارجة من هذه المدينة المحاصرة. لأن تالبوت المستهتر قد غامر بجميع أمجاده

بحماقة، ولأن يورك أرسله ليحارب ويموت بحقارة كي يتسنى له هو أن يبرز بعد أن يغيّب الموت تالبوت عن المسرح العسكري.

الضابط : ها هو سير وليم لوسي الذي انتدبه الجيش معي لنصر المهزومين.

(يدخل سير وليم لوسي).

لوسي : من أرسلك؟ اللورد تالبوت الذي ذهب ضحية الخيانة والعداء اللدود؟ فقد طلب العون الذي لم يؤمّن له، فحاصره الموت وقضى عليه. وبينما الضابط النبيل تنزف أعضاؤه المهشّمة دماً غزيراً ويطيل المقاومة بانتظار وصول النجدة، أنت أمله الخائب، أنت مستودع شرف انكلترا كنت واقفاً على الحياد بدافع حسدك الدنيء. لا تدعْ حقدك الشخصي يحرمه من المدد الذي يتوجب عليك تقديمه له حين عرّض هذا الوجيه الكريم حياته لقوى ساحقة. ان لقيط أورليان وشارل وبوركون وآلنسون ورينيه يحيطون به، وتالبوت يهلك بسبب تخاذلك وحقدك.

سومرست : يورك الذي دفعه الى القتال، ويورك هو الذي يجب عليه أن يغيثه.

لوسي : ان يورك من جهته يناهض سعيك ويقسم بأنك أنت الذي تمنع عنه النجدة.

سومرست : يورك كاذب. كان عليه أن يطلب الفرسان، وكان حصل عليهم. أنا لا أحترمه كثيراً، ولا أحفظ له أية مودة. وأعتقد بأن أهواءه المنحطة هي التي دفعته الى الامتناع عن ارسال المدد.

لوسي : ان جحود انكلترا، لا قوة فرنسا، هو الذي سبب التهلكة

لتالبوت في إقدامه على هذا التجنّي. ولن يعود حياً الى انكلترا لأنه سيموت ويذهب ضحية خلافاتكما.

سومرست : هيا اذهب. سأرسل الخيالة حالاً، وبعد ست ساعات ستصل اليه وتنجده.

لوسي : سيصل هذا العون متأخراً، بعد أن يكون تالبوت قد أُسر أو قُتل، لأنه لن يتمكن من الهرب متى شاء، وهو لا يقبل أن يهرب حتى ان تمكن من ذلك.

سومرست : لقد مات اذاً. الوداع أيها الشجاع تالبوت.

لوسي : بالرغم من أن مجده وشهرته تطبق الآفاق، ستأتي مذلته عن يدك أنت.

(يخرجان).

المشهد الخامس

في معسكر الانكليز أمام بوردو

(يدخل تالبوت وابنه جون).

تالبوت : لقد أرسلت في طلبك يا بني لأعلّمك فنون الحرب حتى يظل اسم تالبوت حياً مزدهراً في شخصك بعد أن يجف عودي وأصبح عاجزاً عن الاتيان بأية بطولة، مقعداً على كرسي الشيخوخة والهزال. ولكن يا لسخرية القدر! ها قد وصلت لتشترك في وليمة الموت وسط الأخطار المحيقة بنا من كل جانب. لذا يا ولدي الحبيب، أطلب منك أن تمتطي أنشط جيادي وأن تبحث عن طريق للهرب فوراً. هيّا لا تتأخّر.

جون : أولستُ أُدعى تالبوت؟ أولستُ ولدك؟ فكيف أهرب؟ لو

كنت تحب أمي لما لوّثت اسمها بالعار وحسبتني لقيطاً جباناً، لأن من يحمل اسم تالبوت يبقى في قلب المعركة ولا يهرب كالرعديد.

تالبوت : أهرب، واثأر لموتي، اذا أنا قُتلت.

جون : من يهرب هكذا يظل دائماً في المؤخرة.

تالبوت : اذا بقينا كلانا هلكنا حتماً معاً.

جون : اذاً دعني أبقَ هنا، وانجُ أنت بنفسك. فلأن خسارتك ستكون هائلة يجب عليك أن تأخذ حذرك وتحتاط لكل طارئ. أنا لا يعرفني أحد، فلن يكون لموتي أي صدى، ولن يفاخر الفرنسيون بالقضاء عليّ بل بموتك أنت. فبغيابك تضيع كل آمالنا. وهربك لن يبقي على الأمجاد التي اكتسبتها بشجاعتك، بل سأفقد أنا أيضاً شرفي، وإن لم تبدر مني بعد أية مأثرة. سيؤكد الجميع أنك هربت لتأتي بالعظائم، أما أنا اذا ازعنت لألحاحك سيؤكدون أن هربي ناجم عن الخوف. ان آمالي هنا كبيرة بالدفاع عن حياتنا وشرفنا، وأنا أفضّل ألف مرّة أن أبذل دمي هنا ولا أظل على قيد الحياة تحت نير الذل والهوان.

تالبوت : أنت تريد اذاً دفن كل آمال والدتك هنا في ضريح واحد.

جون : أجل هذا أولى عندي من تلويث شرف أمي.

تالبوت : برضاي عليك، ألتمس منك أن تذهب.

جون : سأقاتل، ولن أهرب أمام أعدائي.

تالبوت : ستصون سمعة أبيك، إن أنت ابتعدت عن هذا الميدان.

جون : لن أجني هكذا سوى العار والذلّ.

تالبوت : أنت لم تكتسب بعد أي مجد، وليس لديك ما تفقده.

جون : يكفيني مجد اسمك. فهل عليّ أن ألطّخه بعار هربي؟

تالبوت : اوامر والدك تغسل هذه اللطخة عنك.

جون : اذا قتلتُ، أنّى لك أن تشهد بأني أطعتك، واذا أزمعنا أن نموت كلانا حتماً فعلينا أنْ نهرب معاً.

تالبوت : وهكذا ادع رفاقي يقاتلون بدوني ويموتون. لن أرضى أبداً أن ألوّث شيبتي بهذا العار.

جون : هل تريد اذاً أن ألطّخ شبابي بهذه الدناءة؟ لم يعد بامكاني أن أنسلخ عنك وأنت ذاتك لا تستطيع أن تنشطر الى اثنين. فابقَ أو اذهب. افعل ما يحلو لك، وأنا أصنع ما أنت فاعل، ولا أريد أن أحيا اذا كان أبي سيموت.

تالبوت : استأذنك اذاً يا بنيّ العزيز، فأنت ولدت لامعاً وخلقت لتفارق الحياة في هذا النهار بالذات. تعال لنحارب سويّة ونموت جنباً الى جنب فتتعانق روحانا ونغادر أرض فرنسا معاً نحو السماء دار الخلود.

(يخرجان).

المشهد السادس

في ساحة القتال

(تسمع موسيقى استنفار ثم مناوشات. يخلّص تالبوت ابنه المحاصر).

تالبوت : يا الهي أعنّا وأعن جنودنا على القتال. لقد أخلف الوصي بوعده لي وأسلمني الى غضبة سيوف فرنسا. أين ولدي جون؟ قف، يا بنيّ وتنفّس الصعداء. لقد منحتك الحياة وأنقذتك الآن من الهلاك.

جون : أنا أقدّر أنك كنت لي أباً مرتين، وأني أصبحت ابنك مرّتين. لقد أوشكت أن أفقد حياتي عندما أنقذتني بسيفك المرهف

الحدّين. ورغم كل ما كان يحيط بنا من مخاطر، منحتني هكذا ببسالتك حياة جديدة.

تالبوت : عندما لمع سيفك بشرارة مستمدة من بريق خوذة ولي العهد، تاق قلب والدك الى تأمين النصر لك، لتكون دائماً مرفوع الرأس عالي الجبين. حينئذٍ تنتعش شيبتي بحماس شبابك واندفاعك الى القتال، فيتقهقر آلنسون أورليان وبوركون، وتسلم أنت من غضب فرنسا. وكذلك لقيط اورليان كاد يهرق دمك يا ولدي. واذا بباكورة طعناتك النجلاء تنزل عليه كالصواعق، وتنقضّ على رأسه بغتة. وأثناء تبادل الضربات سفكت دمه الحقير، ثم قلت له بازدراء : ها هو دمك النجس الفاسد الخسيس قد سال بدلاً من دمي النقي النبيل ودم ولدي الباسل الفخور بانتسابه الى أسرة تالبوت العريقة. وفي هذه اللحظة كدت أسدّد اليه الطعنة القاضية عندما وصلت النجدة وأنقذت حياته. تكلم يا حبيب والدك، ألستَ مرهقاً، يا جون؟ كيف حالك الآن؟ هل تريد مغادرة ساحة القتال والابتعاد عن الهلاك، الآن وقد أصبحت أهلاً للفروسية؟ فتثأر لموتي اذا حان أجلي، ما دمت لا أجد من يعوّض عن عضلاتك المفتولة. ان تعريض حياتي للخطر في مركب غير مأمون لهو هوس غير مشكور. فاذا لم ينل مني الفرنسيون اليوم مأرباً سأرزح غداً تحت وقر تقدّمي في السن. لن يربح أحد بقتلي، وبقائي هنا لن يطيل عمري سوى يوم واحد. أما موتك فيقضي على أمك وعلى اسمي وعلى مجد انكلترا. فاذا بقيت، تغامر بكل ما لدينا وأكثر، بينما جميع ذلك ينجو من الهلاك اذا هربت أنت.

جون : ان سيف اورليان لم يجرحني، بينما كلامك قد أدمى فؤادي. وقبل أن نمرّغ كل هذه المآثر بأوحال الخساسة، قبل أن نضحّي بهذا المجد الباهر لانقاذ حياة هزيلة، وقبل أن يفارق

تالبوت الشاب أباه المسن ليغنم نفسه، أتمنى أن يسقط الحصان الجبان الذي سيحملني ويموت. هل كتب عليّ أن أكون أحقر من أي فلاح فرنسي، فيقتلني الحزن والأسف. لا، لا. بحق الأمجاد التي اكتسبتها، اذا هربت لن استحق أبداً أن أدعى ابن تالبوت. فلا تحدثني أبداً عن الهرب لأني لن أطيعك. فان ابن تالبوت قد صمّم على أن يموت عند أقدام أبيه تالبوت المقاتل الشجاع الصنديد.

تالبوت : اتبع اذاً خطى والدك في هذه المغامرة اليائسة، يا ابني الحبيب، ان حياتك غالية عندي. فاذا شئت أن تحارب، قاتل الى جانب أبيك، وبعد أن نثبت للجميع جدارتنا وبسالتنا، يمكننا أن نموت معاً.

(يخرجان).

المشهد السابع

في مكان آخر من ساحة القتال

(تسمع موسيقى استنفار. تجري مناوشات. يدخل تالبوت جريحاً يسانده أحد الخدم).

تالبوت : أين حياتي الثانية؟ ان حياتي أنا قد انتهت. أين تالبوت الشاب؟ أين جون الباسل؟ أيها الموت الظافر في ظل الأسر المشين، ان شجاعة تالبوت الشاب تجعلني أبتسم، لأنه عندما أبصرني جاثياً على ركبتيّ من شدة الألم شهر فوق رأسي سيفه الذي يقطر دماً، ونظير الأسد الجائع ضاعف غضبه وطعناته القاتلة. لكن حالما رأى المدافع عني أنه وحيد سهر على نزاعي بدون أن يواصل كرّه وفرّه، إذْ انتابه دوار مدوّخ، راح يحوم حولي بالرغم من كثافة صفوف الفرنسيين

المحيطين بي. وفي بركة الدم هذه أغرق ولدي حماسه الثائر، فخرّ صريع شجاعته وأقدامه ولوى عنقه كالزهرة النضرة المتباهية وقد لفحتها حرارة الرياح الخمسينية المحرقة.

(يدخل الجنود حاملين جثمان جون تالبوت).

الخادم (لتالبوت) : يا عزيزي اللورد، ها هو ابنك الشهيد.

تالبوت : تباً لك أيها الموت القاسي الغادر، لماذا وصمتنا بطابع بطشك وطغيانك؟ سنتخلص قريباً من نير استبدادك. فقد اتحدنا بروابط المجد الأبدي وشققنا بأجنحتك عنان الفضاء الأزرق الفسيح، وسننجو كلانا، أنا وابني، من ربقة العدم والنسيان، اذ ندخل عالم الخلود من بابه العسير على مر الدهور. أنت يا من بجراحك جابهت الموت الفظيع، كلّم أباك قبل أن يقضي نحبه. تجلّد أجرع كأس الحمام بشمم وإباء، افترض أنه أحد أعدائك الفرنسيين، يا ولدي المسكين. يخيّل اليّ أن ابني يبتسم ويصرخ متحدّياً : اذا كان الموت فرنسياً، سيموت في هذا النهار بالذات. اقتربوا أيها الرجال ومدّدوه هنا على ذراع أبيه. لم يعد قلبي قادراً على تحمّل مثل هذه المأساة. وداعاً أيها الجنود. لقد حصلت في هذه اللحظة على ما أردت امتلاكه الآن وقد أصبحت يداي نعشاً لشباب ولدي الحبيب.

(يخرج).

(تُسمع موسيقى. يخرج الجنود والخدم تاركين الجثمانين على الأرض. يدخل شارل وآلنسون وبوركون واللقيط والعذراء مع قواتها).

الضابط : لو أرسل يورك وسومرست نجدةً لكان يومنا هذا اصطبغ بلون الدم.

اللقيط : بغضب مهووس ارتوى سيف تالبوت الشاب القليل الخبرة من دماء الفرنسيي.

العذراء : لقد صادفته مرة وقلت له : أيها الشاب البتول ستغلبك عذراء. لكنه بازدراء مباغت أجابني : تالبوت الشاب لم يولد ليكون ضحية حيزبون. قال هذا وانقضّ على الجيش الفرنسي، وتركني وشأني بفخر كأني عدوة حقيرة.

بوركون : طبعاً كان نصيبه أن يصبح فارساً نبيلاً. لكنه دُفن بين ذراعي أبيه الذي جرّ عليه البؤس والشقاء.

اللقيط : تعالوا نحطّم عظامه ونقطّع اشلاءه ارباً ارباً. فقد كانت حياته مجد انكلترا ودهشة فرنسا كلها.

شارل : لا، لا. لا تفعلوا ذلك لأنه غير لائق بكم. لا تهينوا الأموات الذين غادرونا بعد أن كانوا معنا أحياء مناضلين.

(يدخل سير وليم لوسي يحيط به بعض رجاله، ويتقدمه حارس فرنسي).

لوسي : أيها الحارس الأمين، أوصلني الى خيمة ولي العهد كي أعرف لمن يعود فضل انتصارنا في هذا النهار الميمون.

شارل : ما غاية مهمّتك في تقديم الخضوع والولاء؟

لوسي : الخضوع، يا مولاي ولي العهد، كلمة فرنسية محضة. اما نحن المحاربون الانكليز فلا نعرف لها معنى. لقد جئت لأطّلع على عدد اسرانا لديكم والتعرف على موتانا.

شارل : هل تتكلم عن أسرى؟ نحن سجننا جحيم. لكن قل لي عمّن تبحث؟

لوسي : عن جبار ساحات الوغى اللورد تالبوت الشجاع كونت شروز بري الذي ما خُلق إلا للانتصار في الحروب، كونت واشفورد وواترفورد وفالانس، لورد تالبوت وكودريك وأرشنفيلد، لورد سترانج بلاكمير، لورد فردون ألتون، لورد كرومويل وينفيلد، لورد فورنفال شفيلد المثلث الظفر لورد فلكون بريدج الفارس

المغوار الحاصل على رمز الجزّة الذهبية، المارشال في جيش هنري السادس ملك فرنسا.

العذراء : هذا اسلوب غريب في النعوت الخيالية. ان من يملك خمسين دولة لا يكتب بمثل هذا الأسلوب السخيف. أمّا من تجود عليه بكل هذه الألقاب والنعوت فها هو ملقى عند أقدامنا وقد أكل لحمه الذباب.

لوسي : لقد قتل تالبوت الذي كان يعتبر وحده ضربة فرنسا، هذا النمرود البارز في مخيلتكم فقط. لو كانت حدقتا عينيّ قذيفتين لأنطلقتا لتشويه محياكم. كم أود أن أرد هؤلاء الأموات الى الحياة، كي يرتجف أهالي فرنسا من الهلع. لو بقي ظله فيما بينكم لكان أشجعكم اصطكت ركبتاه من الفزع. أعطوني جسديهما لأحملهما وأدفنهما كما تستحق أمجادهما.

العذراء : يخيّل اليّ أن هذا الوقح هو شبح تالبوت العجوز الغبي الذي تتكلم عنه باعتزاز. هيّا خذ هاتين الجثتين النتنتين، إذ لو تركناهما هنا لأفسدتا اجواءنا ولوّثتا الهواء الذي نتنشّقه.

شارل (للوسي) : عجّل في أخذ هاتين الجثتين من هنا.

لوسي : سأنقلهما. انما من رمادهما سينبثق طائر الفينيق الذي سترتجف منه كل فرنسا هلعاً.

شارل : المهم أن نتخلص منهما. افعل بهما ما يحلو لك، الآن وقد اسعدنا الحظ باحتلال باريس. كل شيء أصبح يخصّنا بعد مقتل الطاغية تالبوت.

الفصل الخامس

المشهد الأول

قصر الملك في لندن

(يدخل الملك هنري وكلوسستر واكساتر)

الملك هنري : هل قرأت رسائل البابا والأمبراطور والكونت ارمانياك؟

كلوسستر : أجل يا مولاي، وهذا مفادها : إلتماس من سيادتك بتواضع لعقد السلم بين مملكتي فرنسا وانكلترا.

الملك هنري : ما رأيك في هذا الطلب؟

كلوسستر : انا موافق يا مولاي، لأنه الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء واستتباب الأمن في كلا البلدين.

الملك هنري : أجل يا عمي العزيز. لقد فكرت دائماً في ذلك. لأن استمرار العداء عمل بربري غير طبيعي، اذ لا داعي لسفك الدماء بين شعبين متجاورين.

كلوسستر : فوق ذلك، يا مولاي، لتوطيد هذه العلاقة ودعم الصلح الذي يهمّ شارل صاحب السلطة في فرنسا، فان هذا الأخير يعرض عليك الزواج من ابنته الوحيدة التي تملك بائنة ضخمة وثمينة.

الملك هنري : انت تقترح عليّ الزواج يا عمي! لكني لا أزال فتيًّا ودراستي وكتبي أنسب لي الآن من مناجاة أية حبيبة. على كل حال ليدخل السفراء، فيتلقّى كل منهم الجواب الذي يرضيه، ولن أرفض أي فخر يضاف الى أمجاد بلادي. فعلى بركة الله.

(يدخل حبر وسفيران ثم ونشستر بحلّة كردينال).

اكساتر : ما هذا؟ اللورد ونشستر جالس الى جانب الكردينال؟ هل نرى تحقيق نبوءة هنري الخامس حين قال : اذا أصبح هذا الرجل يوماً كردينالاً فان قبعته ستعادل تاج الملك.

الملك هنري : سادتي السفراء، لقد تفحّصنا طلبات كل منكم وناقشناها ووجدنا أن عرضكم صالح بقدر ما هو معقول. لذلك قررت أن أصدر شروط الصلح على أساس الصداقة، ولن أتأخر في ارسالها مع اللورد ونشستر الى فرنسا.

كلوسستر (لأحد السفراء) : اما بما يخص اقتراح سيدك، فقد أفهمت سموّه مفصلاً ما يقتضي عمله، حتى أنه أعجب بفضائل العروس وجمالها وما ستحمله اليه من بائنة فخمة، وبات ينوي أن يجعل منها ملكة انكلترا.

الملك هنري (للسفير) : وبرهاناً على رضاي، قدّمْ له هذه الجوهرة كعربون مودتي (كلوسستر) وبناءً على ذلك شكّل موكب الحرس أيها اللورد حامي المملكة لترافق السفير بأمان الى مرفأ دوفر. وهناك يركب السفينة لترجعه الى بلاده.

(يخرج الملك هنري وحاشيته، ثم كلوسستر واكساتر والسفراء).

ونشستر : قف أيها الحبر الجليل. ستنال قبل رحيلك مبلغ المال الذي وعدتك به لقاء الشعائر الخطيرة التي خلعتها عليّ.

الحبر : انا لا أنتظر انعام جلالتك.

ونشستر (على حدة) : والآن أرجو أن لا يقدّم ونشستر خضوعه، وأن لا

يستسلم الى نبيل أكثر منه شموخاً. يا همفري كلوسستر سترى بالرغم من عراقة نسبك وسعة نفوذك أن الأسقف لن يدعك تتسلط عليه. سأجعلك تنحني أمامي وتجثو على ركبتيك، أو أقلب هذه البلاد بالخلافات والدسائس رأساً على عقب.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في فرنسا، وسط سهل منطقة أنجو

(يدخل شارل وبوركون وآلنسون والعذراء والفِرَق الراجعة).

شارل : هذه الأنباء يا سادة، يجب أن ترفع معنوياتنا المنهارة. يقال أن الباريسيين الأقوياء قد ثاروا وعادوا الى حزب فرنسا الحربي.

آلنسون : إزحف على باريس، يا شارل فرنسا بصفتك الملكية ولا تدعْ جيشك يستولي عليه الجمود.

العذراء : ليكن السلام حليفك، اذا عادوا الينا. وإلا ليحلّ الدمار في قصورهم.

(يدخل أحد الكشّافين).

الكشاف : نتمنى النجاح لقائدنا البطل الهمام والازدهار لأنصاره الشجعان.

شارل : أسألك أن تقول لي ما هي توجيهات كشّافينا؟

الكشاف : الجيش الانكليزي مقسوم الى شطرين، وقد جُمع الآن في وحدة متلاحمة لشنّ هجوم كاسح عليكم في الحال.

شارل : هذا تنبيه مفاجئ، يا سادتي. لكننا على أتم الأهبة لمواجهة كل طارئ.

بوركون : انا متّكل على غياب ظلّ تالبوت عن هذا المكان. فالآن وقد رحل عن هذا العالم، يا مولاي، لا أرى من داع للخوف.

العذراء : من كل الاحساسات الخبيثة، الخوف هو أبشعها. أصدر أوامرك، للجيش كي يتقدم ويحرز النصر الذي أصبح في متناول يدك يا شارل، مهما أرغى وأزبد هنري، ومهما أسف الكون بأجمعه لهذه الحقيقة الأكيدة.

شارل : الى الأمام اذاً، يا سادة، وليكن النصر حليف فرنسا العزيزة.

(يخرجون).

المشهد الثالث

أمام مدينة أنجيه

(تسمع موسيقى انذار تليها حركة جنود، وتدخل العذراء).

العذراء : الوصي ينتصر والفرنسيون يهربون. فهلمَّ بنا الى نجدتهم بعصا سحرية وتعاويذ فعّالة. وأنت أيتها الأرواح المختارة تنبهينني وتشيرين الى الأمور التي ستحدث قريباً. (يسمع قصف رعد) أيها الخدام الأمناء، وأنصار ملك الشمال القادر، إظهروا لي وساعدوني في هجومي.

(يدخل بعض الشياطين).

لدى ظهوركم هذا العاجل، أعترف بمبادرتكم المألوفة. والآن أيتها الأرواح المأنوسة التي الجأ اليها من بين جميع القوات الكامنة في أرجاء العالم الأسفل، ساعدوني هذه المرة أيضاً،

وأمّنوا لي انتصار فرنسا. (يتجوّل الشياطين صامتين). لا تتركوني حائرة بصمتكم الطويل. لقد تعوّدتم أن تتغذّوا بدمائي، وأنا مستعدة لأن أقطع أحد أعضائي وأعطيكم اياه مقابل خدمات جديدة، بشرط أن تتنازلوا وتساعدوني مرة أخرى. (يحنون رؤوسهم). لا أمل بالنجدة. سأجعل جسمي مكافأة لكم اذا لبّيتم طلبي. (يهزون رؤوسهم). ماذا تعنون؟ هل أن تضحيتي بجسمي وبدمي لا تستحق الحصول على مساعدتكم المعتادة؟ اذاً خذوا نفسي، أجل، وجسمي أيضاً وكل ما أملك لأن هذا أفضل من أن تنتصر انكلترا على فرنسا. (يغيبون). ها هم يتركونني وحيدة. فهل حان اذاً زمن سقوط فرنسا وفقدانها كل عزها وسعادتها، ودحرجة رأسها في أحضان انكلترا؟ ان تضرّعاتي السابقة أضحت هزيلة فقوي الجحيم عليها ولم أجرؤ على منازلته. والآن أرى مجد فرنسا ممرّغاً في الوحل.

(تخرج).

(تسمع موسيقى استنفار. يدخل الفرنسيون والانكليز وهم يتقاتلون والعذراء ويورك يتماسكان بالأيدي فتُؤْسَر العذراء ويهرب الفرنسيون).

يورك : يا ابنة فرنسا، اعتقد بأنك وقعت أخيراً في قبضتي. والآن أنقذي نفسك بعصاك السحرية، وحاولي أن تستردّي مني حريتك. هذه كبوة نادرة لا تليق بدهاء الشياطين. انظروا الى هذه المشعوذة كيف تقطّب حاجبيها أنها ساحرة تريد أن تمسخني على هواها.

العذراء : لا سبيل الى مسخك وجعلك أقبح مما أنت عليه.

يورك : ان ولي العهد شارل شاب لطيف وليس من أحد غيره معجب ببريق عينيك.

العذراء : لعن الله شارل، ولعنك أنت أيضاً. أتمنى لكما أن تطالكما أيدي الشر المدمرة وأنتما في سريريكما.

يورك : يا لك من ساحرة بغيضة ومجدِّفة سليطة اللسان تستحقين قطع لسانك.

العذراء : دعني أصبّ عليك جام غضبي ولعنتي.

يورك : صبّيها على فسقك، يا فاجرة، عندما تحترقين قريباً فوق كومة الحطب المتأججة جمراً.

(يخرجون).

(سمع موسيقى. يدخل سوفولك ممسكاً بيد السيدة مرغريت).

سوفولك : أيًّا كنتِ، تظلين سجينتي (يتفحّصها). ما أروع جمالك الجذاب. لا تخشي أمراً ولا تهربي. فلن أمسّك بأذى. دعيني أقبّل هذه الأنامل الناعمة بخشوع وهدوء، واتركيني أضع يدي على خصرك النحيل. (يرسل اليها قبلة على رؤوس أصابع يده، ويطوّق خصرها بذراعه). من أنتِ؟ أنا معجب جداً بشخصك الكريم.

مرغريت : اسمي مرغريت. وأنا ابنة ملك نابولي.

سوفولك : أنا كونت سوفولك. لا تخافي، يا آية الآيات. لن أدعك تفلتين من يدي. وكما تحتضن البجعة صغارها تحت جناحيها الدافئين هكذا أودّ أن أحتضنك أنا، أيتها الحسناء الفاضلة. لكن اذا كان هذا الحبس يغيظكِ، سأطلق حريتك وأعتبرك صديقتي العزيزة (تدير ظهرها كأنها تريد الذهاب). أرجوك أن تبقي هنا، لأني لا أتحمل غيابك. ان يدي تود انقاذك. اما قلبي فيمانع للاحتفاظ بك. ان الشمس التي ترسل أشعّتها على صفحة ماء الينبوع الصافي كالبلّور ليست سوى انعكاس لمعان عينيك. هكذا يتراءى بهاؤك لناظريّ، وأتوق الى مغازلتك. لكن لساني لا يطاوعني. أريد أن أصف بهاء جمالك، وسأطلب قلماً وحبراً لكي أسطر افكاري على الورق. تباً لصمتي! أوَلا أحسن الكلام؟ أولم اصبح في

الحقيقة اسير لحظك الفتّان، أنت، يا أميرة الحسن التي يربط الحياء لسانك وتسحر انظارك جوارح قلبي وأصدق مشاعري؟

مرغريت : قل لي يا كونت سوفولك، إن كان هذا اسمكَ، ما هي الفدية التي يتحتم علي دفعها لكي أغادر هذا المكان بصفتي سجينتك؟

سوفولك (على حدة) : كيف يمكنني أن أذلّل صدّها وأن أبيّن لها عمق حبي وأعرف إن كانت هي أيضاً تهواني؟

مرغريت : لماذا لا تجيبني؟ ما هي الجزية التي يجب عليّ أن أدفعها لك؟.

سوفولك (على حدة) : هي جميلة، ولا بدّ لي من مغازلتها، وهي امرأة ولا بدّ لي من امتلاكها.

مرغريت : أتريد أن تقبل منّي الفدية أم لا؟

سوفولك (على حدة) : ما أغباني! عليّ أن أتذكر أن لي زوجة. فكيف تصبح مرغريت عشيقتي؟

مرغريت : الأَوْلَى بي أن أدعه وشأنه، لأنه لا يريد أن يفهم ما أسأله.

سوفولك : كلامها يفسد وصولي اليها ويغرقني في بحر الشقاء والأشواق.

مرغريت : هو يتكلم بدون ادراك، ويبدو لي كأنه مهووس.

سوفولك : مع ذلك يمكنني أن أتساهل معها قليلاً.

مرغريت : أفضّل أن تجيب على سؤالي.

سوفولك (على حدة) : لا بد لي من الحصول على هذه السيدة المدعوة مرغريت. لكن لمن؟ أجل، لمليكي. (بصوت مرتفع). خطّتي فاشلة.

مرغريت : يتحدث عن خطة. فلا بد من أن يكون متآمراً.

سوفولك (على حدة) : لكن هواي قد يرتضي ذلك ويعود السلام الى المملكتين انما هناك عقبة كأداء، لأن أباها، وإن يكن ملك نابولي ودوق أنجو ودوق ماين، هو فقير وعنيد ولا يتنازل الى هذا التحالف.

مرغريت : أنصتْ الي أيها الضابط. هل لك أذنان سامعتان؟

سوفولك (على حدة) : بالرغم من قلة الاكتراث أرى أن هنري لا يزال شاباً، ولا بد له من الازعان. (بصوت مرتفع) لديّ سرّ أود أن أبوح لكِ به، يا سيدتي.

مرغريت (على حدة) : لا بأس عليّ أن أكون أسيرته. يظهر عليه أنه فارس لبق ظريف، ولن يقلل من احترامي على كل حال.

سوفولك : ارجوك أن تتنازلي وتصغي الى ما سأقوله لك.

مرغريت (على حدة) : هل سينقذني الفرنسيون؟ في هذه الحالة لا حاجة الى الاستنجاد بشهامته.

سوفولك : سيدتي العزيزة، أرجوك أن تعيريني سمعك في قضية...

مرغريت (على حدة) : لا بأس، كثيرات غيري كنّ أسيرات نظيري.

سوفولك : بماذا تتمْتمين هكذا، يا سيدتي؟

مرغريت : سامحني على هذا الالتباس.

سوفولك : قولي لي، أيتها الأميرة اللطيفة : ألا تجدين أسرك لديّ مسلياً ومفرحاً، اذا قبلتِ أن تصبحي ملكة؟

مرغريت : أعتقد بأن الملكة في الأسر هي أتعس وأشقى من أي عبد في أذلّ عبودية.. ألاَ أعلم أن الأمراء يمتازون بحريتهم أولاً.

سوفولك : ستكونين حرّة، اذا كان ملك انكلترا، البلد السعيد، حرًّا.

مرغريت : ماذا تفيدني حريته؟

سوفولك : أتعهد لك بأن أجعل منك زوجة هنري، وأن أضع صولجاناً من الذهب في يدك وتاجاً مرصعاً بالأحجار الكريمة على رأسك، اذا رضيتِ بأن تصبحي...

مرغريت : أصبح ماذا؟

سوفولك : عشيقتي.

مرغريت : أنا لا أستحق أن أكون زوجة هنري.

سوفولك : لا، يا سيدتي الفاتنة، انا الذي لا أستحق أن أتغزل بسيدة

رائعة مثلك لأجعل منها زوجته بدون أن ينوبني نصيب من هذا الاختيار. فما قولك يا مولاتي؟ هل توافقين؟

مرغريت : اذا قبل أبي بذلك، فأنا لا مانع لديّ.

سوفولك : اذاً علينا أن نرسل ضبّاطنا وأعلامنا أمامنا. ثم عند أسوار قصر والدك نطلب مفاوضته بواسطة مندوبينا.

(تتقدّم الفرق الانكليزية).

(تسمع موسيقى تشريفية، ويظهر رينيه على الحاجز).

سوفولك : اسمع، يا رينيه. ان ابنتك أسيرة.

رينيه : اسيرة من؟

سوفولك : أسيرتي انا.

رينيه : وما العمل يا سوفولك؟ انا جندي، ولا يسعني البكاء ولا التململ.

سوفولك : هناك حلّ، يا مولاي، إقبل للاحتفاظ بعظمتك، بأن تزوج الملك ابنتك التي أقنعتها ورضيَتْ به بصعوبة، فيؤمّن هذا الأسر الحلو حريةً ملكيّةً لابنتك.

رينيه : هل تتكلم جدّياً، يا سوفولك؟

سوفولك : الحسناء مرغريت تعلم بأن سوفولك لا يحابي ولا يراوغ ولا يكذب.

رينيه : نظراً الى شرفك الرفيع، أصدّقك وأسعى لتلبية طلبك النبيل.

سوفولك : وأنا أنتظر مجيئك.

(رينيه يغادر الحاجز).

(تسمع موسيقى، ويظهر رينيه عند أسفل السور).

رينيه : أهلاً وسهلاً ومرحباً بك في ديارنا، أيها الكونت الشجاع. يمكنك أن تتصرف في مقاطعة أنجو كما يحلو لسموّك.

سوفولك : شكراً يا رينيه، يا أيها الأب السعيد بهذه الابنة الجميلة

التي خلقتْ لتكون شريكة حياة ملك. ما هو ردّك على طلبي؟

رينيه : بما أنك تنازلت الى مغازلة ابنتي لتجعل منها أميرة زوجة ملك هو سيد خطير، أرجو أن تدعني أحكم مقاطعتي أنجو وماين، بعيداً عن كل الضغوط وكل ويلات الحرب. وفي هذه الحالة تصبح ابنتي قرينة هنري، اذا شاء هو ذلك.

سوفولك : ان فديتي هي أن أردّ اليها حريّتها. اما المقاطعتان المذكورتان فاني أتعهد لك بأن تحتفظ بهما بكل أمان واطمئنان.

رينيه : اذاً باسم جلالة الملك هنري، وبصفتك ممثلاً لهذا العاهل الكريم، أرجوك أن تقبل يد ابنتي لتكون زوجته الوفية.

سوفولك : يا رينيه، أمير فرنسا، أقدم لك كل احترامي، وأنا أخدم مصالح مليكي (على حدة) على كل حال يسرني أن أقوم بهذه المهمة بكل فخر واعتزاز. (بصوت عالٍ) انا عائد اذاً الى انكلترا بهذا النبأ السار، لأستعجل هذا الحدث السعيد. فوداعاً يا رينيه. ضع هذه الجوهرة النادرة في مكان امين داخل قصرك الذهبي الذي يليق بها.

رينيه : أعانقك كما أعانق الملك هنري، لو كان حاضراً ها هنا.

مرغريت : وداعاً، يا مولاي، أقدم لك أطيب تمنياتي وثنائي واحترامي.

(تبتعد).

سوفولك : وداعاً يا سيدتي العزيزة. اسمعي، يا مرغريت. ألا توجّهين كلمة مجاملة لمليكي؟

مرغريت : أحمل اليه من قبلي أجمل تمنيات تليق بصبية عذراء تضع نفسها في خدمته.

سوفولك : كلامك اللائق المتواضع في محله. انما، يا سيدتي، اسمحي لي أن أسألك : أوليس لديك من بادرة حب نحو جلالته؟

مرغريت : هذه قبلة لك، لأني لا أجسر أن أوجّه اليه بادرة زهيدة كهذه.

(يخرج رينيه وتتبعه مرغريت).

سوفولك : لماذا هذه ليست لي؟ قف يا سوفولك. عليك أن لا تضيع في هذه المتاهة، لأن مسوخاً قبيحة تختبئ فيها وتضمر الشر والخيانة. عليّ أن أُقنع هنري بما أصفه له من جمالها ومزاياها الفريدة. تذكّر فضائل مرغريت السامية وبهاء طلعتها ومواهبها وما تتقنه من الفنون الجميلة، وتخيّل صورتها الفاتنة المعكوسة على صفحة الماء، حتى اذا مثلت، بين يدي هنري، تتمكن من استرعاء كل انتباهه وحصر كل أفكاره فيها.

(يخرج).

المشهد الرابع

في معسكر دوق يورك ضمن مقاطعة انجو

(يدخل يورك وورويك وغيرهما).

يورك : اليّ بهذه الساحرة المشعوذة، المحكوم عليها بالموت حرقاً.

(تدخل العذراء يحيط بها الحرس والى جانبها أحد الرعاة).

الراعي : آه! يا جان، هذه هي الضربة القاضية التي تصيب قلب والدك. لقد بحثت عنك في كل البلاد، وعندما حظيت بشخصك الحبيب تحتّم عليّ أن أشاهد موتك الأليم. آه! يا ابنتي العزيزة جان، سأموت معك.

العذراء : أيها المنكود الحظ، انا من عائلة نبيلة، وأنت لست أبي ولا قريبي.

الراعي : كفى، كفى. لا تتكدّرْ، يا مولاي. كل الناس يعرفون انها ابنتي، وامها التي لا تزال على قيد الحياة تؤكد ذلك أيضاً.

ورويك (للعذراء) : يا جاحدة، تريدين أن تنكري أهلك!

يورك : هذا دليل على خساسة حياتها المجرمة المنحطة. ان موتها أوْلى عقاب على جريرتها.

الراعي : تباً لك، يا جان! أأنت هكذا عنيدة؟ الله يعلم أنك من لحمي ودمي وقد أجريت من عيني سيلاً من الدموع. أسألك أن لا تنكريني، يا عزيزتي جان.

العذراء : اليكَ عني، أيها الفلاح الدنيء. أنت تنتسب اليّ، أيها الرجل، لتحطّ من قدر اسرتي وعراقة محتدي.

الراعي : لا شك في اني شرّفت رجل الدين الذي عقد زفافي الى أمك. اركعي وتلقّي بركتي، يا ابنتي الكريمة. الا تريدين الازعان للواقع؟ فاذاً ملعونة ساعة ولادتك. ليت اللبن الذي أرضعتك اياه امك ينقلب الى سمّ قاتل. وحين ترعين خرافي في الحقول، كم أتمنى أن يفترسك ذئب جائع. أنت تنكرين والدك، أيتها الفتاة الجاحدة. احرقوها، احرقوها. فالنار أوْلى بها أن تلتهمها وتريحني من عقوقها.

(يخرج).

يورك : حذوها. كفاها أن تعيث في الأرض فساداً.

العذراء : دعني أؤكد لك أولاً أني، أنا التي ترذلها، لست ابنة راعٍ أفاق، بل أنا سليلة ملوك، وبتول فاضلة مباركة، اختارتها العلياء، بناءً على وحي سماوي، لصنع معجزة خارقة. لا علاقة مطلقاً بيني وبين الأرواح الشريرة. انما أنتم الذين ارتكبتم الف إثم، لأنكم تتمتعون بما يستحقه غيركم من النعم، تظنون أن اجتراح العجائب لا يمكن أن يتم إلا على أيدي الشياطين. أنتم مخطئون لأن جان دارك لا تزال عذراء منذ طفولتها وعفيفة نقية حتى في أفكارها، ودم بتوليتها الطاهر الذي تسفكونه سيطالب بالانتقام منكم عند أبواب السماء.

يورك : أجل، أجل... خذوها الى الاعدام حرقاً.

ورويك (للجلادين) : اسمعوا يا سادة، لا تتذرعوا بكونها عذراء كي تقلّلوا لها رزم الحطب. ضعوا الكمية اللازمة وادلقوا فوقها براميل القطران وعلى الخشبة التي تربطونها اليها بغية تقصير مدة عذابها.

العذراء : لا سبيل الى تليين قلوبكم القاسية، كالصخر الجلمود. فان جان تكشف لك عن دهائك الذي يؤمّن لك الامتيازات القانونية. انا حبلى، أيها القتلة القساة. فاذا دفعتم بي الى ميتة عنيفة، لا تقتلوا على الأقل الجنين الذي أحمله في أحشائي.

يورك : معاذ الله. العذراء حبلى!

ورويك : هذه أكبر معجزة حدثت الى الآن. انظروا الى أي درك انحدرت بكم حماقتكم وتبجّحكم بالفضيلة.

يورك : لقد فاجأها ولي العهد بكلام رقيق، فظنّت أن في ذلك ملاذها ونجاتها.

ورويك : مهما كان الحال، اقضوا على أعدائكم لأننا لا نريد أن نمنح الحياة للقطاء، لا سيما عندما يكون شارل علة وجودهم.

العذراء : أنتم على خطأ فاضح. ان جنيني ليس من صلبه، ما دمت قد عشقت آلنسون.

يورك : آلنسون، هذا الداهية اللعين؟ سيموت جنينك وان كان يملك الف حياة.

العذراء : اسمحوا لي بأن أبيّن لكم سهوي. ليس شارل ولا الدوق الذي سميته منذ لحظة، بل هو رينيه ملك نابولي مَن أغواني وظفر بهيامي.

ورويك : رجل متزوج! هذا إثم لا يغتفر.

يورك : ويحها من عاهرة! في الحقيقة، أظنها تحتار بمن تتهم من الرجال العديدين في حياتها المشينة.

وورويك : هذا برهان قاطع على تهتكها واستهتارها في توزيع عواطفها.
يورك : مع ذلك، أنت تدّعين، أيتها الفاجرة، انك عذراء. ان اقوالك تدينك، أنت وجنينك. لا تتوسّلي، لأن كل التماساتك باطلة.
العذراء : هيا اذاً، انقلوني من هنا. فليس لديكم مني سوى اللعنات. أتمنى أن لا ترسل الشمس أشعتها الى البلاد التي تأويكم، وأرجو أن يظل الليل الكئيب والموت الزؤام مخيمين على كل ما يحيط بكم حتى يجثم على صدركم كابوس اليأس والشقاء، وتطوّق أعناقكم أغلال الذل والهوان وتدفعكم الى شنق أنفسكم.

(تخرج يسوقها الحراس أمامهم).

يورك : سيحترق جسمك وتحولك النار الى رماد، لأنك من زبانية الجحيم.

(يدخل ونشستر والكردينال بوفور وحاشيته).

ونشستر : أحييك، أيها اللورد الوصي، وأنا أسلمك رسائل الملك. إعلم يا مولاي، ان الدول الصديقة قد أحزنتها هذه المؤامرة الدنيئة، لذا التمستْ بحرارة أن يقام سلم دائم يشمل شعبنا وفرنسا الطامعة وها هو ولي العهد وحاشيته قادمون ليفاوضوكم في بعض البنود.
يورك : هل أفضتْ جميع جهودنا الى هذه النتيجة؟ بعد التضحية بعدد كبير من النواب والضباط والوجهاء والجنود الذين سقطوا صرعى بسبب هذا النزاع الذين لم يضنّوا بأنفسهم في سبيل خير وطنهم للوصول الى عقد صلح نسائي؟ ها قد خسرنا عن طريق الخيانة والخداع والنذالة، أكثر مدننا التي فتحها اجدادنا البواسل! وورويك، يا وورويك، انا أتوقع بألم فقدان مملكة فرنسا برمتها.

ورويك : صبراً، يا يورك. اذا عقدنا صلحاً، سيكون ذلك بأقسى شروط تجعل الفرنسيين لا يربحون سوى القليل القليل.

(يدخل شارل وحاشيته وآلنسون واللقيط ورينيه وغيرهم).

شارل : يا لوردات انكلترا، بما أن الاتفاق تمّ على اعلان الهدنة في فرنسا، جئنا نطّلع منك على شروط المعاهدة.

يورك : تكلّم، يا ونشستر، لأن الغضب المتفاقم الذي يثور في صدري، لدى رؤية هؤلاء الأعداء، يجعل صوتي يرتجف ويغصّ ثم يختنق في حنجرتي.

ونشستر : يا شارل، وأنتم جميعاً، هذا ما تقرر : بما أن الملك هنري يوافق بداعي الشفقة والرحمة على انقاذ البلاد من حرب مدمرة وعلى جعلكم تتنفّسون الصعداء في سلم مثمر، ستصبحون اتباع عرشه المخلصين. وأنت يا شارل، في هذه الحالة ستزعن للواقع وترضى بأن تكون نائب الملك وخاضعاً لأوامره، مع أنك تتمتع بالجلوس على العرش.

آلنسون : هل يتحتم عليه أن يكون ظلّ نفسه، وأن يكلّل رأسه بتاج، لا يؤمن له من السلطة إلا امتيازات ابسط الرعايا؟ ان هذا العرض سخيف وغير معقول ولا مقبول.

شارل : من البديهي أني أملك الآن على أكثر من نصف الأراضي الفرنسية، واني مكرّم ومعتبر كملك شرعي. فهل يتحتم عليّ أن أتنازل عن سلطتي المطلقة لكي استحصل على القسم الآخر، وأحكم ما تبقى من المناطق بصفة نائب الملك؟ كلا، يا مولاي السفير، أنا أفضّل أن أحتفظ بما لديّ وأن لا أفقد امكانية استرداد سائر الأراضي، وأنا اطلب المزيد.

يورك : يا شارل الثرثار، لقد تدخّلت بوسائل سرية للحصول على السلم. والآن وقد سُوّيت الأمور بالحسنى تتذرع بحجج واهية توسعية. إقبل المنصب الذي تلتمسه كمنّة يجود بها

عليك مليكنا لا كحقّ تطالب أنت به. وإلا سنشنّ عليك حرباً ضروساً لا تنتهي.

رينيه : أنتم تصرّون على مناقشة بنود هذه المعاهدة التي اذا ضاعت، أراهن على عشرة مقابل واحد، اننا لن نجد بديلاً لفرصة ملائمة مثلها.

آلنسون (لشارل بصوت خافت) : بالصراحة، من واجبكم أن تحافظوا على سلامة رعاياكم، وتحموهم من المجزرة الرهيبة والابادة الشرسة التي يتعرضون لها من جرّاء متابعة هذه المعارك. إقبل اذاً هذه الهدنة، على أن تنقضها متى شئت.

ورويك : ماذا تقول، يا شارل؟ ألا تزال شروطي معمولاً بها؟

شارل : أجل، بهذا الاحتياط الوحيد، يمكنك أن تقلع عن كل طمع بالمدن التي تضمّ الحاميات.

يورك : أقسم لك بشرفك كفارس مغوار بأنك ستظل وفيًّا لجلالة الملك، وأنا واثق بأنك لن تعصى، ولن تتمرد على تاج انكلترا، لا أنت ولا أنصارك الأمناء. (شارل ورجاله يتظاهرون بالرضا) والآن سرّح حاشيتك اذا شئت، واطوِ اعلامك وأوقف قرع طبولك، لنبدأ منذ هذه اللحظة عهد سلام ووئام بيننا.

(يخرجون).

المشهد الخامس

في لندن، داخل القصر الملكي

(يدخل الملك هنري وهو يتحدث الى سوفولك ثم يدخل كلوسستر واكساتر).

الملك هنري : أيها الكونت النبيل، ان وصفك الرائع للحسناء مرغريت قد أدهشني، وفضائلها التي تعزّز مفاتنها الخارجية، قد ولّدت

في قرارة نفسي أشواق الحب العميق. ونظير عاصفة عنيفة هبّ الهوى واجتاح كياني كأنه سفينة تتقاذفها الأمواج وتتلاعب بها كما لو كانت تجتذبها تارة الى أعماق اليم تريد إغراقها وطوراً تدفعها الى شاطئ السلامة لانقاذها. فهل يطول بي المدى كي أتمتع بأحلى ملذات الغرام؟

سوفولك : هذه القصة السطحية، يا مولاي، ليست سوى مقدمة مديح تستحقه، لأن مواهب هذه الصبية النادرة، لو كانت لي المقدرة، لوصفها على حقيقتها، لملأت المجلدات الضخمة في تعداد مزاياها الحميدة وخصالها الكريمة، لأنها تأخذ فعلاً بمجامع قلوب أغلظ الرجال، فكيف بفؤادك المرهف الحس. هناك ما هو أهم، إذ فوق ما هي عليه من بهاء وسناء، وما تتحلّى به من صفات ممتازة لا تضم حنايا ضلوعها الا نفساً متواضعة تنوي الخضوع لك وتتمنى دوام العز والسؤدد لعرشك. وهذا دليل قاطع على أن عفتها وشمائلها ستكون دوماً عند حسن ظنك، يا مليكي المفدّى هنري، كزوج محبوب مرهوب.

الملك هنري : وأنا لن أطلب منها أكثر من هذا. فيا أيها اللورد حامي المملكة أرجوك أن ترضى بأن تكون مرغريت ملكة انكلترا.

كلوسستر : هكذا أكون قد قبلت بالشر المستطير. أنت تعرف، يا صاحب السموّ، أنك خطيب فتاة أخرى رفيعة الشأن. فكيف تتنصّل من اتفاقك السابق بدون أن تسيء الى شرف تعهداتك؟

سوفولك : نظير حاكم يتملص من قسم غير قانوني، أو نظير رجل قد تعهد بتجربة قواه في مغامرة لا يتسنى له الفوز فيها، فينسحب في الوقت المناسب قبل أن يفتضح أمره وينكشف عجزه، فيغنم نفسه بدون أن يتعرض للخجل والاهانة.

كلوسستر : أرجوك أن تخبرني المزيد عن مرغريت هذه. فوالدها ليس سوى كونت مهما ادّعى من ألقاب رنانة فارغة.

سوفولك : لكن أباها، أيها اللورد الكريم، هو ملك نابولي الشهير في ايطاليا، ومثل هذا المقام الرفيع في فرنسا، توطد محالفته السلام وتمكّن الفرنسيين من مواصلة مناصبتنا العداء.

كلوسستر : هكذا هو حال الكونت ارمانياك، لأنه نسيب مقرّب الى شارل.

اكساتر : من جهة ثانية، تؤمّن ثروته بائنة ضخمة، بينما رينيه يميل بطبعه الى الأخذ أكثر من العطاء.

سوفولك : بخصوص البائنة، يا سيدي، أرجوك أن لا تحطّ من كرامة مولاك الملك ولا تضعه في مثل هذا المستوى من الخساسة والفقر، الى درجة أن يفضّل مصلحته على عواطف قلبه، والمادة على الحب. إن هنري قادر على اغناء زوجته الملكة، وليس بحاجة الى أموال قرينته ليضاعف ثراءه. كم من الفلاحين البؤساء يحاولون أن يساوموا على ثروات نسائهم كما يساومون على ثمن بقرة، أو نعجة أو فرس. فالزواج اسمى من أن يتم على يد سمسار. هي ليست بالمرأة التي نتمناها نحن، بل شريكة الحياة التي يختارها فؤاد جلالة الملك والرفيقة الحبيبة التي يهواها ويقودها الى مضجع الزوجية. وبما أن جلالته يفضل مرغريت، فهذه حجة أوْلى لكي تكون موضوع تحبيذنا نحن أيضاً. لأن الزواج القسري ليس سوى جحيم لمدى العمر تتلاحق فيه الخلافات والمشاحنات والدسائس. بينما زواج الحب والرضى يؤدّي الى التفاهم والسعادة، وهو صورة مصغرة للسلام السماوي الدائم. وبالنسبة الى هنري كملك أنّى له أن يجد نصيباً أنسب من الصبية مرغريت ابنة ملك نابولي. فجمالها لا يضاهيه حسن، وعراقة نسبها لا توازيه أية أسرة بالكرامة والرفعة. ثم أن شجاعتها وخصالها تميّزها عن جميع نساء الأرض، ما عدا كونها متحدرة من سلالة ملكية فاضلة.

ان هنري ابن فاتح مؤهل لإنجاب غيره من الفاتحين. لا سيما اذا اقترن، بدافع الحب، بسيدة تحاكيه نبلاً كالحسناء مرغريت. ارجوك اذاً أن تقبل يا مولاي بعقد هذا الزفاف الميمون الذي يجعل من مرغريت ملكة فريدة عصرها لا سبيل الى أية فتاة أخرى أن تكون لها بديلة.

الملك هنري : لست أدري إن كنت قد تأثرت بوصفك الرائع يا لورد سوفولك، أو بدافع شبابي المتحمس الذي لم يبلغ بعد درجة الهيام المستعر بحرارة الصبابة والحنين، إلا أني واثق بأن خفقان قلبي يزداد سرعة وأشواقي المليئة بالأمل والخشية تتجاذبني وتضاعف اضطراب أفكاري. أرجوك أن تعجّل وتمخر عباب البحر الى فرنسا، يا مولاي، وان ترتّب الأمور بكل الوسائل لجعل السيدة مرغريت ترضى بالمجيء إليّ على متن أول سفينة قادمة الى انكلترا لتتوَّج ملكة وفيّة مباركة وتجلس الى جانبي على العرش. ولتغطية نفقات هذا الحدث الميمون يمكنك أن تفرض على شعبي ضريبة خاصة. أسألك أن تسرع في الرحيل، لأني الى حين عودتك سأظل فريسة الهواجس والقلق. (لكلوسستر) وأنت أيها العم الحبيب، اطرد عنك فكرة الرفض. واذا حكمت عليّ بحسب ما كنت أنت عليه، لا بحسب حالتك الحاضرة، أنا واثق بأنك ستعذرني على اصراري المباغت هذا. وبناء على رغبتي، سأنسحب الى خلوة أكون فيها بعيداً عن كل صحبة، كي أتأمّل في هذه القضية واصبّر اشواقي المستعجلة.

(يخرج).

كلوسستر : أجل، اشواقه التي أخشى أن تعذّبه وترافقه مدى العمر.

(يخرج كلوسستر واكساتر).

سوفولك : هكذا تغلّب رأيي على رغبة الجميع. وهكذا يتوق العاشق المتيّم الى الفوز بالحب آملاً أن يكون هذا الحب لخيره وهنائه. ها قد أصبحت مرغريت ملكة، ستدير الملك كما يحلو لها، وأنا سأدير مرغريت على هواي، وبالتالي ادير الملك والمملكة معاً.

(تمت)

هنري السادس

القسم الثاني

أشخاص المسرحية

الملك هنري السادس.
همفْري دوق كلوسستر : عمّه.
الكردينال بوفور : أسقف ونْشسْتر، عم والد الملك.
ريشار بلانْتاجينيه : دوق يورك.

ادوارد ريشار	}	ولداه
دوق سومرست دوق سوفولك دوق بوكنكهام لورد ساي لورد كليفورد كليفورد الشاب	}	من أنصار الملك
كونت سالزبري كونت ورْويك.	}	من أتباع يورك

لورد سكايل : حاكم البرج
سير همفري ستافورد : أخوه
سير جون ستانلي
فوكس

جاك كاد : مشاغب

جورج
جون
ديك
ميشال
} أتباعه

سميث : الحائك

إسكندر إيدن : وجيه من كِنْت.

وجيهان : سجينان لدى سوفولك.

هيوم
ساوثويل
} كاهنان.

بولنْبروك : ساحر.

روح : يستحضره هذا الأخير.

توماس هورْنر: صانع دروع.

بطرس : أجيره.

موظف شتْهام.

محافظ سنْتلْبان.

سمْكوكْس : شرّير.

ربّان سفينة.

بحّار.

ولتر ويتمور : بحار.

الملكة مرغريت : زوجة الملك هنري.

اليونور دوقة : كلوسسْتر.

مرْجري جورْدن ساحرة

زوجة سُمْكوكس.

لوردات، سيدات، حاشية، مستدعون، قضاة، مرشد، شرطي، ضابط، ذوات، أمراء، حَمَلَة صقور، حرس، جنود، رُسُل، الخ.

تجري الأحداث في أنحاء مختلفة من انكلترا

الفصل الأول

المشهد الأول

لندن — في حديقة القصر الملكي.

(تُسمع موسيقى آلات مختلفة. من ناحية يدخل الملك هنري، ودوق كلوسستر وسالزبري وَوَرْويك والكردينال بوفور، ومن ناحية أخرى تدخل الملكة مرغريت يقودها سوفولك، ويتبعها سومرست ويورك بوكنكهام وغيرهم).

سوفولك : لقد كلّفتني جلالتك عند ذهابي الى فرنسا أن أمثّل سيادتك وأتزوج باسمك الأميرة مرغريت، وها قد قمت بالمهمة الرفيعة وأجريت مراسم الزفاف في مدينة « تور » الأثرية الشهيرة بحضور ملوك فرنسا وصقلّية ودوق أورليان وكالابر وبريطانيا وآلنسون وسبعة كونْتات واثني عشر باروناً وعشرين أسقفاً جليلاً. والآن أجثو بتواضع أمامك وأمام انكلترا الممثلة بنبلائها الكرام وأتنازل عن حقوقي على الملكة لأيادي جلالتك البيضاء بعد أن مثّلت بفخر واعتزاز ظلّك الشامخ. فإليك بأروع هدية تسنّى لمركيز أن يمنحها، وأجمل ملكة، أسعد الحظ ملكاً أن يحظى بها.

الملك هنري : انهض يا سوفولك. أهلاً وسهلاً ومرحباً بكِ أيتها الملكة

مرغريت. لا يسعني أن أجود عليك كعربون حبّي الكبير لكِ بأرق من هذه القبلة. لأنك بهذا المحيا الصبوح تنعمين على نفسي بعالم واسع من الملذات الأرضية، في ظلال ألطاف الهوى الذي يوحّد أفكارنا.

الملكة مرغريت : يا ملك انكلترا العظيم، يا سيدي المبجّل الكريم، إن الخطاب الطويل الذي وجّهتُه إليك في ذهني، يا مليكي العزيز، نهاراً وليلاً، وفي سهراتي وأحلامي، في اجتماعات البلاط وفي ابتهالاتي جميعها تشجعني على تحية مليكي بهذا الكلام البسيط النابع من وَحْي روحي وهو يغمر فؤادي بفيض من البهجة والسرور.

الملك هنري : لقد سحرني منظرها، لكن لطف حديثها الذي تحلّيه بها حكمتها، نقلني من رضى الامتنان الى دموع الفرح الذي يثلج قلبي. أرجو يا مولاي أن تحيّي حبيبتي تحية الإعجاب الكامل.

الجميع (جاثين على ركبتهم) : لتحيا الملكة مرغريت بهجة انكلترا.

الملكة مرغريت : أشكركم جميعاً.

(تصدح الموسيقى).

سوفولك : مولاي حامي المملكة، تفضل بقبول شروط السلم المعقود بين عاهلنا وملك فرنسا شارل. وقد قُبلت بالإجماع لمدة سنة ونصف.

كلوسستر (يقرأ) : هذا نص المعاهدة : لقد تمّ الاتفاق بين ملك فرنسا شارل وبين وليم بول مركيز سوفولك، سفير هنري ملك انكلترا، على اقتران هذا الملك بالسيدة مرغريت ابنة رينيه ملك نابولي وصقلّية، وأن يتوّجها ملكة على انكلترا قبل الثلاثين من الشهر القادم. وأن يتمّ الجلاء عن دوقية أنجو وكونتيّة ماين، وأن يُسلّما إلى أبيها.

(يقع المستند من يده).

الملك هنري : ما بكَ، يا عمّاه؟

كلوسستر : سامحني، يا مولاي، لقد أصابني خفقان مفاجئ في القلب، فأظلمت الدنيا في عينيَّ الى حدّ أني لم أعد أقوى على متابعة القراءة.

الملك هنري : أرجوك، يا عمي ونشستر، أن تواصل القراءة عنه.

الكردينال : ثم تمّ الاتفاق بين الدوقيّتين أنجو وماين على إخلائهما وتسليمهما الى أبيها الملك، وأن توافي العروس ملك انكلترا على نفقتها الخاصة بدون أن تكون مصحوبة بأيّة بائنة.

الملك هنري : هذه الشروط تناسبني. أرجوك أن تركع أيها المركيز لأجعل منك دوق سوفولك، وأن أقلّدك السيف. يا ابن عمي يورك، أرجوك أن تستلم منصبه كوَصي على عرش فرنسا الى أن تنقضي مدة السنة والنصف بتمامها. أشكر عمي ونشستر، كما أشكر كلوسستر ويورك وبوكنكْهام وسومرست وسالزْبري وورْويك. وأكرّر شكري لكم جميعاً على حسن الاستقبال الذي أحطتم به الأميرة مليكتي. هيا بنا لنعود ونهتمّ عاجلاً باستعدادات التتويج.

(يخرج الملك ثم الملكة وسوفولك).

كلوسستر : يا نبلاء انكلترا، يا أعمدة الدولة الثابتة، لا بدّ لدوق همفري من الإفصاح لكم عن آلامه وآلامكم وآلام كافة الشعب في طول البلاد وعرضها. فإن أخي هنري سيبذل شبابه ومواهبه ويسكُن الريف أيام برد الشتاء القارس وحرّ الصيف المحرق ليحتلّ فرنسا ويستردّ إرثه الشرعي. وأخي بدفورد يرهق ذهنه للحفاظ بالسياسة على ما اكتسبه هنري. وأنتم يا سومرست وبوكنكهام ويورك الشجاع وسالزبري المظفّر وورْويك، لا بدّ من أن تكونوا قد تلقّيتم جراحاً بالغة في

فرنسا ومنطقة نورمندي. وأخيراً أنا وعمي بدفورد، وكذلك جميع المستشارين المحنكين في هذه المملكة، بعد أن نعقد الجلسات الطويلة صبحاً ومساءً لمناقشة وسائل توطيد دعائم أمبراطوريّتنا في فرنسا، يكون سموّه قد تُوّج منذ حداثته في باريس، رغم أنف العدوّ، وهكذا سيخيب مسعانا ويضيع تعبنا ويُهدر شرفنا سدًى. فإن فتوحات هنري واجتهادات بدفورد اليقظ، وإنجازاتكم كمحاربين، ونصائحنا بأجمعها ستذهب أدراج الرياح. فيا نبلاء انكلترا، إن مجرّد تحقيق هذه المعاهدة المشينة وهذا القران المشؤوم، يذهب بمجدكم ويمحو اسمكم من الأذهان والتاريخ، ويشطب ذكركم من سجل الأخلاق والقيَم، ويهدم صرح فرنسا المحتلّة ويلقي كل كياننا في هوّة العدم، كأن شيئاً لم يكن.

الكردينال : ما معنى هذا الكلام، يا ابن أخي؟ وما معنى هذا الأسف وهذه الملامة التي تجرّمنا جميعنا؟ إن فرنسا لنا، ونحن مصمّمون على الاحتفاظ بها الى الأبد.

كلوسستر : أجل، يا عمّاه، سنحتفظ بها إن استطعنا. إنما الآن هذا مستحيل. فإن سوفولك الذي جعلت منه دوقاً منذ هنيهة، وخلعت عليه سلطة واسعة، قد منح دوقيّتَيْ أنجو ومابن للملك رينيه المسكين الذي لا تلائم ألقابه هزال ماليّته.

سالزبري : بحق وفاة من مات لأجل الجميع، إن هاتين الكونتيّتين كانتا مفتاح مقاطعة نورمندي. لكن لماذا تدمع عيناك، يا بنيّ الحبيب؟

ورويك : إذا بكيتُ فلأنّ ما تذكره قد ضاع منّا الى الأبد. إذ لو كان هناك من أمل في استعادته، فإن سيفي سيهدر دماً زكيًّا، ومآقيّ ستذرفان دموعاً سخينة. فأنا قد احتللت مقاطعتي أنجو ومابن، أجل أنا قد احتللتهما بقوة ساعدي، وضممتهما الى أراضينا، وها هي المدن التي تلقيت جراحاً

عديدة في سبيل كسبها، تُعاد لقاء كلام مسالم. يا إلهي، ما أتعس حظي!

يورك : ليت صوت دوق سوفولك يختنق في حنجرته، لأنه سوّد صفحة شرف هذه الجزيرة المحاربة. إن قضية فرنسا تمزّق قلبي، قبل أن أوافق على هذه المعاهدة. لقد قرأت أن ملوك انكلترا كانوا دوماً يقتنون المبالغ الطائلة من المال ويتلقّون بائنات ضخمة من زوجاتهم. لكن ملكنا هنري يرفض الاحتفاظ بممتلكاته ليتزوج فتاة لا تأتيه بأية بائنة.

كلوسستر : هذا مزاج سَمِج، بل أمر لم يسبق أن سمعنا بمثله. إن سوفولك يطالب بمبالغ ضخمة لأجل المصاريف والنفقات التي يقتضيها سفر السيدة الى هنا. أفما كان من الأفضل أن تبقى هي في فرنسا وأن تموت هناك من الجوع على أن...؟

الكردينال : يا مولاي كلوسستر، أنت تحتدّ أكثر من اللازم. هذه رغبة مولانا الملك.

كلوسستر : مولاي ونشستر، أنا عالم بما يجول في خاطرك. ليست كلماتي التي لا تعجبك، بل وجودي هنا هو الذي يضايقك. لا بدّ للحقد من أن يظهر، أيها الحبر المتجبّر. ها أنا أبصر غضبك في محياك. هل تريد أن نعيد مشاجراتنا الى سابق عهدها؟ وداعاً يا مولاي. يمكنك أن تقول بعد خروجي من هذا المكان أنني توقعت فقداننا فرنسا.

(يخرج).

الكردينال : وهكذا ذهب حامينا غاضباً. أنت تعلم أنه من ألدّ أعدائي. ماذا أقول؟ من ألدّ أعدائنا كلنا، وأخشى أن يكون أقل صداقة من سواه نحو الملك. لا تنسوا يا سادة، إنه أقرب أمير للملك، وإنه الوريث المرتقب لتاج انكلترا. حتى إن اكتسب

هنري بزواجه أمبراطورية وجميع ممالك الغرب الغنيّة، سيجد سبباً ليظهر عدم رضاه. احذروه يا سادة، ولا تنخدعوا بكلامه المعسول. كونوا حريصين ويقظين تجاهه. ما همّ إن اكتسَبَ الى جانبه غالبيّة أفراد الشعب الذين يعتبرون همفري دوق كلوسستر الكريم ويصفقون له بأيديهم وهم يهتفون له بصوتٍ عالٍ : حرسك الله يا صاحب الجلالة، أو حفظ الله دوق همفري النبيل. أنا أخشى، يا سادة، رغم كل هذا التمليق، أن نجد فيها حامياً خطراً ويصدق فيه القول : « حاميها حراميها ».

بوكنكهام : لماذا إذاً يحمي مليكنا الذي بلغ سن الرشد ويستطيع أن يحكم بنفسه؟ يا ابن عمي سومرست، انضمّ اليّ، وأنتم جميعاً أيضاً، وبعون دوق سوفولك سنتمكّن قريباً من قلب دوق همفري عن كرسيه.

الكردينال : هذه المشكلة الهامّة لا تتحمّل التأجيل. فأنا ذاهب حالاً الى دوق سوفولك.

(يخرج).

سومرست : يا ابن عمي بوكنكهام، مهما عظم كبرياء همفري، وثقلت علينا وطأة سلطته، لا بدّ لنا من مضاعفة سهرنا على الكردينال المتغطرس ومراقبته. فإن وقاحته تتعدّى حدود الاحتمال أكثر من جميع أمراء البلاد مجتمعين. فإذا قلبنا كلوسستر، فهو الذي سيصبح حامي المملكة.

بوكنكهام : أنت ستصبح حامي المملكة، يا سومرست، أو أنا، إن لزم الأمر، رغم أنف دوق همفري والكردينال معاً.

(يخرج بوكنكهام ثم سومرست).

سالزبري : ها هو الكبرياء بعينه يفتتح المسيرة ويتبعه التبجّح والتجبّر.

وبينما يعمل هؤلاء الرجال لأجل ارتقائهم، يجمل بنا أن نعمل نحن لصالح البلاد. لقد أبصرت على الدوام همفري دوق كلوسستر يتصرف كوجيه نبيل الأخلاق، لكني غالباً ما شاهدت الكردينال المتشامخ جندياً أكثر منه رجل دين، متعالياً مزدرياً، كأنّه سيّد مطلق يستبدّ بالجميع، ويحكم كأنه لصّ يسلك سبلاً لا تليق برئيس دولة. يا بنيَّ ورويك، أنت عزاء شيخوختي، وأنا أعتبر أن مآثرك المجيدة وصراحتك وفضائلك النزيهة، هي التي أكسبتك تقدير كافّة المسؤولين. وليس من أحد محبوباً نظيرك، ما عدا دوق همفري الكريم. أما أنت، يا أخي يورك، فإن أعمالك المشكورة في إيرلندا لاستتباب الأمن والنظام بين الناس، وإنجازاتك الباسلة الحديثة العهد في فرنسا، عندما كنت وصياً على مليكنا، جميعها تزيدك هيبة وشرفاً في عيون الشعب. فلنتّحدْ إذاً لأجل الخير العام، ولنتكاتفْ في جهادنا لردع كبرياء سوفولك والكردينال، والتصدّي لغطرستنا ولِلَجْم طمع سومرست وبوكنكهام. ولندعمْ بكل قوّتنا وسلطتنا تصرفات دوق همفري، ما دامت مساعيه تستهدف صالح البلاد.

ورْويك : ليكن الله في عوني، ما دمت أسعى لخير الأمة والوطن.

يورك (على حدة) : أنا أقول هذا القول أيضاً لأسباب وأهداف أهمّ.

سالزبري : هيا نستعجلْ ونبذلْ كل ما بوسعنا في هذا السبيل لخير الانسانية.

ورْويك : أنت تتكلم عن الانسانية! إنك تذكّرني، يا والدي، بمقاطعة ماين التي فقدناها والتي كان ورويك قد ضمّها الى أراضينا والتي ودّ أن يحافظ عليها ولو بذل آخر أنفاسه. أنت تتكلم عن خير الانسانية، يا أبي؟ بينما أنا أتكلم عن مقاطعة ماين التي سأنتزعها من فرنسا، ولو كلفني ذلك حياتي.

(يخرج ورويك ويتبعه سالزبري).

يورك : لقد سُلّمتْ مقاطعتا انجو وماين للفرنسيين، وضاعت باريس، ومصير مقاطعة نورمندي مربوط بخيط رفيع. ثم بعد كل هذه المصائب عقد سوفولك معاهدة، وجميع النبلاء وافقوا عليها. بينما هنري مغتبط بمبادلة دوقيّتين مقابل حسناء ابنة دوق. أنا لا يسعني أن ألومهم، إذْ ماذا يهمّهم كل ذلك؟ إنهم يبدّدون أموالك يا يورك، لا أرزاقهم. هكذا أتيح للقراصنة أن يستفيدوا من غنائمهم، وأن يستخدموها لشراء الأصدقاء، وأن يحصلوا على المحظيات، وأن يبذّروا أموالهم على الحفلات كما يفعل الأثرياء المسرفون، وفي هذه الأثناء ترى المالك الشرعي، السخيف، العاجز، يبكي ويندب كل هذه المقتنيات المفقودة ويتلوى من الألم ويهز رأسه يائساً ويقف مرتجفاً على انفراد. وهؤلاء الانتهازيّون يتقاسمون أمواله ويستأثرون بها بينما هو يدع نفسه جائعاً بدون أن يجسر على التدخّل أو على لمس درهم من رزقه. وهكذا يظل يورك هنا يكتوي بنار العذاب ويعضّ شفتيه أسفاً وحسرة، وهم يساومون ويبيعون ممتلكاته باستهتار. كأن ممالك انكلترا وفرنسا وايرلندا تستبدّ بلحمي ودمي كما فعل الهجران المشؤوم بالحسناء، « ألتيه » التي أهلكت نفسها على حساب قلب الأمير كاليدون. أجل، أُعْطيت مقاطعتا انجو وماين للفرنسيين. هذا النبأ يصعقني لأني وضعت كل اتكالي على فرنسا كما غرست كل ثقتي في تراب انكلترا الخصيب. سيأتي يوم أطالب فيه، أنا يورك، بأرزاقي وممتلكاتي. ولهذه الغاية سأنضمّ الى جماعة نافيل وأظهر ما يشبه العطف كي أحذّره من دوق همفري، ثم عندما أجد الظرف المناسب، سأطالب بالتاج لأنه الهدف الذهبي الذي أنوي الوصول اليه. كلا، هذا المتكبّر لنكاستر لن يغتصب مني حقوقي ولن يلمس الصولجان بيده، وهو الولد القاصر، ولن يحمل التاج

على رأسه أبداً ولن تظفر رغبته التقيّة بالعرش. إذاً لن يهدأ لي بال، أنا يورك، إلّا إذا سنحت لي الفرصة لإشباع نهمي الى العظمة والمجد. وفيما الآخرون يغطّون في نوم عميق، عليّ أنا أن أظلّ مستيقظاً حذراً حتى أستولي بغتة على مقدّرات الدولة. سأنتظر الى أن يسكَرَ هنري بخمرة الغرام مع عروسه، هذه الملكة الغريبة التي اشترتها له انكلترا بثمن باهظ، ويتخاصم بسببها دوق همفري وأترابه النبلاء. حينئذ سأرفع الوردة البيضاء بلون الثلج، وهي تعبق الجو بأريجها العطر، ثم أضيف على علمي شعار يورك كي أقاتل الى جانب آل لنكاستر وأجبر الملك بالقوة على التنازل لي عن عرشه، لأن سلطته الدينية قد أسقطت انكلترا.

المشهد الثاني

في قصر دوق كلوسستر

(يدخل دوق كلوسستر والدوقة).

الدوقة : لماذا أرى سيدي منحني الرأس كالسنبلة الناضجة الرازحة تحت وقر كابوس « ساريس » المرهق؟ لماذا يقطب دوق همفري القوي حاجبيه كأنه يحتقر أفراح هذه الدنيا؟ لماذا تحدق عيناك في بلايا هذا العالم كأن تأملاته تلفّ أنظاره بالظلام؟ ماذا أرى هنا؟ تاج الملك هنري تحيط به كل تشريفات العالم؟ فإذا صح هذا الأمر، عليك أن تسمّر عيونك فيه وتزحف على بطنك حتى يستقرّ على رأسك، وما عليك إلا أن تفتح يديك حتى تقبض على ذهب الأمجاد. ماذا أرى أيضاً! هل أمست ذراعك قصيرة؟ هيا صِلْها بذراعي،

وعندما نظفر كلانا ونستأثر بالعرش سنرفع معاً رأسنا نحو السماء، إذْ ذاك لن نخفض طرفنا حتى نثبّت أقدامنا على الأرض كما نشاء. كما نشاء.

كلوسستر : نلّي، عزيزتي نلّي، إذا كنتِ تحبّينني حقاً اطردي عنك الدودة الحقيرة التي تنخر أفكارك الطامحة. وحين تخامرك أية فكرة عداء نحو مليكي، إبن أخي هنري الفاضل، سألفظ آخر أنفاسي في هذه الدنيا الفانية. حقاً إن حلمي الدنيء يقض مضجعي هذه الليلة.

الدوقة : بماذا حلمت، يا سيدي؟ قل لي، وأنا بدوري أروي لك الحلم الذي أبصرته هذا الصباح.

كلوسستر : خيّل إليّ أن هذا العكّاز، وهو رمز سلطتي في البلاط، قد كُسِرَ وصار اثنين. من كسره؟ نسيت. لكني أظن أن الجاني هو الكردينال. وفي طرف أحد قسمَيْ العكّاز المكسور قد علّق رأس دوق سومرست، وفي طرف القسم الآخر رأس وليم بول دوق سوفولك. هذا كان حلمي الذي لا يعرف تفسيره إلّا الله وحده.

الدوقة : لا تهتمّ للأمر، ولا تغتمّ. هذا يعني أن من يكسر قضيباً من حديقة كلوسستر سيدفع رأسه ثمناً لاستهتاره. لكن، اسمع، يا عزيزي همفري. يُخيّل إليّ أن كنت جالسة على عرش مهيب في كنيسة وستمنستر الكبيرة، حيث يتربع الملوك عند تتويجهم مع ملكاتهم، وإذا بالملك هنري والسيدة مرغريت يركعان أمامي ويضعان التاج على رأسي.

كلوسستر : لا بد لي، يا أليونور، من أن أحنق لهذا كثيراً. يا لك من امرأة متعجرفة غريبة الأطوار! أولستِ السيدة الثانية في هذه المملكة وزوجة حامي البلاد الحبيبة؟ أولا تتمتعين حقاً بالحياة أكثر مما يتسنى لأفكارك أن تتصور وتتخيل؟ مع ذلك تميلين الى الخيانة لتُحرجي موقف زوجك وموقفك أيضاً بوضع

شرفه وشرفك معاً على حافة الهاوية والنبْذ والاحتقار. هيا ابتعدي عني ولا تدعيني أسمع بذكرك بعد الآن.

الدوقة : ما الفائدة، يا سيدي، من صبّ جام غضبك عليّ أنا زوجتك بسبب حلم رويته لك؟ من الآن وصاعداً، سأحتفظ بأحلامي لنفسي كي لا أستوجب تعنيفك.

كلوسستر : هيا لا تختفي. فقد هدأ روعي.

(يدخل الرسول).

الرسول : سيدي حامي المملكة، يسألك صاحب السموّ أن تستعدّ للذهاب الى سنْتلْبان حيث ينتظرك الملك والملكة لصيد الصقور.

كلوسستر : ها أنا ذاهب. هيّا، يا نلّي، ألا تريدين أن ترافقينا الى الصيد؟

الدوقة : أجل، يا سيدي الكريم، أنا لاحقة بكم. (يخرج كلوسستر والرسول). من واجبي أن أتبعهم. إنما لا يسعني أن أكون الأولى في الذهاب، ما دام كلوسستر بهذا المزاج الوضيع المبتذل. لو كنت رجلاً ودوقاً، وأرفع أمير في مثل مقامه، لكنت أزحت من دربي جميع هذه العقبات السخيفة، ولكنت مشيت على رؤوسهم المقطوعة المجندلة على الأرض. لكني، وإن أكن امرأة، لن أتردد في القيام بدوري في معرض الحظوظ والإمكانات. فأين أنت إذاً يا سير جون؟ لا تخفْ، يا صديقي. نحن وحدنا، وليس هنا سوانا نحن الأثنين.

(يدخل هيوم).

هيوم : حفظ الله مقامكِ الملكي الرفيع.

الدوقة : ماذا تقول؟ مقامي الملكي، وأنا لست سوى أميرة.

هيوم : بفضل رعاية المولى، ونصائحي أنا هيوم الوفيّ، ستزداد مكانتك رفعة.

الدوقة : ماذا تقول يا صديقي؟ هل تحدثت الى مرْجُري جورْدن الساحرة الداهية، وروجر بولنْبروك الساحر المحتال؟ هل يريدان أن يخدماني؟

هيوم : لقد وعدا بأن يُرِياكِ روحاً يُستحضر من أعماق العالم السفلي لتجيب على جميع أسئلتك يا سيدتي.

الدوقة : هذا يكفي. سأفكر بالأسئلة، وعندما نعود من سنْتلْبان سنحدّد الأمور التي نودّ تنفيذها. هيا يا هيوم، اقبل هذه المكافأة. اذهب الآن للتلهّي مع شركائك بهذه القضية الخطيرة.

(تخرج الدوقة).

هيوم : لا بدّ لي من أن أتسلّى بذهب الدوقة. وهذا ما سأفعله بصفتي سير جون هيوم. فما عليّ إلا أن أغلق فمي ولا أنبس ببنت شفة. لأن المسألة تتطلب الصمت الكامل والسريّة المطلقة. فالدوقة أليونور تجود عليّ بالذهب لآتيها بالساحرة، وإن كانت الشيطان بعينه، سأرحّب بذهبها أجمل الترحيب. على كل حال، أرى الذهب يتدفّق عليّ أيضاً من ناحية أخرى، ولا أجرؤ على البوح بأنه يأتيني من جهة الكردينال الغني ومن سوفولك الكبير الذي أصبح دوقاً منذ عهد قريب. مع ذلك أنا واثق من ذلك. لأني في الحقيقة أعرف ما تنطوي عليه السيدة أليونور من مزاج جامح. أنا أقبض المال لكي أحمّس الدوقة وأحشو دماغها بكل هذه الحماقات. يقال إن الثعلب المحتال لا يحتاج الى التدريب على الخداع، إنما إذا لم أكن حذراً لن أتمكن من السيطرة على هذين الخبيثين للوصول الى مأربي. في الواقع هذا هو حالي معهما، ولا أخشى أن تكون دسائسي أنا هيوم المراوغ مصدر توريط الدوقة وهلاكها الذي سيتبعه سقوط همفري أيضاً. ولتأتنا

الأيام بما هي حبلى به، ما دمتُ أجمع الذهب الذي أتوق الى الحصول على الكثير منه.

(يخرج).

المشهد الثالث

في قصر الملك.

(يدخل بطرس وأشخاص غيره حاملين معاريض).

المستدعي الأول : يا سادتي، لنكنْ مستعدين، فمولاي حامي المملكة سيحضر عمّا قريب الى هنا، ويتسنى لنا حينئذٍ أن نقدم عرائضنا حسب الأصول.

المستدعي الثاني : لعمري، حرس الله مولاي، لأنه رجل طيب القلب.

المستدعي الأول : ها هو آتٍ، على ما أظن، وتصحبه الملكة. سأكون أوّل من يقابله طبعاً.

(يدخل سوفولك ومعه الملكة مرغريت).

المستدعي الثاني : عد الى مكانك، يا غبي. هذا هو دوق سوفولك وليس اللورد حامي المملكة.

سوفولك : يا صاحبي، ماذا تريد مني؟

المستدعي الأول : العفو، يا مولاي، ظننتك اللورد حامي المملكة.

الملكة مرغريت (تقرأ العنوان) : الى اللورد حامي المملكة. معاريضكم موجّهة اذاً الى سيادته. هيا نُلْقِ عليها نظرة. أي معروض يخصك؟

المستدعي الأول : إن معروضي، إذا أمرتِ، يا سيدتي، هو شكوى على حنّا بونوم، رجل مولاي الكردينال، الذي يحتجز بيتي وأرضي وزوجتي وكل ما أملك.

سوفولك : زوجتك أيضاً؟ هذا لا يطاق طبعاً. وأنت، ماذا تريد؟ ماذا أرى هنا؟ (يقرأ) : شكوى على دوق سوفولك لأنه احتجز أرزاق ملْفور. ماذا تقصد أن تقول يا مغفّل؟

المستدعي الثاني : واأسفاه! يا سيدي، أنا لست سوى حامل المعروض الذي يخص كل مدينتنا.

بطرس (يقدم معروضه) : هذه شكوى على معلمي توماس هورْنر، لأنه قال إن دوق يورك هو الوريث الشرعي للتاج.

الملكة مرغريت : ماذا تدّعي هنا؟ هل قال دوق يورك إنه الوريث الشرعي للتاج؟

بطرس : هل كان معلمي وريثاً؟ كلا، ثم كلا، وحق السماء. إن معلمي هو الذي صرّح بذلك وقال إن الملك ليس سوى مغتصب.

سوفولك : مَنْ القادم الى هنا؟

(يدخل بعض الخدم).

خذوا هذا الرجل، وارسلوا الى معلمه من يلاحقه. وسنوضح القضية للملك.

(يخرج الخدم مع بطرس).

الملكة مرغريت : أما أنتم الذين تبحثون عن الاحتماء تحت أجنحة صاحب السيادة حامي المملكة، فأعيدوا كتابة معاريضكم وقدّموها له (تُمزِّق المعاريض). الى الوراء أيها الأوغاد. أسألك، يا سوفولك، أن تحملهم على الانصراف عنا.

الجميع : هيا نذهب.

(يخرج المستدعون).

الملكة مرغريت : يا مولاي سوفولك، قل لي هل هذه العادة هنا؟ هل هذه

هي الطريقة المتّبعة في بلاط انكلترا؟ هل هذه هي حكومة جزيرة بريطانيا؟ هل هذه هي أمبراطورية الملك ألبيون؟ ما هذا؟ هل سيظلّ الملك هنري، كتلميذ قاصر دائماً تحت وصاية كلوسستر المتسلّط؟ وهل أنا ملكة بالاسم واللقب فقط، وعليّ أن أكون تابعة للدوق؟ أنا أصرح لك يا بول، عندما كسرت أنت رمحاً في مدينة تور، إكراماً لحبيبي، وقد سحرتَ قلوب سيدات فرنسا، ظننت أنا ان هنري يشبهك بالشجاعة واللياقة والأناقة. غير أن روحه غير مشغول بسوى التقوى والصلاة، وأبطاله هم الرسل والأنبياء، وأسلحته هي شفاعات القديسين وآيات الكتاب المقدس، ومكتبه هو العربة، وحبه مكرّس للأيقونات البرونزية التي تمثل الأولياء الأطهار. فكم أتمنى أن ينتخبه مجمع الكرادلة بابا ويأتوا به الى روما، فيكلّل رأسه بالتاج المثلث الطبقات. هذا حقاً ما هو أهل له صاحب القداسة الكردينال.

سوفولك : جداً، يا سيدتي، إن كنت سبب مجيء سموّكِ الى انكلترا، سأبذل ما بوسعي لأجعل سيادتك تنعمين بملء الرضى.

الملكة مرغريت : ما عدا حامي المملكة المتشامخ، لدينا بوفور، رجل الدين المستبدّ، وسومرست وبوكنكهام والحارد يورك، وأقلّهم نفوذاً، نرى هيمنته في انكلترا أقوى من سلطة الملك عينه.

سوفولك : وأقدرهم هنا، ليس صاحب سلطان أقوى في انكلترا من أسرة نافيل، ثم أن سالزبري وورويك ليسا نبيلين بسيطين.

الملكة مرغريت : كل هؤلاء اللوردات مجتمعين لا يغيظونني تقريباً بمقدار هذه المتعجرفة زوجة اللورد حامي المملكة التي تراها تتهادى في موكب سيدات البلاط كأنها أمبراطورة، لا زوجة دوق همفري. فيظن الغرباء أنها هي الملكة، وهي تحمل على ظهرها واردات دوقيّة برمّتها وفي سرّها تهين فقرنا وتحتقرنا. فهل سأقضي حياتي كلها بدون أن يتسنى لي الانتقام من

هذه المخلوقة الزريّة الدنيئة؟ تبًّا لها من متكبرة كانت تتبجّح في ذلك اليوم، وسط المعجبين بها، بأن ذيل أحقر أثوابها يساوي أكثر من جميع أرزاق والدها قبل أن يعطي دوقيّتين لابنته.

سوفولك : يا سيدتي، أنا بذاتي قد طليت بالدبق زجاجات بعض المشروبات ووضعت حولها سرباً من العصافير الفاتنة بشكل يجعلها تعلق لتستمع الى أناشيدها، ولا تعود الى انطلاقها الذي يزعجك. لذلك أرجو أن لا تهتمّي بها بعد الآن. اصغي إليّ يا سيدتي، إذ أسمح لنفسي بأن أقدم لك بعض النصح. فنحن مهما كرهنا الكردينال، علينا أن نحالفه ونحالف اللوردات الى أن نطيح بدوق همفري ونُفقده مكانته. أما دوق يورك فإن الشكوى المقدّمة لا تفيده البتّة. وهكذا نكون قد بقرنا بطن هذا وذاك، ونكون قد سلّمناك أخيراً دفّة المركب السعيد لتوصله الى شاطئ السلامة.

(يدخل الملك هنري ويورك وسومرست وهم يتحدثون، وكذلك دوق ودوقة كلوسستر والكردينال بوفور، وبوكنكهام وسالزبري وورويك).

الملك هنري : من يقف الى جانبي، أيها اللوردات، أنا لا فرق لديّ إن كان الوصي سومرست أو يورك فكلاهما في مستوى واحد.

يورك : إن كنت قد أسأت التصرف في فرنسا، فلأُحْرَمْ من الوصاية.

سومرست : وإذا لم أكن أنا كفئاً لشغل هذا المنصب، فليتولاه يورك، وأنا أتنازل له عنه راضياً.

ورويك : إن كنت أهلاً أو لا، يا صاحب السيادة، ليست هذه هي المشكلة، لأنّ يورك هو الأولى بها.

الكردينال : يا ورويك الطموح، اترك رؤساءك يتكلمون.

ورويك : ليس الكردينال رئيسي في ساحة المعركة.

بوكنكهام : الجميع هنا هم رؤساؤك، يا ورويك.

وورويك : أنا وورويك، بوسعي أن أحيا طويلاً لأكون رئيسكم جميعاً.

سالزبري : هدّئوا روعكم، يا أولادي. وأنت يا بوكنكهام، قل لي لأي سبب يتحتم على سومرست أن تكون له الأفضلية في هذا المجال؟

الملكة مرغريت : لأن الملك يريد ذلك.

كلوسستر : الملك في سن تخوّله اتخاذ قراراته بذاته، يا مولاتي، وهذا الأمر لا دخل فيه للسيدات.

الملكة مرغريت : إن كان الملك في مثل هذا العمر، فما الداعي لأن تكون سيادتك حامي جلالته؟

كلوسستر : أنا حامي المملكة، يا سيدتي. فإذا كانت هذه رغبة الملك كما تقولين، فأنا على أتمّ الاستعداد للتنازل عن منصبي.

سوفولك : تنازل إذاً، وأرِحْنا من وقاحتك. فمنذ أن أصبحت أنت في مقام الملك، إذْ لا أحد يملك غيرك، فإن المصلحة العامة تتدهور كل يوم وتقترب من الهاوية. فوليّ العهد قد انتصر في ما وراء البحار، وجميع نبلاء المملكة ووجهائها قد شبعوا من تسلّطكم.

الكردينال : لقد عصرتَ الواردات، ففرغتْ خزينة رجال الدين ونضبتْ من جراء ما تستجرّه من أموال طائلة.

سومرست : إن قصورك الفخمة وزينة زوجتك وحدها قد كلّفت الخزينة العامة مبالغ خيالية.

بوكنكهام : وأنت قد بالغت بشراسة ما نفّذت من جرائمك ودست جميع القوانين، حتى أصبحت أنت ذاتك تحت رحمة القانون.

الملكة مرغريت : إن تجاوزاتك في الوظيفة وفي مدن فرنسا، إن صحّت شكوكنا في تصرّفاتك، هي كافية وافية لدحرجة رأسك عن كتفيك (يخرج كلوسستر، وتدع الملكة مروحتها تسقط من يدها). أرجوك أن تناولني مروحتي. (لدوقة كلوسستر) وأنت أيتها

الحسناء، ألا يمكنك أن تعطيني إياها؟ (تصفع الدوقة) استميحك العذر، يا سيدتي، أأنت فعلت ذلك؟

الدوقة : أنا؟ أجل أنا، أيتها الفرنسية المتشامخة. لو أمكنني أن أشوّه جمالك بأظافري لما تأخّرت عن فرض مشيئتي عليك.

الملك هنري : يا امرأة عمي العزيزة، هدئي روعك. لقد تفوّهت بذلك عن غير قصد.

الدوقة : عن غير قصد! أيها الملك السموح، إحذرْها قبل فوات الأوان. فهي لن تحجم عن المراوغة وعن خداعك كأنك طفل صغير. ولو كان لسيد هذا المكان الهيبة اللازمة لما تمكنت السيدة اليونور من أن تضرب بدون أن تخشى أية عاقبة.

(تخرج الدوقة).

(يدخل كلوسستر).

كلوسستر : والآن، أيها اللوردات، وقد هدأت ثورة غضبي من جراء النزهة التي قمت بها في الحديقة المربعة الزوايا، جئت لأبحث بأمور الدولة. أما شكواكم الكاذبة البغيضة فعليكم أن تثبتوا صحتها كي أفصل فيها بالعدل والقسطاس. إنما أرجو من الله أن يشفق على نفسي بقدر ما أبذله من الاخلاص في سبيل مليكي وبلادي. لنعدْ الى القضية التي تشغل بالنا. أقول، يا صاحب الجلالة، ان يورك هو أولى رجل يستحق أن يكون الوصي على مملكة فرنسا.

سوفولك : قبل اتخاذ أي قرار، اسمح لي أن أبيّن لك الأسباب الوجيهة التي تجعل يورك أهلاً لهذا المقام الرفيع.

يورك : سأقول لك يا سوفولك لماذا أنا أستحق ذلك. أولاً لأني لا أعرف تمليق غرورك، ثم إن عُيِّنت في هذا المنصب، سيتركني مولاي سومرست هناك بدون امدادات ولا مال ولا ذخيرة الى أن تسقط فرنسا ثانية في يد وليّ العهد.

في المرة الأخيرة جعلتني أهواؤه أنتظر العون بفارغ الصبر الى أن طُوِّقتْ باريس وحُوصرَتْ وجُوِّعَتْ وفُقدَتْ أخيراً.

وورويك : أنا شاهد على صحة هذا الكلام، وليس من خائن ارتكب جريمة نكراء كهذه بحق بلاده.

سوفولك : اصمت يا وورويك الوقح.

وورويك : لماذا تريدني أن أسكت، يا وجه النحس المتعجرف.

(يدخل سوفولك، آتياً بهورنر وبطرس).

سوفولك : لأن هذا الرجل متهم بالخيانة. أجل، لذلك يريد دوق يورك أن يبرر نفسه ويبرّئ ساحته.

يورك : هل أُتهم، أنا يورك، بالخيانة؟

الملك هنري : ماذا تقصد أن تقول، يا سوفولك؟ تكلمْ. من هم هؤلاء الرجال؟

سوفولك : من تشملهم بأنظارك ورعايتك، يا صاحب الجلالة. هذا الرجل يتهم سيده بالخيانة العظمى، وهو الذي قال إن ريشار، دوق يورك، هو الوريث الشرعي لعرش انكلترا، وإن جلالتك مغتصب محتال.

الملك هنري (لهورنر) : تكلم يا صديقي. هل حقاً قلت ذلك؟

هورنر : أقسم برعايتك، وأؤكد أني لم أقل ولم أفكر حتى بمثل هذا الكلام. والله شاهد على صدق ما أقول، وعلى أن هذا الشقي يتهمني زوراً وبهتاناً.

بطرس (يرفع يديه) : بحياة هذه الأنامل العشر، يا مولاي، هو قال لي ذلك في الأهراء ذات مساء ونحن ننظّف درع سيدي يورك.

يورك : أيها الوغد الحقير، والمحتال الدنيء سأقطع رأسك لمجرد تفوّهك بهذا القول الذي يبرهن على خيانتك. سأطبّق بحقه، يا صاحب الجلالة، كل العقوبات الصارمة التي تنصّ عليها القوانين.

هورنر : يا للأسف، يا مولاي، أنا أرضى بشنقي إن تكلمت هكذا. إن من يتهمني هو أجيري الذي قاصصته من مدة قصيرة على ذنب ارتكبه. فأقسم لي وهو راكع على ركبتيه بأنه تاب، ولديّ شهود على هذا الحديث. لذلك أستحلفك، يا صاحب الجلالة، أن لا تفقد رجلاً شهماً شريفاً لمجرد اتهام ناجم عن خسيس حقود.

الملك هنري : يا عماه، ماذا يملي علينا العدل في هذه القضية من قرار؟

كلوسستر : إن هذا الحكم، يا مولاي، إن استطعت أن أعلنه، هو أن يُعيّن سومرست وصياً على عرش فرنسا، لأن هذا التدبير يضع يورك في موضع الريبة. فإن هذا الرجل لديه شهود على سوء نية خادمه. هذا ما ينص عليه القانون وهذا هو قرار دوق همفري.

الملك هنري : فليكن إذاً ما تريد. أما أنت، يا مولاي سومرست، فإني أعيّن سيادتك وصياً على عرش فرنسا.

سومرست : أشكرك بكل تواضع، يا صاحب الجلالة.

هورنر : وأنا أقبل القتال بكل امتنان.

بطرس : يؤسفني أن أعلمك، يا مولاي، اني لا أستطيع القتال. فبحق السماء، أرجوك أن ترثي لحالي، لأني ضحية حقد رجل ظالم. ليكن الله في عوني. فأنا لا أقوى على تسديد أية ضربة الى أحد. يا إلهي! آه، قلبي!

كلوسستر : يا محتال، عليك أن تقاتل وإلّا كان نصيبك الشنق.

الملك هنري : خذوهما كليهما الى السجن. أما موعد القتال فهو آخر يوم من الشهر القادم. تعالَ، يا سومرست، نعلن أنك راحل.

(يخرجان).

المشهد الرابع

في حديقة مجاورة لقصر دوق كلوسستر.

(تدحل مرْجُري جوردن وهيوم وساوثْويل وبولنْبروك).

هيوم : تعالوا، يا سادتي، فالدوقة كما قلت تنتظر تحقيق وعودكم.

بولنبروك : يا سيدي هيوم، نحن كلنا على أتمّ الاستعداد. فهل تريد سيادتك أن ترى وتسمع تمتمة تعاويذنا؟

هيوم : أجل، لماذا لا؟ لا تشكّوا بشجاعته.

بولنبروك : لقد سمعته يحكي نظير امرأة لا تُقهر قواها. إنما من الأفضل، يا سيدي هيوم، أن توافيه هناك في المرتفع بينما نكون نحن منشغلين ها هنا في الأسفل. وعلى هذا الأساس أرجوكم أن تذهبوا وتدعونا وشأننا. (يخرج هيوم) يا أمّ جوردن، انبطحي أرضاً. وأنت يا جون ساوثْويل اقرأ. ولنبدأ عملنا جدّيًّا. (تظهر الدوقة في إحدى النوافذ).

الدوقة : هذا جميل جداً يا سادة. أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم جميعاً. الى العمل بأسرع ما يمكن وعلى أفضل طريقة.

بولنبروك : صبراً، يا سيدتي الكريمة. السحرة يعرفون موعدهم في ظلام الليل الحالك السواد وسط الصمت التام، في الليل الدامس الذي اشتعلت أثناءه طروادة بألسنة اللهيب، فعَلا نعيب البوم ونباح كلاب الحراسة، وأخذت الأرواح تجول والأشباح تخرج من قبورها حائمة حول البشر، في ذلك الحين بالضبط يتسنى لنا أن نقوم بعملنا على أكمل وجه. إجلسي، يا سيدتي، ولا تخشي أي أمر، فإن من نستحضره سنحيطه بحلقة مباركة.

(هنا يقومون بالمراسم المعتادة ويرسمون الحلقة، ويقرأ بولنبروك أو ساوثويل نص التعويذة. فتحدث بروق ورعود مريعة، وينهض الروح).

الروح : أطشم.

مرجري جوردن : يا هذا، أستحلفك باسم الله وجبروته الذي يجعلك ترتجف، أن تجيب على أسئلتي، لأنك لن تغادر هذا المكان قبل أن تنطق بما نريد.

الروح : اطلبي ما تشائين، فتريني طوع بنانك تكلمت ونفّذت.

بولنبروك (يقرأ) : أولاً ما هو مصير الملك؟

الروح : الدوق الذي سيخلع هنري لا يزال حياً. وسيعيش بغده ويموت أشنع الميتات وأعنفها.

(وفيما الروح يتكلم، يسجّل ساوثويل الأجوبة).

بولنبروك : ما هو مصير دوق سوفولك؟

الروح : سيغرق في الماء ويلاقي حتفه.

بولنبروك : وماذا يحل بدوق سومرست؟

الروح : عليه أن يتجنب العيش في القصور، إذ يكون على السهول المرملة في مأمن أكثر من البقعة التي تقوم عليها القصور. كفى، لأني لم أعد أطيق المزيد.

بولنبروك : انزل الى ظلمات العالم السفلي والى البحيرة الملتهبة بنار متأججة. اختفِ أيها الشيطان الرجيم.

(تحدث بروق ورعود ويغيب الروح).

(يدخل يورك وبوكنكهام بعجلة، يتبعهما حرسهما وغيرهم من الناس).

يورك : اقبضوا على هؤلاء الخونة وخلّصونا من خزعبلاتهم. أظن أننا راقبناكِ عن كثب أيتها العجوز الشمطاء. ماذا أرى؟ أنتِ هنا يا مولاتي. إن الملك والدولة مدينان لك بسبب تحملك كل هذه المشقات. لا شك في أن مولاي حامي المملكة ساهر على إجزال العطاء لك مكافأةً على أعمالك المفيدة هذه.

الدوقة : إنها غير مؤذية بمقدار أفعالكَ القبيحة، أيها الدوق الوقح.

بحق ملك انكلترا، وما تهدده به بدون سبب.

بوكنكهام (يريه الأوراق) : فعلاً، يا سيدتي، بدون أي سبب، ما تسمّين هذا؟ خذوا هؤلاء الأشخاص وزجوهم في مكان حريز واحجزوهم منفردين. وأنتِ يا سيدتي، ستأتين معنا. ضعها يا سوفولك تحت حراستك. (تنسحب الدوقة عبر النافذة). سنتفحص جيداً جميع بضاعتك الرخيصة هذه. اذهبوا جميعكم

(ينسحب الحرس وهم يقتادون ساوثويل وبولنبروك وغيرهم).

يورك : يا لورد بوكنكهام، لقد راقبتها جيداً كما رأيت. هذه مؤامرة كاملة التخطيط. والآن يا مولاي، أرجوك أن ترى كتابة الشيطان. ما هذا؟ (يقرأ) الدوق الذي سيخلع هنري لا يزال حياً، وسيعيش بعده ويموت أشنع الميتات وأعنفها. هذا صحيح نظير شعر شيشرون القائل : « إنك تستطيع الانتصار على الرومان ». فلنقرأ البقية : ما هو مصير دوق سوفولك؟ سيغرق في الماء ويلاقي حتفه. وماذا يحل بدوق سومرست؟ عليه أن يتجنب العيش في القصور، إذ يكون على السهول المرملة في مأمن أكثر من البقعة التي تقوم عليها القصور. هيا، هيا، يا مولاي، لقد كلفنا الحصول على هذه النبوءة مشقّات وافرة. الملك الآن في طريقه الى سنْتلْبان يرافقه زوج هذه السيدة اللطيفة. أذيعوا أخباره هناك بأسرع ما يمكن. فالغداء كئيب أمام مولاي حامي المملكة.

بوكنكهام : هل تسمح لي، يا مولاي يورك، أن أكون رسولك لكي أنال منه المكافأة؟

يورك : كما تشاء، يا مولاي العزيز. لكن من الآتي الى هنا؟

(يدخل أحد الخدم).

ادعوا اللوردين سالزبري وورويك الى العشاء معي مساء الغد. هيا، الى السير. (يخرج الجميع).

الفصل الثاني

المشهد الأول

في بلدة سنتلْبان

(يدخل الملك هنري والملكة ومرغريت وكلوسستر والكردينال بوفور وسوفولك يتبعهم حَمَلَة الصقور).

الملكة مرغريت : صدقني، يا مولاي، إن هذه المطاردة لدجاجات الماء هي أروع ما شاهدته من تسليات منذ سبعة أعوام. مع ذلك كان الهواء شديد البرودة وكان علينا أن نراهن على عشرة مقابل واحد بأن صقر الملك لم يكن على استعداد للانطلاق.

الملك هنري (لكلوسستر) : ماذا فعل صقرك، يا مولاي، وعلى أي علوّ حلق فوق الآخرين؟ انظر صنع الله في جميع مخلوقاته. فالانسان والطير كلاهما يتوقان الى الصعود.

سوفولك : لا أقصد أبداً مضايقة جلالتك، إن قلت أني لا أستغرب ان ترتفع صقور مولاي حامي المملكة هكذا عالياً لأنها تعلم جيداً أن صاحبها يحب الشموخ وهو يحلّق بالفكر أكثر من الصقر الطائر.

كلوسستر : الانسان الذي لا يحلّق أكثر من العصفور يكون خسيساً دنيئاً، يا مولاي.

الكردينال : هذا ما أعتقد به أنا أيضاً، اذ عليه أن يكون أعلى من الغمام.

كلوسستر : ماذا تقصد بهذا الكلام، يا سيدي الكردينال؟ ألا تجد سيادتك صالحاً أن يصعد الانسان يوماً الى السماء؟

الملك هنري : حيث كنوز الأفراح الدائمة.

الكردينال (لكلوسستر) : سماؤك أنت هي على الأرض. فأنظارك وأفكارك متّجهة نحو تاج يبهج القلب، يا حامي المملكة المخاتل، أيها النبيل الخطر الذي يداعب هكذا الملك والشعب لأجل تحقيق مآربه.

كلوسستر : لا، هذا كثير، أيها الكردينال. لقد أصبحت نيّتك مفضوحة لا سيما أنها صادرة عن رجل دين نظيرك هكذا عنيف. يا عمي المفضال، عليك أن تخفي خباثتك التي لا تليق بمقامك الرفيع.

سوفولك : لا خبث أبداً هنا، يا سيدي، أكثر مما يستوجبه شجار في محله مع نبيل سيء الطبع مثلك.

كلوسستر : من تعني، يا مولاي؟

سوفولك : أعنيك أنت، يا مولاي حامي المملكة المتغطرس.

كلوسستر : لا أستغرب منك هذه اللهجة، فان انكلترا بأجمعها تعرف وقاحتك.

الملكة مرغريت : أين تذهب بطموحك وكبريائك، يا كلوسستر؟

الملك هنري : هدئي روعك يا سيدتي الملكة الفاضلة. لا تحمّي اوار المعركة بين هذين النبيلين. لأن ابن الحلال من يوفّق بين الناس ولا يفرّق.

الكردينال : انا اذاً ابن حلال، لأني أريد دوام السلم مع حامي المملكة، هذا المتجبّر، انما أفرض هذا السلم بحدّ السيف.

كلوسستر (بصوت خافت للكردينال) : في الحقيقة يا عمي القديس، لم تبلغ بنا الأمور هذا الحدّ.

الكردينال (بصوت خافت للدوق) : ما عليك إلّا أن تجسر وتنفّذ وعيدك.
كلوسستر (بصوت خافت للكردينال) : في هذه القضية، لا تُحمّس قوماً من الدجّالين المنافقين. ردّ أنت بنفسك على هذه الاهانات والتطاولات.
الكردينال (بصوت خافت للدوق) : أجل، انما أنت لست أهلاً للردّ، وان كنت كذلك، فكل أملي أن لا تتأخر هذا المساء عن الحضور الى طرف الغابة الشرقي.
كلوسستر (للكردينال بصوت خافت) : أنا بانتظارك، أيها الكردينال المتبجّح.
الملك هنري : ما هذا، يا عمي كلوسستر؟
كلوسستر : كنا نتحدث عن الصقور، وهذا كل ما في الأمر، يا مولاي. (للكردينال بصوت خافت) والله، أيها الكردينال، سأوسّع صلعتك، أو تضيع مهارتي في امتشاق الحسام سدًى.
الكردينال (للدوق بصوت خافت) : أيها الطبيب عالج نفسك، ويا حامي المملكة إحفظ رأسك.
الملك هنري : ها قد اشتدت الرياح، وكذلك غضبكما، يا سيديَّ. أملي أن تضعا حدًّا لهذه المهاترة التي يضيق بها صدري. عندما أسمع أوتار حنجرتكما ترسل أصواتاً نشاذاً كهذه، أنّى لي أن آمل بسماع لحن جميل؟ أرجوكما، يا سيديَّ، أن تكفّا عن هذا النزاع وتعملا على ازالة كل خلاف بينكما.

(يدخل أحد سكان سنتلبان وهو يصرخ : معجزة، معجزة).

كلوسستر : ما معنى هذا الضجيج؟ أية معجزة تعني، يا صديقي؟
أحد السكان : معجزة، معجزة، معجزة.
سوفولك : اقترب من الملك، وقل له ما هي هذه المعجزة؟
أحد السكان : أعمى قد استردّ بصره عند زيارته رفات القديس ألبان، منذ أقل من نصف ساعة. أعمى لم يرَ النور منذ ولادته.

الملك هنري : الحمد لله الذي يمنح النفوس المؤمنة نوراً يبدّد الظلمات، وتعزية تتغلب على القنوط.

(يدخل محافظ سنتلْبان وزملاؤه، ثم سمْكوكس على مقعد يحمله شخصان وتتبعه زوجته وجمهور من الناس).

الكردينال : ها هم أهالي المدينة مقبلين في موكب لتقديم الرجل الى جلالتك.

الملك هنري : عظيم هو عزاؤه على هذه الأرض، مع أن بصره سيسهّل له تكاثر ذنوبه.

كلوسستر : اقتربوا يا سادة، واجلبوه الى جانب الملك الذي يسرّه أن يتحدث اليه.

الملك هنري : أيها الرجل الصالح، اخبرنا بالأمر مفصّلاً حتى يتسنى لنا أن نمجد الله. هل صحيح أنك كنت فاقد البصر منذ زمن طويل، وأنك الآن شفيت؟

سمكوكس : لقد وُلدتُ أعمى، يا مولاي.

الزوجة : انا زوجته، يا مولاي.

كلوسستر : لو كنت والدته، لتكلمتِ بسلطة أقوى.

الملك هنري (لسمكوكس) : أين ولدت؟

سمكوكس : في برويك، شمالي البلاد، يا مولاي.

الملك هنري : مسكين! لقد شملك الله بواسع رحمته، فلا تدع نهاراً ولا ليلاً بدون أن تحمده وتمجده وتذكر ما غمرك به من نعمة.

الملكة مرغريت : قل لي، أيها الرجل الصالح، هل أتيت الى سنتلْبان بدافع التقوى أو قادتك الصدفة الى هنا؟

سمكوكس : قادتني الصدفة؟ يعلم الله، يا مولاي. لقد هتف بي هاتف مئة مرة أثناء نومي كي أذهب الى القديس ألبان الذي كان يقول لي : « تعالَ اليّ، يا سمكوكس، تعال وزُرْ رفاتي، وأنا أشفيك.

الزوجة : أؤكد لكم، أن هذه هي عين الحقيقة، فكم وكم من مرة سمعت هذا الصوت يناديه هكذا.

الكردينال : ماذا أرى؟ هل أنت أعرج؟

سمكوكس : أجل، يا مولاي. وألتمس العون من كرم الله.

سوفولك : وكيف صرت أعرج؟

سمكوكس : لقد سقطت من أعلى شجرة.

الزوجة : شجرة خوخ، يا مولاي.

كلوسستر : كم مرّ عليك من الوقت وأنت أعمى؟

سمكوكس : كنت على تلك الحالة منذ ولادتي، يا مولاي.

كلوسستر : وتسلقت الشجرة وأنت كذلك؟

سمكوكس : تلك كانت المرة الوحيدة في حياتي، يوم كنت في أول شبابي.

الزوجة : هذا صحيح، ولقد دفع غالياً ثمن صعوده هذا.

كلوسستر : لا بدّ أنك تحب الخوخ كثيراً لتقوم بهذه المغامرة.

سمكوكس : مع الأسف الشديد، يا مولاي، كانت زوجتي تشتهي أكل الخوخ فحمّستني على التسلق والمخاطرة بحياتي.

كلوسستر : تبًّا لكَ من منافق محتال. لكن هذا كله لا يفيدنا. دعني أتفحص عينيك. أغمضهما الآن. والآن افتحْهما. على ما أرى، أنت لا تبصر بعد بكلٍ وضوح.

سمكوكس : لا، لا، يا مولاي. أنا أبصر جيداً بفضله تعالى وفضل القديس ألبان.

كلوسستر : أتظن ذلك؟ ما لون معطفي هذا؟

سمكوكس : أحمر، يا مولاي، أحمر مثل الدم.

كلوسستر : أجل، هذا صحيح. وما لون ثوبي؟

سمكوكس : اسود، أي وربي، أسود كالفحم.

الزوجة : هو لم يرَ هذه الأشياء في حياته قبل اليوم.

كلوسستر : قل لي يا محتال، ما هو اسمي؟

سمكوكس : مع الأسف الشديد، لا أعرفه، يا سيدي.

كلوسستر (يشير الى أحد المحيطين به) : ما اسم هذا الانسان؟

سمكوكس : لست أدري.

كلوسستر (مشيراً الى غيره) : وما اسم هذا الآخر؟

سمكوكس : لا أعرف، يا مولاي.

كلوسستر : ما اسمك أنت؟

سمكوكس : سنْدر سمكوكس، يا مولاي.

كلوسستر : هذا يكفي، يا سنْدر. أنت أكبر كذّاب غشّاش في الكون يا قليل الحياء. لو كنت وُلدت أعمى، لسهل عليك أن تعرف أسماءنا جميعاً، وأن تعرف مختلف ألوان ملابسنا. النظر يميّز الألوان، انما تعدادها كلها هكذا بغتةً لهو أمر مستحيل. يا سادتي، لقد صنع القديس ألبان هنا معجزة. لكن لا تفكّروا بأن تمكُّن هذا المشوّه من الوقوف على قدميه مسألة عجيبة.

سمكوكس : لماذا لا تصدقني، يا سيدي؟

كلوسستر : يا سادتي سكان سنتلبان، ألا يوجد رجال شرطة في مدينتكم، أو ما يُسمّى سوطاً؟

المحافظ : أجل، يا مولاي، يوجد.

كلوسستر : أرسلوا اذاً في طلب بعض رجال الشرطة على الفور.

المحافظ : اذهب، يا مغفل، وأئتني حالاً بأحد رجال الشرطة.

(يخرج أحد رجال الحاشية).

كلوسستر : ليذهب أحدكم ويأتني بمقعد. (يؤتى بمقعد) والآن، يا غبي، اذا أردت أن تنجو من السوط عليك أن تقفز من فوق هذا المقعد وتنطلق.

سمكوكس : آسف، يا سيدي، ان لا أستطيع الوقوف على رجليّ. فأرجوك أن لا تعذبني بدون فائدة.

(يعود رجل الحاشية بصحبة شرطي).

كلوسستر : اذاً أنا سأرد الحركة الى ساقيك. يا صديقي الشرطي، أضربه بالسوط حتى يقفز من فوق المقعد.

الشرطي : امرك مطاع، يا مولاي. تقدّم، أيها المحتال، وعجّل بتنفيذ ما أُمرتَ به.

سمكوكس : آسف، يا سيدي، ان لا أستطيع ذلك. أؤكد لكم أني لا أتمكّن من الوقوف على قدميّ.

(بعد أول ضربة سوط، يقفز فوق المقعد ويهرب، فيتبعه الجمهور صارخاً : معجزة، معجزة).

الملك هنري : يا الهي، أنت ترى ذلك وتغض النظر عنه!

الملكة مرغريت : لقد أضحكني منظر هذا المنافق وهو يقفز.

كلوسستر : طاردوا هذا اللعين، وجيئوني بهذه المغفلة.

الزوجة : آسف، يا مولاي، أن نكون فعلنا ذلك بسبب فقرنا.

كلوسستر : اطردوهما، واضربوهما بالسياط عبر شوارع المدينة حتى يصلا الى برويك من حيث أتيا.

(يخرج المحافظ والشرطي وزوجة سمكوكس، الخ).

الكردينال : لقد صنع دوق همفري اليوم معجزة.

سوفولك : هذا صحيح. فقد جعل الأعرج يقفز ويطير.

كلوسستر : لكنك أنت اجترحت معجزات أكثر مني، عندما طيّرت يا مولاي، ذات يوم مدناً عديدة برمّتها.

(يدخل بوكنكهام).

الملك هنري : بأية اخبار تأتيني، يا ابن عمي بوكنكهام؟

بوكنكهام : بأنباء يهلع قلبي لنقلها اليك. هناك زمرة اشرار منشغلة بأعمال سافلة تحت رعاية السيدة اليونور وبمساعدتها، بصفتها زوجة

حامي المملكة، وهي رأس هذه العصابة المدبر، وقد انصرفوا الى أفعال هدّامة تشكل خطراً على الدولة، ما داموا قد لجأوا الى السحرة والمشعوذين، وقد فاجأتهم بالجرم المشهود وهم يستحضرون من أعماق الأرض أرواحاً شرّيرة وأشخاصاً آخرين من مجلس جلالتك الخاص كما سأشرحه في حضرتك مفصّلاً.

الكردينال (لكلوسستر) : وهكذا، يا مولاي حامي المملكة، أصبحت زوجتك الآن رهن التوقيف في لندن. وهذا النبأ على ما أظن سيفلّ حدّ سيفك القاطع، وعلى الأرجح، لن تتمكن، يا مولاي، من الذهاب الى موعدك.

كلوسستر : تباً لك من رجل دين مخاتل، كفّ عن ازعاجي فالحزن يعصر فؤادي ويهدّ حيلي. وبما أني أراني في هذه اللحظة مغلوباً على أمري، أتراجع أمامك، كما لو كنت أتراجع امام احقر خادم في منزلي.

الملك هنري : يا إلهي! كم من المظالم يرتكبها الأشرار، وهم يجلبون الويل والهلاك على رؤوسهم.

الملكة مرغريت : ها هوذا عزّك يتدهور، يا كلوسستر. فالأفضل لك أن تظل بعيداً عن كل شبهة وملامة.

كلوسستر : من جهتي، يشهد الله، يا سيدتي، أني أكنّ باستمرار كل المودة والاحترام لمولاي الملك وأراعي دوماً مستوجبات المصلحة العامة. أما زوجتي فلا علم لي بما قامت به ولا بما حلّ بها. أنا آسف للوقوف على ما علمت به الآن، انها امرأة نبيلة، لكنها نسيت شرفها وفضائلها واتصلت باناس يلطخ مجرد التحدث اليهم، مثل الزفت، كل نبل وسموّ. فأنا أنبذها من سريري ومن محيطي وأسلمها الى رجال القانون ليقتصوا منها لما الحقته من الخزي والعار باسمي انا زوجها الشريف كلوسستر.

الملك هنري : هيا بنا لنستريح قليلاً هذه الليلة. وغداً نعود الى لندن لنتفحّص الأمر بعمق ونستجوب هؤلاء المجرمين السمجين ونزن قبائحهم بميزان العدل الذي لا تميل كفته إلا الى جهة الحق والصواب.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في لندن داخل حديقة دوق يورك

(يدخل يورك وسالزبري ووورويك).

يورك : والآن، يا سيديّ الكريمين سالزبري ووورويك، بعد انتهاء عشائنا المتواضع اسمحا لي بالقيام بنزهة على انفراد لأخلو بنفسي، ثم أسألكما رأيكما في موضوع حقي بتاج انكلترا الذي لا أجد أنا أي اعتراض عليه.

سالزبري : اني متلهّف، يا مولاي، لسماع كل ما لديك قوله في هذا المجال.

وورويك : أبداً يا عزيزي يورك، واذا كانت حجتك دامغة، فان أسرة نافيل بأكملها تقف الى جانبك وتساندك.

يورك : اسمعوا اذاً : لقد رزق ادوارد الثالث، يا مولاي، سبعة بنين : الأول : ادوارد الأمير الأسود، أمير ويلز وليّ العهد، والثاني : وليم هاتفليد، والثالث : ليونال دوق كلارانس، ثم يليه : حنّا دي غان دوق لنكاستر، والخامس : ادمون لنكلي دوق يورك، والسادس : توماس وُدْستوك. دوق كلوسستر والسابع والأخير : وليم وندسور. إلّا أن ادوارد الأمير الأسود مات قبل أبيه مخلّفاً ابناً وحيداً هو ريشار الذي مات بعد

ادوارد الثالث وتولى الحكم بصفته الملك حتى تمكن هنري بولنبروك دوق لنكاستر، وهو الابن البكر والوريث الشرعي لحنّا دي غان، من أن يتوّج ملكاً باسم هنري الرابع، وقد استولى على الحكم بعد أن خلع الملك الشرعي، وأعاد الملكة المسكينة الى فرنسا من حيث أتت، وأرسل الملك الى بمفار حيث، كما تعلمون جميعكم، أغتيل ريشار المسالم بخيانة نكراء.

وورويك (لسالزبري) : لقد بيّن الدوق الحقيقة يا أبي. فهكذا حصلت اسرة لنكاستر على التاج.

يورك : والآن هي تتمسك به بالقوة لا بالحق. لأن ريشار الوريث والإبن البكر من صلب ادوارد، بما أنه مات، كان على ذرية الابن الثاني أن تملك.

سالزبري : لكن وليم هاتفيلد مات بدون وريث.

يورك : الابن الثالث دوق كلارانس، الذي أطالب انا بتاجه، رزق ابنة اسمها ليفيبّا تزوجت ادمون مرتيمور كونت مارش. ورُزق ادمون أولاداً هم : ادمون مرتيمور كونت مارش. ورُزق ادمون أولاداً هم : ادمون وحنّة وأليونور.

سالزبري : وادمون هذا، في عهد الملك بولنبروك طالب بالتاج، كما قرأت ذلك، وكان تمكّن من اعتلاء العرش لو لم يحتجزه، أووين كلاندوير في الأسر حتى وفاته لكن، لنستعرض الباقين.

يورك : وابنته البكر حنّة، والدتي، بصفتها وريثة التاج، تزوجت ريشار كونت كمبريدج الذي كان ابن ادمون لنْكلي، خامس اولاد ادوارد الثالث. وأنا باسمها أطالب بالتاج لأنها كانت وريثة كونت مارش الذي كان ابن ادمون مرتيمور زوج فيليبّا الابنة الوحيدة من صلب ليونال دوق كلارانس. اذاً، اذا كانت ذرية الابن البكر هي التي يحق لها أن تخلُف، قبل ذرية الابن الثاني، أكون أنا الملك.

وارويك : لا أوضح من هذا الاستنتاج. هنري يطالب بالعرش باسم حنّا دي غان الابن الرابع. ويورك يطالب باسم الابن الثالث. وقبل أن تنطفئ شعلة اسرة ليونار، لا يحق لأسرة حنّا أن تملك، وبما أن شعلة أسرة ليونال هذه لا تزال ملتهبة فستضيء بواسطتك وواسطة أبنائك سلالة هذا العرق الأصيل. اذاً، يا أبي سالزبري، لنركع كلانا معاً في هذا المكان المنزوي بالذات لنكون أول من يحيّي ملكنا الشرعي، ونضعن لحقوقه الشرعية كوريث العرش.

كلاهما : ليحيا مليكنا ريشار عاهل انكلترا.

وارويك : نشكركم أيها اللوردات. لكني لست مليككم ما دمت غير متوّج، وما دام سيفي لم يصطبغ بعد بأنقى دم في أسرة لنكاستر. وهذا ليس وليد هذه الساعة، بل صنيع التبصّر والسريَّة الصامتة. احذوا حذوي في هذه الأوقات العصيبة الخطرة. اغمضوا أعينكم عن حماقات دوق سوفولك، وعن تجبّر بوفور وطموح سومرست وعن بوكنكهام وكل زمرته حتى نسقط في الفخ راعي هذا القطيع مع حاشيته، هذا الأمير المتزمّت المخاتل دوق همفري. هذا ما يسعون هم اليه. وبينما يبحثون عن ذلك سيلقون الموت الزؤام، إن صحّت توقّعاتي انا يورك المتحفظ المتوثّب.

سالزبري : تعال، يا مولاي، ننتصر هكذا. فنحن نعرف جيداً ما تضمره وتفكر به.

وارويك : قلبي يحدثني بأني أنا كونت وارويك، سأجعل من دوق يورك ملكاً مهاباً.

يورك : وأنا يا نافيل، أقول لنفسي ان مصير ريشار، ان يصبح كونت وارويك أكبر شخصية في انكلترا بعد الملك.

(يخرجون).

المشهد الثالث

في لندن، داخل قاعة المحكمة

(يسمع صوت أبواق. يدخل الملك هنري والملكة مرغريت وكلوسستر ويورك وسوفولك وسالزبري، ثم دوقة كلوسستر ومرجري جوردن وساوثويل وهيوم وبولنبروك تحت الحراسة).

الملك هنري : تقدمي، يا سيدتي اليونور كُبْهام زوجة كلوسستر. فان جرمك فظيع امام الله وأمامنا، وتقبّلي عقابك بموجب القانون، على ما اقترفته يداك من ذنوب تقضي عليك حسب شريعة الله العادلة بالموت الزؤام (لمرجري وللسجناء الآخرين) انتم الأربعة ستعودون الى السجن، ومن هناك تُقادون الى تنفيذ الحكم فيكم. فالساحرة ستُعدم حرقاً وتحوَّل الى رماد في سميثْفيلد، وأنتم الثلاثة ستُعدمون شنقاً. اما أنت يا سيدتي فبما أنك أنبل أصلاً فستجرّدين من جميع الألقاب طوال حياتك الباقية وبعد ثلاثة أيام من التوبة العلنية ستُنفَيْن عن وطنك الى جزيرة « مان » تحت حراسة سير جون ستانلي.

الدوقة : أهلاً ومرحباً بالنفي، وأهلاً ومرحباً بالموت.

كلوسستر : كما ترين يا اليونور، سينفّذ بك حكم العدالة، وأنا لا يسعني أن أبرّئ من ادانه القانون. (تخرج الدوقة ويتبعها السجناء الآخرون يحيط بهم الحرس). الدموع تملأ عينيّ والألم يعصر قلبي عصراً. تباً لي، أنا همفري. لأن هذا العار يثقل شيخوختي بوقر العذاب ويحني رأسي الذليل الى الأرض. فألتمس من جلالتك السماح لي بالإنصراف، اذ إن آلامي تفتقر الى المواساة وشيخوختي تحتاج الى الراحة.

الملك هنري : قف، يا همفري دوق كلوسستر، وقبل أن تمضي سلمني عصاك، فأنا هنري، أريد أن أكون حامي نفسي. وحسبي

الله أن يكون ملاذي وأملي وسندي ودليلي، والمنار الذي يهدي خطاي. اذهب اذاً بسلام يا عزيزي همفري، لأني لا أزال أحبك كما كنت، قبل أن تفقد منصبك كحامي المملكة.

الملكة مرغريت : انا لا أفهم لماذا يجب على ملك مثلك في سنّ تؤهله للحكم أن يظل تحت الحماية كأنه طفل صغير. أسأل الله أن يكون في عون الملك هنري ليقود سفينة انكلترا الى مرفأ الأمان. ردّ، يا سيدي، الى الملك هذه العصا والمملكة التي تخصّه.

كلوسستر : عصاي أنا؟ ها هي، يا هنري النبيل. فأنا أتنازل بطيبة خاطر عنها مع أن والدك هنري سلمني اياها، وأضعها عند قدميك راضياً كما سيستلمها غيري ممن لديهم طموح ربما أكثر مني. وداعاً أيها الملك الكريم، وأثناء غيابي أسأل المولى أن يمنّ عليك وعلى عرشك بالسلم والمجد.

(يخرج).

الملكة مرغريت : أخيراً، أصبح هنري ملكاً ومرغريت ملكة. ولم يعد همفري دوق كلوسستر كما كان، لأنه تحطّم بقساوة اذ تلقى ضربتين في آن واحد : نفيَت زوجته وهي ساعده الأيمن، ثم انتُزعتْ منه عصا الشرف والنفوذ هذه التي أرجو من الآن وصاعداً أن تظل حيث يجب أن تكون في يد هنري.

سوفولك : هكذا انهارت هذه الشجرة الشامخة وتكسّرت أغصانها. وهكذا سُحق كبرياء اليونور وقضى في عز شبابه وعنفوانه.

يورك : لا تهتمّوا للأمر، يا سادتي. فقد حان اليوم موعد القتال. والمتحدي والمتحدَّى كلاهما مستعدّان لخوض المعركة، اذا رضيت جلالتك أن تحضر القتال.

الملكة مرغريت : أجل، يا مولاي العزيز. وسأغادر البلاط بقصد مشاهدة نهاية هذه المشاجرة.

الملك هنري : بحق السماء، أرجو أن تجري الأمور على ما يرام، وأن تنتهي المسألة عند هذا الحد، وأن يكون الله في عون من بجانبه الحق.

يورك : لم أشاهد في حياتي، يا سادة، من يستحق الشفقة ويخشى القتال أكثر من هذا التحدّي.

(من جهة يدخل هورنر يحيط به جيرانه الذين شربوا نخبه حتى سكر هو. فيدخل حاملاً عصاه وقد رُبط بها كيس من الرمل، ويتقدّمه طبل. ويدخل من جهة أخرى بطرس يتقدمه طبل أيضاً وفي يده عصا مشابهة، يرافقه بعض الأجراء وهم يشربون نخبه).

أول جار : ها أنا أشرب نخبك، يا جاري هورنر، كأساً من الخمرة طافحة، فلا تخف، يا صاح، ستخرج من هذه المعركة بأمان.

ثاني جار : وهذه كأس ثانية من الخمرة أشربها نخبك.

ثالث جار : وهذه كأس كبيرة من الجعة أشربها انا نخبك، فلا تخف من خصمك المتمرّن.

هورنر : الى العمل اذاً. اني اعذركم جميعاً، وازدري ببطرس.

الأجير الأول : ها أنا أشرب نخبك يا بطرس، فلا تخف.

الأجير الثاني : إفرح، يا بطرس، ولا تخشَ بطش سيدك، بل قاتل لأجل شرف الأجراء.

بطرس : اشكركم جميعكم وأرجو، وأنتم تشربون نخبي، أن تصلّوا لأجلي، اعتقد بأني شربت الآن آخر جرعة لي في هذه الدنيا. فإن متّ يا « روبان » ستأخذ مئزري، وأنت يا « ولّ »، ستأخذ مطرقتي، وأنت يا « طوم » ستأخذ ما لديّ من مال. ارحمني يا إلهي. أنا أتضرع الى الله لأني لن أقوى أبداً على معاندة معلمي والتغلب عليه، وهو متمرس في امتشاق الحسام.

سالزبري : هيّا، كفّوا عن الشرب، وباشروا الضربات. ما اسمك يا مغفّل؟
بطرس : اسمي بطرس.
سالزبري : وما هو لقبك؟
بطرس : الضارب.
سالزبري : اجتهد اذاً ان تضرب معلمك جيداً، يا ضارب.
هورنر : لقد جئت الى هنا، يا سادتي، كأن أجيري يحمّسني كي أثبت له أنه غبي، واني رجل شريف. اما ما يتعلّق بالدوق يورك، فأنا أودّ أن أموت لو ضمرت أي شرّ له أو للملك أو للملكة. وبالنتيجة، ترقّب، يا بطرس، أن تتلقى طعنة نجلاء.
يورك : عجّلوا، فإنّ لسان هذا المسكين يكاد ينعقد. انفخوا في الأبواق واعطوا اشارة البدء للمقاتلين.

(تسمع موسيقى انذار. ويشتبك المتقاتلان فيطرح بطرس معلمه أرضاً).

هورنر : قفْ، يا بطرس، قفْ. أنا أقرّ بخيانتي.

(يموت).

يورك (يشير الى بطرس) : جرّدوه من سلاحه. اشكر ربك، يا صاح، فالخمرة قد جعلت سيدك يتعثر ويخرّ صريعاً.
بطرس : يا الهي. لقد انتصرت على أعدائي امام هذا الجمع. وأنا بطرس الضعيف قد فزت بالحق.
الملك هنري : هيا خذوا هذا الخائن القتيل بعيداً عني. لأني من خلال موته أرى جرمه. ولقد أوحى الله اليّ من خلال عدالته ما يتحلّى به هذا الشاب من وفاء وبراءة، وقد أزمع أن يهلك ظلما. تعالَ، يا صديقي، واتبعني لكي تنال مكافأتك.

(تصدح الموسيقى ويخرج الجميع).

المشهد الرابع

في لندن، وسط ساحة عامة

(يدخل كلوسستر وخدمه جميعهم بثياب الحداد).

كلوسستر : هكذا يحجب الغيم أحياناً أسطع الأضواء. وهكذا بعد الصيف يأتي الشتاء القاحل مصحوباً دائماً ببرده القارس المزعج. وهكذا تتراكم الهموم والأحزان على مرّ الفصول المتلاحقة. كم الساعة الآن يا أصحاب؟

خادم : الساعة العاشرة، يا مولاي.

كلوسستر : لقد حانت الساعة المعيّنة لانتظار مرور الدوقة المحكوم عليها. ويحي، لن يتسنى لها تحمّل حصى الطريق الذي عليها أن تطأه بقدميها الناعمتين. يا عزيزتي نلّي، على نفسك الرفيعة أن تتحمّل مضايقة هذا الشعب السافل، الذي ينظر اليوم اليك بعيون ساخرة حاقدة تزدري مصيبتك، وهو الذي كان يتبع دواليب عربتك الفخمة يوم كنت تخترقين الشوارع بعزّة وافتخار. لكن، رويداً، اعتقد بأنها آتية، وعليّ أن أهيئ عينيّ الدامعتين لرؤية كآبتها وبؤسها.

(تدخل دوقة كلوسستر مرتدية كفناً أبيض وعلى ظهرها لوحة مكتوبة، وهي حافية القدمين وبيدها مشعل ملتهب، يرافقها سير جون ستانلي وشرطي وضابط).

خادم (لكلوسستر) : اذا أمرت، يا مولاي، نحن مستعدون لأن نختطفها من حرّاسها.

كلوسستر : كلا، لا تبدو حراكاً. بحياتكم، دعوها تمر بسلام.

الدوقة : هل أتيت، يا مولاي، لتشاهد تحقيري أمام الجمهور؟ أنت الآن تكفّر عن ذنوبك. انظر كيف يتطلعون اليك. انظر كيف

يشير اليك هذا الجمع المتذمر بأصابعه، والى هذه الرؤوس المتحركة التي تشرئبّ اليك. آه، يا كلوسستر، أغرب عن أنظارهم الحاقدة واحبس ذاتك في حجرتك لتبكي هذا العار وتلعن اعداءك وهم في الوقت نفسه أعدائي أنا أيضاً.

كلوسستر : صبراً يا نلّي اللطيفة، إنسيْ هذا الشقاء.

الدوقة : آه، يا كلوسستر، علمني كيف أنسى ذاتي. لأني عندما أفكر بأني زوجتك الشرعية، وأنك أنت أمير وحامي المملكة، يخيّل اليّ أن قَدَري حتّم علي أن أتجوّل هكذا متلبسة بثوب الدناءة وعلى ظهري لوحة مكتوبة، وحثالة الناس تتبعني مبتهجة بمشاهدة دموعي وسماع أنّات صدري العميقة. ان الحصى القاسي يوجع قدميّ الناعمتين، وعندما أتعثّر أرى الحسّاد يزمجرون ويتطلبون مني أن أكون حذرة حيث أسير. آه، يا همفري! هل يسعني أن أحمل هذا النير الثقيل من الذل؟ هل تظن أني قادرة على مواجهة العالم أو الحصول على السعادة والتمتع بنور الشمس ودفئها؟ كلا ان نوري أصبح من الآن وصاعداً ظلاماً دامساً. وجحيمي هو تذكري أيام العظمة والرخاء. أحياناً أردّد على نفسي أني زوجة دوق همفري وهو أمير رفيع الشأن وسيد البلاد. لكن مع أنه سيد وأمير ظل ساكن الأعصاب، بينما أنا دوقته، أمسيت ضحية، وكنت موضوع الاعجاب وقبلة الأنظار، فبتُّ أضحوكة أدنى حقير وسخرية كل منحط. فعليك أن تظلّ هادئاً ولا يحمرّ وجهك خجلاً من عاري، ولا يقلق لك بال على مصيري، فلن يحصدك منجل الذل والموت، كما هو حالي حتماً في القريب العاجل. لأن سوفولك القادر على كل شيء، وعلى الحقد الذي شملنا كلّنا به، هو ويورك والجاحد بوفور رجل الدين المزيف، جميعهم قد طَلْوا الشجرة بالدبق ليصطادوك كالعصفور حين يلصق جناحاك به، ومهما

حاولت بعد ذلك أن تطير فعبثاً، سوف تصبح اسير اهوائهم، لا تقلق ولا تخف أن تقع في الفخ، ولا تحاول أن تنبّه الى ذلك أعداءك الكثيرين.

كلوسستر : اصمتي، يا نلّي، وأقلعي عن هذا المنطق السخيف. لا بد لي من أن أكون حقاً مذنباً حتى أعاقب هكذا. وعندما يمسي لي عشرون ضعف ما لي الآن من أعداء، ويصبح لكل منهم عشرون ضعف ما لهم الآن من نفوذ، لن يقوى كل ما حولي على مسّي ما دمت محافظاً على وفائي وأمانتي التي لا يطالها أي لوم. هل ترغبين في أن انتشلك من هذا التدهور؟ على كل حال، لن يمّحي عارك وستطالني العدالة إن أنا حاولت أن أدوس القوانين. فالازعان، يا نلّي اللطيفة، هو أول عون لك. أرجوك أن تتعودي على الصبر وطول الأناة، لأن هذه الفضيحة لن تدوم سوى أيام، ثم تمر وتُنتسى.

(يدخل حارس شاكي السلاح).

الحارس : مطلوب من سيادتك أن تذهب الى مجلس جلالته الذي سيلتئم في « بري » في مطلع الشهر القادم.

كلوسستر : لم يطلب أحد موافقتي على ذلك قبلاً. يا له من أسلوب مريب. مهما كان الأمر، سأذهب (يخرج الحارس). عزيزتي نلّي، استأذنك بالانصراف. ويا أيها الحارس، أرجو أن لا يتعدّى عقابي حدود اوامر الملك.

الحارس : هنا تنتهي مهمتي. لأن سير جون ستانلي هو المكلف حالياً بأخذها الى جزيرة « مان ».

كلوسستر : هل أنت يا سير جون ستسهر على زوجتي؟

ستانلي : أجل، تلقيت الأوامر بهذا المعنى.

كلوسستر : لا تكن قاسياً كثيراً عليها. أرجوك أن تحسن معاملتها. اذ ربما ابتسم لي الدهر يوماً، فيمكنني أن أردّ لك جميلك

حينذاك، إن رفقت بحالها، وعلى هذا الأمل أودّعك يا سير جون.

الدوقة : هل تمضي، يا مولاي، بدون أو تودعني؟

كلوسستر : دموعي أسطع دليل على أني لم أعد قادراً على الكلام.

(يخرج كلوسستر وجماعته).

الدوقة : ها أنت ذاهب؟ وكل آمالي قد ذهبت معك، فلم يبقَ لي من رجاء. فرحي أضحى الموت الذي كان ينتابني الهلع لمجرد سماع ذكره، لأني كنت آمل بأن تدوم حياتي الرغيدة الى الأبد. أرجوك يا ستانلي أن تذهب وتأخذني معك من هنا. لا يهمني الى أين، لأني لم أعد التمس أية منّة، فقط خذني الى حيث أُمرتَ أن تقتادني.

ستانلي : وجهتنا، يا سيدتي، هي جزيرة « مان » حيث ستلقين معاملة تناسب وضعك.

الدوقة : سأعامل اذاً معاملة سيئة، لأني لم أعد أُعتَبَر سوى امرأة حقيرة، وستكون معاملتي ذليلة.

ستانلي : بل كدوقة وكزوجة دوق همفري. فبموجب هذه الصفة ستكون معاملتك هناك.

الدوقة : وداعاً أيها الحارس. أتمنى لك سعادة أكثر من التي أنعم الآن بها، وإن تكن المنفذ الوحيد لما آلت اليه حالتي التعيسة.

الحارس : لقد قمت بوظيفتي. فأطلب منك السماح.

الدوقة : أجل الوداع. وقد أتممت مهمتك. فهيّا، يا ستانلي، نذهب.

ستانلي : وأنت، يا سيدتي، انتهى عذابك وتكفيرك. اخلعي عنك هذا الكفن، وارتدي ثياباً يقتضيها السفر.

الدوقة : انما لن أخلع عاري مع هذا الكفن، لأنه ملتصق بأغلى معاطفي ثمناً. ومهما ارتديت من ألبسة، ستظهر اماراته دوماً عليّ. هيا افتتح المسيرة إذْ إني أهفو الى رؤية سجني.

(يخرجان).

الفصل الثالث

المشهد الأول

داخل كنيسة سنتذموند في « بري »

(تسمع موسيقى. يدخل الملك هنري الى المجلس مع الملكة مرغريت والكردينال بوفور وسوفولك ويورك وبوكنكهام وغيرهم).

الملك هنري : أنا متعجّب لعدم حضور كلوسستر بعد. فليس من عادته أن يكون آخر القادمين، مهما كان سبب غيابه في هذه المرة.

الملكة مرغريت : أولا ترى في أي وضع هو الآن؟ أولم تلاحظ غرابة وتبدلاً في طباعه، وما ينتحله من عظمة وكبرياء منذ مدة. كم أصبح وقحاً ومتعالياً ومدعياً! لقد تغيّر تماماً. أنا لا أزال أذكر كم كان لطيفاً متودّداً. فلمجرد إلقاء نظرة عليه كان يجثو حالاً، وكل البلاط كان معجباً بخضوعه. أما حالياً فإذا صادفته في الصباح مثلاً حين يتمنى كل إنسان لغيره نهاراً سعيداً، تراه يقطّب حاجبيه ويغتاظ ويمرّ صامتاً منتصب القامة لا ينحني رغم ما يتوجب عليه من احترام نحوي. عادة أنا لا أكترث للسفهاء الصغار مهما شاغبوا، بينما يرتجف الكبار عندما يزأر الأسد. وهمفري في انكلترا

ليس صعلوكاً نكرة. لاحظ أنه من ناحية اسرته، هو أقرب النبلاء اليك. وإذا سقطتَ فهو أول من يصعد الى مستواك. لذلك، إن أخذنا بعين الاعتبار الحزازات المعشعشة في الصدور والامتيازات التي ستتبع وفاتك بعد العمر الطويل، بالنسبة الى وضعه العائلي، أعتقد بأن السياسة تقضي بأن لا تقرّبه كثيراً الى شخص جلالتك، وأن لا تقبله في مجالسك. لقد اكتسب قلوب النبلاء بحلاوة لسانه وتمليقه. وحين يحلو له أن يخلق مشكلة لا يستبعد أن ينحاز اليه الجميع. ها قد أقبل الربيع، ولم تقتلع الأعشاب الضارة إلا سطحياً. فاذا تركتها تنمو ستجتاح كل الحديقة وتخنق النباتات الصالحة في غياب كل عناية ويقظة. ان ما أحفظه لك من فائق المودة والاحترام، يا سيدي، جعلني اكتشف جميع هذه الأخطار التي يهددك بها الدوق. وان كان ما أبديه وهماً فيمكنك أن تعتبر ذلك هاجساً نسائياً. واذا استطعت أن تبدد هذه المخاوف بموجبات محسوسة فأنا مستعدة لأن أسلم بها، وان اعترف بأني أسأت الظن بالدوق خطأً. يا سادتي سوفولك وبوكنكهام ويورك، أرجوكم أن تدحضوا ادّعائي اذا وجدتم الى ذلك سبيلاً، وإلّا ثقوا بصدق أقوالي.

سوفولك : إن سموّك تدينين هذا الدوق بحق، ولو كنتُ الأول في التصريح عن افكاري، لما تأخرت عن قول ما تحدثت به أنتِ يا صاحبة السيادة. فالدوقة استسلمت الى هذه الأعمال الجهنمية بناء على تحريضه. واقسم بشرفي، إن لم تكن شريكته في جرائمه، فهي على الأقل، بقدر ما كانت تذكر رفعة حسبها كاحدى أقرب نسيبات الملك وكوريثة شرعية تفاخر بنبل اسرتها، تراها قد اندفعت، هي الدوقة المهووسة المريضة العقل الى حياكة الدسائس بأساليب مجرمة لاسقاط

مليكنا المحبوب. فالماء يجري بهدوء حيث التيار عميق، وتحت المظاهر الملكية، هو نظيرها لم يتورع عن اللجوء الى الخيانة. فالثعلب لا يعوي إلا عندما يريد اختطاف الحمل. لا، لا، يا مليكي، ان كلوسستر رجل ليس لحيله من قرار ولا للؤمه من حدود.

الكردينال : أولم يبتدع، خلافاً لما ينصّ عليه القانون، ميتات شنيعة شرسة لمعاقبة جُنح تافهة؟

يورك : أولم يجمع أثناء قيامه بحماية المملكة، مبالغ طائلة مدعياً دفعها لجنود فرنسا، ولم يرسلها اليهم مطلقاً؟ وهذا ما حدا بالمدن كل يوم الى اعلان العصيان.

بوكنكهام : هذه هفوات صغيرة بالنسبة الى الأخطاء الكبيرة المجهولة التي ستكشفها الأيام القادمة عن دوق همفري الذي يتظاهر باللطف والبراءة.

الملك هنري : اسمح لي بكلمة، يا مولاي. ان الهمة التي تبذلها في حصد الأشواك التي قد تجرح الأرجل، تستحق المديح. أما من ناحية الضمير، فان نسيبنا كلوسستر بريء من كل نية خيانة بحق شخصي كملك، أكثر من الحمل الوديع أو الحمامة المسالمة. الدوق رجل فاضل ناعم وساعٍ الى الخير، ويستبعد أن يضمر الشر أو أن يبغي الأذى.

الملكة مرغريت : ليس من أمر أخطر من هذه الثقة العمياء التي توليه اياها. هل حقاً يدل مظهره على أنه يشبه الحمامة؟ في هذه الحالة يكون ريشه مستعاراً لأن غريزته تجعله كالغراب الحقود. هل هو حمل؟ هنا أيضاً يكون البعض قد خلع عليه حتماً جلد الحمل، ما دامت ميوله تحاكي جشع الذئب المفترس. قل لي أي سارق لا يعرف كيف يختلس ثروة؟ فاحذره يا مولاي، لأن سلامتنا جميعنا متعلقة بإبعاد هذا الرجل اللئيم الغدار.

(يدخل سومرست).

سومرست : أجمل التحية لمليكي المحبوب.

الملك هنري : أهلاً ومرحباً بك يا لورد سومرست. ما هي أنباء فرنسا؟

سومرست : كل أملاكك على تلك الأرض قد انتُزعت منك بدون استثناء. وضاع كل شيء.

الملك هنري : هذا خبر محزن، يا لورد سومرست. لكن هي مشيئة الله ولا مردّ لحكمه.

يورك (على حدة) : النبأ يكدّرني أنا أيضاً، لأني كنت معتمداً على فرنسا بقدر اتكالي على انكلترا الخصيبة. هكذا ذوت أزهار آمالي وهي بعد براعم، والْتَهَمَ الدود أوراقها وهي في أبهى حلة من الاخضرار. انما سأعالج قريباً كل هذه المشاكل أو استبدل لقبي بقبر مجيد يضم رفاتي.

(يدخل كلوسستر).

كلوسستر : أتمنى كل السعادة لمولاي الملك. سامحني يا صاحب الجلالة على تأخري.

سوفولك : لا، يا كلوسستر، نحن نعلم أنك كنت قادراً على الوصول قبل الآن أيها المخاتل المنحرف. أنا ألقي عليك القبض هنا بجرم الخيانة العظمى.

كلوسستر : حسناً، يا سوفولك، لا تنتظر أن تراني أحمرّ خجلاً ولا أغيّر معالم وجهي ارتباكاً. لأن القلب النقي لا يرتعش للتوافه. والنبع الصافي بعيد عن الأوحال كبعدي أنا عن كل خيانة بحق مولاي الملك. من يستطيع أن يتهمني؟ وما هو ذنبي؟

يورك : يُظنّ، يا مولاي، أنك قبضت رشوة من الفرنسيين، وبصفتك حامي المملكة احتفظت برواتب الجنود، وهذا أدّى الى افقاد جلالته أرض فرنسا.

كلوسستر : هذا ما يُظنّ. فمن هم الذين يظنون ذلك؟ أنا لم آخذ أبداً

رواتب الجنود ولم أقبض أية اكرامية من فرنسا. لا سامحني الله، إن لم أكن قد سهرت الليالي تلو الليالي في العمل لخير انكلترا. أرجو أن يكون كل فلس هضمت به حق الملك أو كل درهم حوّلته الى غير محله عقاباً لي يوم الدينونة. لأني، بالعكس قد صرفت مراراً من جيبي وأنا لا أريد أن أحمّل الخزينة العامة المفتقرة أي عبء. أجل لقد دفعت المبالغ الضخمة لتسديد رواتب الجنود، ولم أشأ أبداً أن استعيض عنها من أي باب.

الكردينال : كل هذا جميل وسهل قوله، يا مولاي.

كلوسستر : انا لا أقول سوى الحق، والله شاهد على صدق كلامي.

يورك : أثناء ممارستك حماية المملكة، ابتدعت لتعذيب المحكومين طرقاً لم يسمع بها بشر، ولوثت شرف انكلترا بالظلم والطغيان.

كلوسستر : يعرف الجميع اني طوال مدة حمايتي، كانت الشفقة نقطة ضعفي الوحيد لأني كنت أرق لدموع المذنب، وكانت تكفيني بضع كلمات توبة كفدية وكفّارة عن اخطائه. إلا اذا كان مجرماً سفاك دماء، أو لصاً جسوراً خطراً قد سرق أموال المسافرين المساكين، فلم أكن أفرض عليه عقاباً صارماً. لا أنكر أني عذبت القاتل لأنه مجرم سفّاك، أكثر من أصحاب جنح المجون أو غير ذنوب.

سوفولك : يا مولاي، من السهل جداً أن يرد المرء دفاعاً عن هذه الاتهامات، انما تُنسب اليك يا كلوسستر جرائم خطيرة لا يسعك أن تنكرها أو تكفر عنها بسهولة. لذا أنا ألقي القبض عليك باسم صاحب الجلالة وأسلمك فوراً الى حراسة مولاي الكردينال حتى يحين موعد محاكمتك.

الملك هنري : يا مولاي كلوسستر، كل أملي أن تسقط عنك كل شبهة. لأن ضميري يحدثني بأنك بريء.

كلوسستر : مولاي الكريم، ان هذه الأزمنة عصيبة. والفضيلة يخنقها الطمع الأسود، كما أن المحبة يطردها الحقد اللئيم، والفساد المدمّر يسود في كل مكان، والانصاف هجر هذا العالم المجبول بالفوضى. أنا أدري ان مؤامرة اخصامي تستهدف القضاء على حياتي. ولو كنت واثقاً بأن موتي يسعد هذا البلد ويضع حدًّا لاستبدادهم لكنت رضيت به قانعاً. لكن موتي سيكون مقدمة لمهازلهم ولألف تمثيلية خدّاعة غيرها. ومن لا يرتاب بعد هذا الخطر الداهم، لا يمكنه أن يستشفّ المأساة التي يعدّونها. ان عين بوفور الحمراء يتطاير منها الشرر وتنبئ بما يضمره قلبه الحقود من سوء، كما هو حال صدر سوفولك المراوغ الذي تملأه الضغينة. أما بوكنكهام الساحر فانه يخفف بالكلام المموّه، وقر الحسد الذي يطغى على ضميره الواسع ويشير اليّ بيده المجرمة مهدداً حياتي بما يطلقه عني من التهم الباطلة القاتلة. وأنتِ نظير الآخرين، يا سيدتي، كدّستِ بدون سبب على رأسي كل البلايا، وبذلتِ جهدكِ لتثيري علي غضب مليكي المحبوب وعداءه. أجل، لقد اتفقتم جميعكم على الاطاحة بي. وأنا بذاتي علمت بتشاوركم بغية القضاء علي والتخلص مني أنا البريء. ولن تعدموا شهود زور لإدانتي، ولا خيانة مزعومة تلصقونها بي لزيادة الطين بلّة. وما أصدق من قال : لضرب الضعيف ترى العصا دوماً جاهزة.

الكردينال : يا مولاي الملك، هذه الحجج غير معقولة ولا مقبولة. لو كان المخلصون الذين يبغون انقاذ جلالتك من خنجر الغدر والخيانة وحقد الجحود يقابلون هكذا بالتأنيب والاهانة سوء الظن، أؤكد لك أن الوثوق بكلام الجاني يثبّط همتهم ويفترّ حماستهم في خدمة شخصك ومصالح عرشك.

سوفولك : أولم يوجّه الاهانات الى سيدتي الملكة؟ وإن تكن هذه

الاهانات مصاغة بأرق الكلمات وألطف المعاني، وهو يردّد مراراً وتكراراً ادّعاءه الولاء وحسن النية المبطنة بأسوأ الأهواء المؤدية الى الابادة والدمار.

الملكة مرغريت : لكني أسمح لنفسي بسماع شكوى الخاسر في هذه اللعبة.
كلوسستر : الكلمة أصدق مما تتصورين. أنا خاسر بالفعل. انما الويل للرابح الذي خدعني، مع أن من يخسر هكذا يحق له أن يعترض.
بوكنكهام : ها هو ينوي التبجّح والمراوغة والمداهنة طوال النهار على ما يظهر. مع أنه سجينك يا مولاي الكردينال.
الكردينال (لرجاله) : خذوا الدوق واحرسوه جيداً.
كلوسستر : يؤسفني أن أرى الملك هنري قد رمى بعكازه قبل أن تشتد ساقاه وتصبحان قادرتين على حمله. وهكذا يكون الذئاب قد طردوا الراعي الأمين وأبعدوه عنك ليتسنى لهم أن يرفعوا عواءهم ويثبوا عليك ليغرزوا أنيابهم فيك ويفترسوك. أتمنى أن تكون مخاوفي في غير محلها، بل أسأل الله أن أكون واهماً. لكني على يقين بأني أرى الأمور بكل وضوح، أيها الملك الكريم، وأشعر بأن أعداءك يبغون اسقاطك واهلاكك.

(يخرج كلوسستر بمعية الحراس).

الملك هنري : ارجوكم، يا سادة، أن تتصرفوا حسب ما تمليه عليكم حكمتكم. يمكنكم أن تأمروا وتنهوا هنا باسمي كأنكم شخصي بالذات.
الملكة مرغريت : هل تريد جلالتك أن تغادر هذا المجلس؟
الملك هنري : نعم، يا مرغريت، فالألم يعصر فؤادي، وتوشك أمواجه المتلاطمة أن تفيض دموعاً من عينيّ. وأحسّ بأن الشقاء يجثم كالكابوس على صدري، لأن لا عذاب يفوق عدم الرضى. تبًّا لك، يا عمي همفري، أرى على محياك سمات

الشرف والصراحة والوفاء، وحتى هذه الساعة لم تفسح لي المجال لأشكّ بشخصك وباخلاصك، يا همفري الكريم. فماذا حدث لك حتى انقلبت عليّ وضمرت لي الشر، فتألب عليك هؤلاء اللوردات مع ملكتي مرغريت، وباتوا يرومون طمس براءتك ويسعون الى ازالتك من الوجود. اعتقد بأنك لم ترد شراً لا بهم ولا بأي أحد. وكما يأتي الجزار بالحمل المسكين ويربطه ويصرعه عندما يبتعد عن طريق المسلخ الدامي، هكذا ينتزعك هؤلاء القساة من هنا. وكما تلهث الأم راكضة هي تجدّ في البحث عن ولدها البريء الضائع، لا يسعها إلا النحيب والبكاء على فقده، هكذا أنا آسف لسوء حظك يا كلوسستر، واذرف الدمع السخين بدون أن أقوى على انقاذك يا عزيزي. اني انظر اليك بعين دامعة وأنا عاجز عن ردّ عدوان اخصامك عنك، لا أستطيع سوى التنهّد والتلهّف على مصائبك. وبين دمعة ودمعة أقول وأردّد : ان كان فعلاً هناك من خائن فحتماً لست أنت يا كلوسستر.

(يخرج).

الملكة مرغريت : أنتم بعيدون عن كل شبهة، فالثلج البارد يذوب في حرارة الشمس المحرقة. ومولاي هنري بارد تجاه اهم مصالحه، وعطوف على توسلات هذا المهووس. وظواهر كلوسستر تبهره نظير التمساح المتباكي الذي يوقع المسافر الشفوق في فخ تنهّداته، أو كالحية الرقطاء التي تختفي بين الزهور الملونة الجذابة وتلسع الولد الذي يتأمل جمالها. صدقوني أيها اللوردات، لو لم يوجد من هو أعقل مني، وفي هذا المجال أعتقد بأني عاقلة كفاية لما أمكن التخلّص من كلوسستر هذا ومن المخاوف التي يوحي بها لؤمه الغدّار.

الكردينال : القضاء عليه اذاً، في نظري أنا أيضاً، هو أفضل سياسة.

انما تنقصنا حجج الادانة. فلا بد من من يحاكم بموجب القوانين المرعية الاجراء.

سوفولك : انا أعتقد بأن هذه ليست سياسة حكيمة. لأن الملك يسعى دائماً لانقاذ حياته، والنواب يعترضون ويسعون الى تخليصه، ونحن ليس لدينا سوى حجة واهية هي الشك لتبرير الحكم عليه كمجرم.

يورك : اذاً أنتم لا ترومون التخلّص منه.

سوفولك : ما هذا الكلام يا يورك؟ لا أحد مثلي يودّ القضاء عليه.

يورك (على حدة) : انا من صالحي أكثر من سواي أن يموت. انما أرجو مولاي الكردينال كما أرجوك أنت يا مولاي سوفولك، أن توضحوا لي رأيكم وتكلموني بمنتهى الصراحة. أولا يكون تكليف نسر حائم بحماية دجاجة من حدأة جائعة أفضل من ابقاء همفري في منصب حامي الملك والملكة؟

الملكة مرغريت : في هذه الحالة تكون الدجاجة على يقين بأن موتها العاجل محتّم.

سوفولك : هذا صحيح يا مولاتي. أوليس من الغباء أن نوكل الى ذئب أمر حراسة القطيع؟ ومهما تفاقمت الشكوى من حيله المؤذية، أن نغضّ الطرف عن نواياه الشريرة بحجة أنه لم ينفذ بعد مآربه. كلا، ثم كلاّ. ليمتْ قبل أن تتخضّب ثيابه بالدم الزكي. ليمتْ همفري الذي عرفنا عداءه الطبيعي لأترابه، لأن جميع الأدلّة تثبت قولي بأنه خصم الملك اللدود. ولنتجنّب أي جدال في موضوع الوسيلة اللازمة لقتله. ليمتْ بآلة أو بفخّ أو بشرك، نائماً أو مستيقظاً. المهمّ أن تزهق روحه فنرتاح منه. لأن السرقة مباحة ممن يُياغت متلبّساً بجرم السرقة.

الملكة مرغريت : نبيل ثلاثة أضعاف من يتكلم بدراية وقصد هكذا.

سوفولك : لا يفيد القصد اذا لم يتبعه التنفيذ. وصدق من قال ان قيمة

القصد في اقترانه بالعمل. هنا أجد قلبي يوافق لساني على اعتبار أن هذا العمل يستحق الاقدام عليه لأنه يقي مليكي من شرّ أعدائه. ألفظوا كلمة واحدة فأقوم بأصعب المهمّات.

الكردينال : أنا أريد له الموت، يا لورد سوفولك، حتى قبل أن تصلك الأوامر اللازمة للتنفيذ. قل انك موافق، وانك تصادق على إنزال العقاب به، وأنا مستعد لإيجاد من يتولّى انجاز المهمة لأني أتوق الى انقاذ حياة مليكي.

سوفولك : ها أنذا أمدّ اليك يدي، لأن القضية تتطلب المبادرة.

الملكة مرغريت : وأنا أوافق على هذه الفكرة.

يورك : وأنا كذلك. والآن وقد أبدينا نحن الثلاثة رأينا بصراحة لا يهمّنا من يلوم تصرفنا.

(يدخل الرسول).

الرسول : أيها اللوردات الكرام، أنا آتٍ بعجلة من ايرلندا لأعلمكم بأن المتمردين باشروا القتال، وقد أعملوا السيف في رقاب الانكليز. فأرسلوا النجدة، أيها اللوردات، وأوقفوا حالاً ثورتهم قبل فوات الأوان لئلاّ يصبح الجرح غير قابل المعالجة، والأمل بمداواته وشفائه كبير ما دام حديث العهد.

الكردينال : هذه ثغرة علينا أن نسدّها بسرعة قبل أن يستفحل الأمر. فما هي نصيحتكم في مثل هذا الموقف العسير.

يورك (بسخرية) : أن يرسل سومرست الى هناك بصفة وصي. اذ لا فضلَ من ايفاد حاكم مثله، ما دام نجاحه في فرنسا يشهد على مقدرته الفريدة.

سومرست : لو كان يورك، بسياسته المعقدة وصياً مكاني، لما مكثَ في فرنسا هكذا طويلاً.

يورك : طبعاً لا. وإلاّ كان فقد كل شيء كما فعلت أنت. كنت أنا أفضّل أن أموت باكراً وأن لا أصل الى هذه النتيجة

المشينة، وقد بقيت هناك الزمن اللازم لخسارة كل شيء.
أرني أثر جرح واحد فقط على جلدك، فالرجال الذين
يحافظون هكذا جيداً على بشرتهم السليمة نادراً ما ينتصرون.

الملكة مرغريت : هذه شرارة لا تلبث أن تنشر الحريق الملتهم، لا سيما اذا ساعدت الرياح على امتداد ألسنة اللهيب. كفى، يا يورك الكريم، وأنت يا عزيزي سومرست هدّئ روعك، لو كنت أنت الوصي على فرنسا لكان نصيبك أفظع مما حلّ به.

يورك : ماذا تقول؟ هل هناك أفدح من هذه المصيبة التي ألحقت الخزي والعار بنا جميعاً؟

سومرست : وقد لحق بك بنوع خاص، لأنك تخشى أن يكون الأمر هكذا.

الكردينال : يا لورد ورويك، جرّب حظك. ان جماعة كيرن، وحوش ايرلندا، مدججون بالسلاح ويروون الأرض بدماء الانكليز. فهل تريد أن ترسل الى هناك نخبة من رجال أشداء مختارين من جميع المناطق، وتجرّب حظك في محاربة الايرلنديين؟

يورك : أنا أريد من كل قلبي، يا مولاي، اذا وافق الملك على ذلك.

سوفولك : ان موافقتنا معناها قبوله هو أيضاً، لأنه سيؤكد حتماً ما نقرره نحن. وهكذا يتولّى النبيل يورك القيام بهذه المهمة.

يورك : انا موافق. أوجدوا لي جنوداً، أيها اللوردات، بينما أنا أجهّز نفسي.

سوفولك : اتكل عليّ، يا لورد يورك. لكن، لنعد الآن الى اللعين همغري.

الكردينال : لا حاجة للكلام مجدداً في موضوعه. فأنا أتصرف تجاهه بطريقة لا تزعجنا من الآن وصاعداً. وعلى هذا الأساس دعونا نعجل في التنفيذ، لأن النهار يوشك أن ينتهي. وسنتحدث أنا ولورد سوفولك في هذا الأمر.

يورك : يا لورد سوفولك، بعد أربعة وعشرين يوماً سأنتظر جنودي

في مدينة بريستول لأني أنوي أن أبحر بهم من هناك الى ايرلندا.

سوفولك : سأبذل قصارى جهدي ليكون كل شيء جاهزاً، يا لورد يورك.

(يخرج الجميع ما عدا يورك).

يورك : حان الوقت لكي أشحذ زناد افكاري البليدة ولأحوّل الشك الى قصد ثابت. فعليّ أن أكون ما أتمنى أن أصير اليه، أو أترك للموت ما أنا عليه الآن لأني لا أستحق البقاء. يجب أن أدع عني الخوف الزري للرجل الجبان ولا أسمح للفزع أن يعشعش في فؤادي الملكي. وبأسرع من أمطار الربيع سأرى الأفكار تخلف الأفكار، ولا واحد من خواطري يذهب الى الاستيلاء على السلطة. ان دماغي الذي يعمل باجتهاد أكثر من العنكبوت يحوك الحبائل المحكمة للنيل من اخصامي. جيد جداً، أيها النبيل، جيد جداً. فإن ارسالي على رأس جيش هو تدبير سياسي بارع. لكني أخشى أن تكون بادرتك عاملاً على تحريض الأفعى الجائعة التي تداعب قلبك كي تلدغ فؤادي. كان هؤلاء الرجال مَن أفتقرُ اليهم، وشئتَ أنتَ أن تزودني بهم، فأشكرك على كرمك شكراً جزيلاً، انما كن على ثقة بأنك تضع الأسلحة الفتّاكة في أيدٍ غاضبة. وبينما في ايرلندا سأتّصل بزمرة رهيبة، سأقدم على اثارة عاصفة هوجاء في انكلترا تطيح بعشرة آلاف نفس ترسلهم الى السماء أو الى الجحيم، لا فرق عندي. وهذه العاصفة المريعة لن يتوقف هبوبها إلا حين يهدّئ التاج الذهبي الذي سيكلّل رأسي نظير الشمس الساطعة، هذه الثورة المهووسة التي تتأجج نارها في صدري. ولكي أنفذ مأربي ساندتُ رجلاً عنيداً من مقاطعة كنت هو جون كاد آشفورد

الذي لن يتورع عن أي جرم لتحريك الفتنة واذكاء لهيبها باسم جون مرتيمور. لقد رأيت كاد هذا الشرس يقاتل في ايرلندا جماعة كارن ويحارب مدة طويلة حتى انتصب شعر ساقيه كمسلات القنفذ وفي آخر المطاف عندما أفرغ الساحة من المقاتلين الذين قضى عليهم، أبصرته يطير طرباً بخفة عجيبة كأنه راقص أفريقي ماهر يهز مسلّات رجليه الدامية كما يهز الراقص اجراس خلخاله. وكثيراً ما، تحت مظاهره الخبيثة كأحد أفراد كارن المشعثيّ الشعر، تحدّث الى الأعداء، وقبل أن يفتضح أمره رجع لينبئ بخيانتهم. هذا الشيطان سيحلّ محلي هنا، بسحنته وصوته المجلجل الذي يشبه جون مرتيمور قبل أن تختطفه المنيّة. ومن هنا سأشاهد استعدادات الشعب ومقدار استلطافه لأسرة يورك وألقابها. فعلى افتراض انه مهووس ومتعجرف ومزعج، ورغم كل التضييقات المفروضة عليه، أنا على يقين بأنها لن تدعه يبوح بأني أنا الذي دفعته الى حمل السلاح. ولنفترض أنه نجح كما يغلب ظني، حينئذ أعود من ايرلندا بقوّاتي وأجمع محصود ما زرعه هؤلاء الأنذال، ويكون هنري قد أزيح من طريقي وسيطرت أنا على الموقف.

(يخرج).

المشهد الثاني

في بري، داخل القصر

(يدخل اثنان من القتلة باندفاع).

القاتل الأول : اسرع، يا لورد سوفولك، واعلم بأننا قضينا على الدوق طبقاً للأوامر التي تلقيناها.

القاتل الثاني : هل حقاً أُنجزت المهمة؟ ماذا جرى؟ هل سمعت في حياتك كلاماً أبهج من هذا؟

(يدخل سوفولك).

القاتل الأول : ها أنا ذا يا مولاي اللورد، رهن إشارتك.

سوفولك : هل فعلاً بلغنا الغاية المنشودة؟

القاتل الأول : نعم، أيها اللورد الكريم، لقد أزهقت روحه.

سوفولك : هذا رائع. اذهبا وانتظراني في قصري. سأكافئكما على عملكما الجريء. فالملك وجميع النبلاء هم قريبون من هنا. هل رتبتما السرير؟ هل تمّ كل شيء حسب تعليماتي؟

القاتل الأول : أجل، أيها اللورد الجليل.

سوفولك : هيا اذهبا بسرعة.

(يخرج القاتلان).

(تسمع موسيقى. يدخل الملك هنري والملكة مرغريت والكردينال بوفور وسومرست واللوردات وشخصيات أخرى).

الملك هنري : أُمْضِ، واطلب من عمي أن يحضر اليّ. قل له انني ارغب في محاكمة الدوق اليوم لأرى إن كان مذنباً كما يشاع عنه.

سوفولك : انا ذاهب لاستدعائه في الحال، يا مولاي النبيل.

(يخرج).

الملك هنري : أيها اللوردات، استريحوا في أمكنتكم، وأرجوكم أن تتصرفوا بدقة وحكمة حيال عمي كلوسستر، كما أطلب ذلك من الشهود المحترمين الذين سيؤكدون أو ينفون سوء سلوكه.

الملكة مرغريت : لا سمح الله أن يكون أي أثر للحقد في الحكم على سيد كبير بريء. وكل أملي أن يأتي خالياً من كل تصرف مريب.

الملك هنري : اشكرك يا مرغريت على هذا الكلام الرصين الذي أعجبني كثيراً.

(يدخل سوفولك).

ما الأمر؟ لماذا أنت شاحب الوجه هكذا؟ لماذا ترتجف؟ أين عمي؟ ماذا جرى يا سوفولك؟

سوفولك : مات كلوسستر، يا مولاي. فارق الحياة وهو في سريره.

الملكة مرغريت : آن! نجنا يا الهي!

الكردينال : هذا حكم سرّي أصدره الله عليه. لقد حلمت هذه الليلة بأن الدوق أصابه البكم، ولم يعد يستطيع أن ينبس ببنت شفة.

(يغمى على الملك).

الملكة مرغريت : ماذا حلّ بمولاي؟ النجدة أيها اللوردات. مات الملك.

سومرست : اجلسوه جيداً على مقعده. واقرصوا له لحمه، لنرى ردة الفعل.

الملكة مرغريت : اسرعوا الى نجدته. النجدة، النجدة. آه! يا هنري، افتح عينيك.

سوفولك : ها قد عاد الى وعيه. هدّئي روعك، يا سيدتي.

الملك هنري : يا الهي، ماذا حدث لي؟

الملكة مرغريت : كيف صرت، يا مولاي الكريم؟

سوفولك : تشجّع، يا مليكي. تجلّد، يا عزيزي هنري.

الملك هنري : ماذا اسمع؟ هل حقاً أرى لورد سوفولك يشدّد عزيمتي؟

منذ هنيهة جاء يدمدم كالغراب نعيقاً مريعاً شلّ جميع قواي الحيوية. وهو يظنّ أن هديل قبّرة، كهذا الرياء الخارج من قلب كالصخر الأصم، يستطيع أن يبدّد عني شدة تأثري للوهلة الأولى. لا تخفِ سمومك وراء هذا الكلام المعسول. لا أريد أن تلمسني يدك، بل أقول لك : ابتعد عني. اغرب عن نظري يا رسول الشؤم، لأني أرى في عينيك البطش الغادر معشعشاً بهوله الشنيع الذي يرهب الأذهان. لا تنظر اليّ هكذا، لأن عينيك تجرحان قلبي، مع ذلك لا تذهب، بل اقترب أيها المسخ، واقتل بلحظك الرجل الشريف البريء الذي يتأملك في هذه اللحظة الحاسمة لأني في أحضان المنيّة سألاقي البهجة والأمان. فالحياة بالنسبة إليّ لم تعد إلا موتاً مزدوجاً، منذ أن رحل كلوسستر عن هذه الدنيا.

الملكة مرغريت : لماذا تهين هكذا لورد سوفولك؟ وإن كان الدوق عدوّه، فإني آسف جداً لموته. أما أنا، فمهما كان في نظري معادياً، وإن ذرفت سيلاً من الدموع، وصعّدت من الزفرات ما يمزّق الفؤاد، ومن الآهات ما ينشّف الدم حتى لو ردّت اليه الحياة، أنا مستعدة لتقبّل العمى من شدة نحيبي وللمرض من شدة كمدي، وللاصفرار نظير اوراق الخريف من شدة قهري، كي أعيد الدوق النبيل الى الحياة. من يدري ما يسع الناس أن يفكروا به عني. فالمعروف أننا كنا صديقين غير حميمين، وربما ظن البعض أني انا التي قضيت على الدوق. وهكذا ستشوه سمعتي ألسنة النميمة، وبلاطات الأمراء المتلهيّة ستلوك ما تلصقه بي من العار. هذا ما ينوبني من موته. فكم أنا تعيسة لكوني ملكة باتت تتوجها الدناءة.

الملك هنري : مسكين أنت، يا كلوسستر. ما أشقاك!

الملكة مرغريت : مسكينة أنا، ما اسوأ حظي! عليّ أن أدير وجهي وأخفيه عن الأنظار. أنا لست مصابة بالبرص المعدي انظروا اليّ.

هل أصبحت مكروهة كالأفعى؟ ألاَ كن ساماً مثلها واقتلني انا الملكة الملوّعة. هل أضحى هناؤك مدفوناً معك في القبر، يا كلوسستر؟ في هذه الحالة، أنا السيدة مرغريت، لم أدخل أبداً أي سرور الى قلبك. أرفع تمثال الدوق وأعبده، واجعل من صورتي عنوان خمّارة بذيئة. فهل لأجل ذلك كدت أن أغرق في البحر، وقذفتني الرياح مرتين من شاطئ انكلترا الى سواحل بلادي؟ هذا ظنّ لا غير، بل تنبيه سماوي من الجوّ يقول لي : لا تبحثي عن جحر العقرب، ولا تطإي بقدمك بعد اليوم هذا الشاطئ الجاحد. ماذا كنت أفعل أنا؟ كنت ألعن ثرثرات الأصدقاء ومن أطلقها من قمقمها النحاسي. وكنت أقول لهم أن يهبّوا نحو الشاطئ الانكليزي المبارك، أو أن يقذفوا بسفينتنا الى صخرة هائلة. لكن، « إيول » اله الرياح لم يشأ أن يصبح قاتلاً، فترك لك هذه المهمة الفظيعة. فرفض البحر المتموّج برفق، وأبى أن يبتلعني لأنه كان يعلم أنك ستغرقني بشراستك، وأنا على اليابسة، في دموع مريرة نظير أمواجه المتلاطمة. فغاصت الصخور المجوّفة في الرمال المتحركة، وامتنعت عن تحطيمي على جوانبها الخشنة ليتمكن قلبك المتحجر كالصوّان من إهلاك مرغريت في قصرك. وطالما كنت أميّز الشواطئ الصخرية، كانت العاصفة تبعدنا عن الساحل، فوقفت على متن السفينة وسط العاصفة، وعندما غابت السماء المظلمة عن عيوني التواقة الى رؤية بلدك، انتزعت من عنقي جوهرة ثمينة، وكانت عبارة عن قلب محاط بأحجار الماس رميته من يدي فطواه البحر وتمنيت حينئذ أن يرحب صدرك هذا بقلبي. وعلى هذا الأساس، بعد أن غابت انكلترا الجميلة عن بصري، حرّمت على عيوني أن تتبع قلبي، وقد وصفتها بأنها نظارات عميان مشوّشة، لأنها فقدت هكذا منظر ساحل ألبيون الذي كنت أتوق اليه.

كم من مرة دعوت سوفولك، وهو صنيعة عدم استقرارك الأسود، الى الجلوس بجانبي والى سَحْري برواياته الرائعة، كما فعل في الماضي « أسكاني » الذي قصّ على « ديدون » المهووسة ما أتاه والده من أعمال في طروادة المشتعلة. أولست أنت أيضاً، تحت تأثير السحر نظيرها؟ أولست جاحداً مثله؟ واأسفاه! لم أعد أقوى على التحمّل أكثر من هذا. فموتي اذاً، يا مرغريت لأن هنري يبكي بسبب رويتك تعيشين طويلاً.

(تسمع ضجة من داخل المسرح. يدخل ورويك وسالزبري ويتزاحم الناس على الأبواب).

ورويك : يقال، يا مولاي القدير، أن دوق همفري الكريم قد قتل في خيانة حرّض عليها سوفولك والكردينال بوفور. واذا بالشعب نظير قفير نحل هائج فَقَدَ ملكته، انتشر في جميع الجهات، وأضحى على أتم الاستعداد لعقص أي كان انتقاماً. لقد تمكّنت من امهال انفجار غضبه حتى يطّلع على ظروف هذه الميتة الغامضة.

الملك هنري : مات الدوق، يا ورويك الكريم. وهذا نبأ صحيح لا يقبل أدنى شك. لكن كيف مات؟ الله يعلم. أما أنا هنري فلا أدري. أدخل غرفته وافحص جثته الهامدة وفسّر لي هذا اللغز المفاجئ.

ورويك : ها أنا أروي لك كيف يا مليكي. ابقَ هنا، يا سالزبري، ابقَ مع جماعة المشاغبين حتى أعود.

(يذهب ورويك الى غرفة داخلية وينسحب سالزبري).

الملك هنري : أنت يا من تدين كل الناس، غيّر أفكاري المرهقة وأقنع نفسي الحائرة بأن لا أيادي عنيفة حاولت ازهاق روح همفري. فاذا خاب ظني، سامحني يا إلهي لأن الدينونة من

خصائصك وحدك. كم أود أن أمضي لأدفئ وجنتيه الشاحبتين بعشرين الف قبلة وأغسل وجهه العابس بسيل من الدموع الحرّى، وأعلن تعلقي به أمام جسمه الأبكم الأصم، فيشعر بيدي تُلامس يده الفاقدة الحسّ. لكن كل هذا العطف المفرط صار باطلاً، ومنظر صورته الأرضية الفانية تضاعف آلامي.

(يُعْرَض سرير عليه جسم كلوسستر ممدداً).

وارويك : اقترب، يا مليكي الكريم، والقِ نظرة على هذا الجسم.

الملك هنري : كي أرى قبري العميق حيث دفنتْ أفراحي الأرضية مع روحه، وإذ أشاهده، أبصر حياتي في قعر حفرة الموت.

وارويك : بقدر ما تأمل نفسي في العيش برفقة ملك مبجّل، كان يؤمّن لنا وجودنا ويخصلنا من غضب أبيه، أعتقد بأن يديه الطاهرتين حاولتا القضاء على حياة هذا الدوق الواسع الشهرة والجاه.

سوفولك : هذه موعظة مخيفة تُلقى بصوت جهوري. فما هي البراهين التي يقدمها لورد وارويك على صحة ما أعلنه؟

وارويك : انظر كيف صعد الدم الى وجهه. كثيراً ما شاهدت خلائق مائتة موتاً طبيعياً، أجسامها بلون الرماد، هزيلة شاحبة لا رونق لها، وقد انكفأ دمها بكامله نحو القلب المنازع الذي يلتمس في عراكه مع المنون نجدة تعينه للتغلب على محنته. فيجمد الدم عندئذٍ مع القلب ولا يعود يصبغ الوجنتين ويحلّيهما باحمراره. لكن انظر الى محياه المكفهرّ المنتفخ كمداً، والى مقلتيه الجاحظتين الغريبتين عما كانتا عليه وهو حيّ، وهما جامدتان وجلتان كأنهما تخصان رجلاً مخنوقاً، وشعره المنتصب وأنفه المتصلّب من شدّة التشنج، ويداه ممتدتان نظير من يدرأ الخطر دفاعاً عن حياته المهددة وقد شلّ الغدر حركته. انظر الى هذا الشعر المبعثر الملتصق

بالوسادة، والى لحيته المرتبة عادة، كيف شتّتها التشعيث وقد انتصبت كالقنفذ المرتعد، نظير سنابل القمح التي طرحتها العاصفة أرضاً وبدّدتها سيول الأمطار. من غير الممكن أن لا يكون قد قتل : لأن أصغر هذه الدلائل يشكل برهاناً على مصرعه العنيف.

سوفولك : من قتل الدوق، يا ورويك، أنا وبوفور كنا وضعناه تحت حمايتنا، ونحن لسنا مجرمين، يا سيدي، على ما أعتقد.

ورويك : لكنكما كلاكما كنتما عدوّين لدودين لدوق همفري. وكان هو في الواقع تحت حراستكما. فمن الأرجح أن لا تكونا راضيين عن اعتباره صديقاً، فلقي، على ما يظهر، من يناصبه العداء فقُضي عليه.

سوفولك : المبكر الذي حصد دوق همفري.

ورويك : من منا اليوم، إذا رأى نعجة مذبوحة تتخبّط بدمها والى جانبها جزار وسكين، لا يتهم هذا الجزار بأنه هو الذي ذبحها؟ أجل، من منّا لا يرى الصقر في عش الحمامة ولا يحزر كيف ماتت، رغم أن الطائر الكاسر لا يكون منقاره ملوثاً بالدم. وهذه المأساة التي شهدناها لا تختلف في الاتهام عما ورد ذكره الآن.

الملكة مرغريت : فهل أنت هذا الجزار، يا سوفولك؟ أين سكينك؟ وهل بوفور هو الحمامة؟ ثم أين مخالبك؟

سوفولك : أنا لا سكين عندي لذبح الناس النيام. إنما هذا سيفي المنتقم الذي أكله الصدأ لأني لم أشهره منذ زمن طويل. لكني سأغمده في صدر كل حاقد نمّام يوجه إليّ تهمة القتل الدنيئة. تجاسر إذاً، يا لورد ورويك شاير المتشامخ، على القول إني مجرم، وإني قتلت دوق همفري.

(يخرج الكردينال وسومرست وغيرهما).

وورويك : ما الذي لا أجرؤ على عمله أنا وورويك، إذا تحدّاني الجاحد سوفولك؟

الملكة مرغريت : لن يسعك أن تتمالك حتماً فورة مزاجك المهان، ولا الغضبة لكرامتك المداسة.

وورويك : أرجوك، يا سيدتي، أن تصمتي. هذه نصيحتي لك بكل احترام. لأن كل كلمة تتفوّهين بها لصالحه تضرّ بمقامك الملكي الرفيع.

سوفولك : أيها اللورد الخشن الطباع، الفظّ السلوك، إذا أهانت امرأة سيّدها الى هذا الحدّ، تكون والدتك هي التي استقبلت في سريرها صعلوكاً من شذّاذ الآفاق وطعّمتْ جذعاً نضيراً بغصنٍ برّي أنت ثمرته، لأنك لا تنتمي مطلقاً الى ذريّة آل نافيل العريقة المنبت.

وورويك : لو لم يظلْلكَ جرم القتل، ولو خشيت أنا أن أحرم الجلاّد من أجره، وأن أنتشلك من التلبّس بألف عار، ولو لم يفرض حضور مليكي عليّ التزام الهدوء لكنت أجبرتك حالاً، أيها السفّاك الخسيس الجبان، على الرجوع أمامي وطلب الصفح مني عمّا تلفّظت به الآن، وعلى الإقرار بأنك كنت تتكلم عن أمك، وأنك أنت اللقيط الذميم الذي ألمحت اليه. وبعد هذا الصنيع الذي يدل على الخوف، انفحك أجرك وأرسل روحك الى الجحيم، يا حقير، يا مصّاص دماء الرجال النيام.

سوفولك : ستكون أنت مستيقظاً عندما سأهدر دمك، إذا تجرأت على الخروج معي الآن من هنا.

وورويك : هيا بنا على الفور، أو أقتلعك أنا من هذا المكان، كما يُقتَلَع العلّيق. ومهما كنت بلا كرامة، سأنازلك وأثأر لشرف دوق همفري ضحيتك.

(يخرج سوفولك ووورويك).

الملك هنري : أي درع أمتن من القلب النقي؟ إنه أصلب الدروع طرًّا، ما دامت قضيته عادلة. أما من يلطخ ضميره بالانحطاط والقلق، فهو في الواقع مجرّد من أي درع، وإن كان مسلحاً بصفائح من الفولاذ.

(تسمع ضجة من داخل المسرح).

الملكة مرغريت : ما هذا الضجيج؟

(يدخل سوفولك ووروبك وسيف كل منهما مستلّ).

الملك هنري : ما معنى هذا، أيها اللوردات، وقد جرّد كل منكما سيفه هنا بوجه الآخر أثناء حضوري؟ هل بلغت بكما الجسارة هذا الحدّ؟ وما سبب هذه الضجة الصاخبة؟

سوفولك : مولاي، ان ورويك ورجال « بري » يهاجمونني بأجمعهم، يا صاحب الجلالة القدير.

(تسمع أصوات جمهور من داخل المسرح، يدخل سالزبري).

سالزبري (للجمهور) : ظلوا على الحياد، يا سادة. فالملك سيستمع الى أقوالكم. وأنت أيها المولى المعظّم، يود عموم الشعب أن يبلغوك، إذا لم تعاقب الخائن سوفولك حالاً بالموت أو بالنفي الى خارج بلادنا الجميلة انكلترا، إنهم جميعاً سيُقدمون يداً واحدة على اقتلاعه من القصر بالعنف ويزهقون روحه، بعد أن يذيقوه مرّ العذاب. يقول الأصدقاء أنه هو الذي سبب موت دوق همفري، وأنهم يخشون أن يقدم على قتل جلالتك أيضاً لأنهم يكنّون كل مودّة ووفاء لشخصك المفدّى، نظراً الى ما يعصف في نفوسهم من روح النقمة والتنديد بتصرفات هذا الوقح السافل الذي يطلبون إبعاده حفاظاً على حياتك الغالية يا صاحب الجلالة. وإلّا لما كانوا أزعجوا ما تروم

أن تخلد اليه من الراحة والنوم الهني. مع ذلك، كن على يقين، يا صاحب الجلالة، بأن قرارهم لا رجوع عنه في ما يخص حماية حياتك من الحية الرقطاء التي تمدّ لسانها الى جلالتك لتلسعك في هدأة الليل وتحوّل ما تتوخاه من راحة في النوم الى رقاد أبدي، لا قدّر الله. لذلك هم يهتفون بأنهم مصمّمون على صيانة سلامتك الغالية شئت أم أبيت، من هذه الأفعى السامة المتجسدة في الخائن سوفولك ذي الأنياب الحادة التي نفثت السم القاتل في عروق عمك الحبيب وحرمته الحياة، وهو يساوي عشرين مرة هذا الحقير النتن.

الشعب (من داخل المسرح) : نريد جواب الملك، يا لورد سالزبري.

سوفولك (لسالزبري) : عجيب أمر هذا الشعب المغفّل الشرس، الذي يبعث بمثل هذه الرسالة الى مليكه. وأنت يا مولاي، لم ترَ من غضاضة على نقلها بنفسك لتظهر براعتك وفصاحتك الخطابية. إنما ما كسبه سالزبري من شرف هو وجوده الى جانب مولاي الملك كسفير هذه الجماعة من صانعي القدور الرخيصة.

الشعب (من داخل المسرح) : نريد جواب الملك، أو نخلع الأبواب عنوة للدخول إليه.

الملك هنري : هيا، يا سالزبري، قل لهم جميعاً من قبلي اني أشكرهم على مودتهم وعطفهم، فأنا كنت مزمعاً أن ألبّي رغبتهم لو لم يطلبوا مني ذلك. لأني في الحقيقة أشعر في أعماق نفسي بأن سوفولك يهدّدني ويهدّد كيان المملكة بشرّ مستطير. وبناء على ذلك أقسم لهم بجلال من أمثّله أنا على الأرض بدون استحقاق، بأنه لن يلوّث هواء هذه البلاد أكثر من ثلاثة أيام سيلاقي بعدها حتفه المحتوم.

(يخرج سالزبري).

الملكة مرغريت : يا عزيزي هنري، دعني أشفع بحياة سوفولك الذي يستحق كل إكرام.

الملك هنري : تبًّا لك من ملكة عديمة الكرامة. كيف تجسرين على القول إن سوفولك يستحق كل إكرام؟ قلت لك اصمتي، وإذا واصلتِ شفاعتك لإنقاذه فلن تزيدي غضبي إلا اشتداداً. إني مصمّم على تنفيذ ما أعلنته، وأنت تعلمين جيداً أن ما أقسم على إجرائه لا رجوع عنه. فإذا وجدت نفسك بعد ثلاثة أيام على أرض تابعة لمملكتي، فإن العالم بأجمعه غير قادر على إنقاذ حياتك. تعالَ، يا عزيزي ورويك، تعالَ يا ورويك الفاضل لأخرج وإياك، لأني أودّ أن أطلعك على أمور هامّة.

(يخرج الجميع ما عدا الملكة وسوفولك).

الملكة مرغريت : ليلازمكما الحزن والشقاء، وليصحبكما اليأس المرير، وليكن إبليس ثالثكما وليقضِ الانتقام المثلث عليكما معاً.

سوفولك : كفّي أيتها الملكة العزيزة عن هذه الأدعية، واتركي خادمك الأمين سوفولك يودّعك والأسى يحزّ في قلبه.

الملكة مرغريت : سحقاً لك يا شبيه أحقر النساء، يا أحطّ الجبناء. أوليست لديك الجرأة لتلعن أعداءك؟

سوفولك : ليحصدهم منجل الطاعون. لكن لماذا ألعنهم؟ لو كانت اللعنات تقتل نظير ما تسببه حشيشة سامّة لابتكرت أفظع الألفاظ النابية الجارحة وقذفتها وأسناني تصطكّ هياجاً مع سائر إمارات الحقد الذي لا يرحم كالحسد البغيض المعشعش في صدر اللئيم. لن يعجز لساني عن رمي كلامي كالحصى، وعيوني ترسل شرر الغضب كالسهم المارق، وشعر رأسي يهب منتصباً كأني مصاب بمسّ من الجنون. أجل كل قطعة من عضلاتي ستختلج باللعنات والسباب وسينفجر قلبي بين ضلوعي من ثورة الغيظ إذا توقفت عن صبّ اللعنات عليهم.

فليصبح السم شرابهم والعلقم، بل أمرّ من العلقم، أشهر مذاقهم، وأخف ظلالهم أصلب من خشب السرو، وأبهج مشاهدهم كوابيس رهيبة خانقة، ولتنقلب ألطف لمساتهم الى لسعات أفعى، وأرق موسيقاهم الى أفظع من فحيح الحيّات ونعيب البوم الذي يوحش لياليهم، ولتلفّهم جميع الظلمات المخيفة المتصاعدة من أعماق الجحيم.

الملكة مرغريت : كفى، يا سوفولك، كفاك ما تعذّب به نفسك هكذا. إن هذه الأقوال المدمّرة، هي كالشمس المحرقة التي تنعكس أشعتها في المرآة أو كالسيف المسدّد لا يلبث كيده أن يرتد الى نحرك.

سوفولك : لقد طلبت مني منذ لحظة، أن أصبّ لعناتي عليهم، وها أنت توصينني بأن ألوذ بالصمت. آه! ما أشقاني على هذه الأرض التي أُقصيتُ عنها. يسعني أن أصبّ لعناتي طوال ليلة شتاء مديدة، وأنا واقف عارياً على قمة جبلٍ، قساوة برده لا تتيح للعشب أن ينمو، ولن يكون لي ذلك سوى لعبة تدوم لحظة واحدة.

الملكة مرغريت : أرجوك، بل أتوسل إليك أن تكفّ عن الكلام. هات يدك لأسقيها بدموعي الأليمة. ولا تدع مطر السماء يبلّل هذا المكان ويغرق صروح تفجعي هذه. (تقبّل يده) كم أتمنى أن أطبع قبلاتي على يدك لعلّها تذكرها بمودتك لي وتحلم خواطرك بشفتيّ هاتين اللتين تجودان بألوف التنهدات لأجلك. اذهب الآن، وقد عرفت شقائي الذي كنت أتحسّس به وأنت بقربي، تماماً كمن يشعر بالحرمان وهو سابح في بحر من البحبوحة والرخاء. سألبّي نداءَك، فكن على يقين بأني لن أخشى أن أتعرّض للنفي أنا أيضاً. ها أنا منفية منذ هذه الساعة إذا ابتعدتَ أنت عني. امضِ ولا تكلمني بعد الآن، هيا امضِ حالاً. لا، لا. انتظر قليلاً. هكذا يتعانق

صديقان حكم عليهما بالفراق ويقبّل أحدهما الآخر قائلاً له ألف ألف وداع، وهو مستعدّ للموت أكثر من مئة مرة بسبب البعد عنه. مع ذلك أقول لك الوداع، وأنا أودّع في الآن ذاته حياتي التي تذهب معك.

سوفولك : هكذا أنا المسكين سوفولك أشعر في أعماقي بأني منفي عشر مرات، مرة بأمر الملك، وتسع مرات من جراء فراقكِ أنتِ. لن تهمني بلادي إن لم أكن فيها قريباً منك. وسأجد الصحراء القاحلة تغصّ بالسكان إذا بقيت فيها أنا سوفولك في ظل عطفك الحنون. لأن العالم سيزخر بالأنس وبجميع الملذّات حيث أكون بصحبتك، وسيتحول الى ظلام موحش إذا كنت بعيداً عن شخصك الحبيب. لم يعد لي من طاقة على الاصطبار. فأحْيَيْ أنتِ وانعمي بالأفراح. أما أنا فبهجتي الوحيدة هي أن تظلي أنت على قيد الحياة.

(يدخل فوكس).

الملكة مرغريت : يا فوكس، أين أنتَ ذاهب هكذا مستعجلاً. أرجوك أن تعلمني ما الخبر؟

فوكس : جئت أعلن لجلالته أن الكردينال بوفور ينازع ويوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. فإن مرضاً عضالاً أصابه فجأة. وهو يلهث ويسهو ويتنشق الهواء بصعوبة ويلعن ويسبّ جميع رجال الأرض، تارة يتكلم كأن شبح دوق همفري يطارده، وطوراً ينادي الملك. وإذا يظن أنه يوجّه اليه الحديث يهمس في أذنه أسرار نفسه المعذبة. فأُرسلتُ الى جلالته لأنه ينادي بصيحات يائسة.

الملكة مرغريت : هيا انقل الى جلالته هذه الرسالة الحزينة (يخرج فوكس) : واأسفاه! ما هذه الدنيا، ما الخبر؟ هل عليّ أن ألبس ثياب الحداد ردحاً من الزمان، أو أنسى نفي سوفولك، كنز قلبي الكئيب؟ ألا تسمعني يا سوفولك؟ لم يبقَ أمامي سوى أن

أتلهّف على ذكرك أنت وحدك، وأن تسابق دموعي انهمار الأمطار في رابعة النهار، وأن أندب مرّ عذابي كما تشتاق هي الى إرواء الأرض. والآن، اذهب. أنت تعلم أن الملك سيأتي، فإن وجدك الى جانبي فموتاً تموت.

سوفولك : إذا ابتعدت عنك، لن أستطيع أن أعيش أبداً. وإن متّ أمام عينيك سيكون عزائي أن تنطفئ شعلة حياتي بسرور، وأنا ألقي رأسي على ركبتيك. فهنا يمكنني أن ألفظ روحي بلطف وهدوء كما ينام الطفل في حضن أمه وهو يرضع ثديها بأمان. لكني بعيداً عن أنظارك سيصيبني مسّ من الجنون والغيظ، وسأناديك بصوتٍ عالٍ لتغمضي جفنيّ بأناملك الناعمة وتطبعي قبلاتك الحلوة على شفتيّ فتستلمي روحي وهي صاعدة وتتنشقيها الى أعماق صدرك، وتعيديها الى الوجود في رحاب جنة العشاق. فالموت بقربك ليس سوى هناء وغبطة، وبعيداً عنك هو عذاب أمرّ من العلقم. بالله عليك، دعيني أظلّ الى جانبك وليحدث ما كتب لي في سجل الأقدار.

الملكة مرغريت : اذهب، مهما كان هذا الفراق عسيراً، ودعني أعضّ جرحي القاتل. إمضِ الى فرنسا، يا عزيزي سوفولك، ولا تؤخّر عليّ أخبارك المطمئنة. لأنك حيثما حللت على وجه البسيطة هناك سوسنة تلقاك وتذكرني بك.

سوفولك : ها أنا ذاهب.

الملكة مرغريت : ومعك يذهب قلبي.

سوفولك : هو جوهرة ثمينة مخبأة في عتمة صندوق لم يحوِ أثمن منها وكمركب ينشطر الى قسمين، هكذا قلوبنا تفترق محطّمة ثم في هذه البقعة أسقط بين أشداق الموت الرهيب.

الملكة مرغريت : وأنا أسقط في بقعة أخرى.

(يخرجان من جهتين مختلفتين).

المشهد الثالث

في لندن، داخل حجرة نوم الكردينال بوفور.

(يدخل الملك هنري وسالزبري وورويك وغيرهم. بينما الكردينال بوفور يكون مستلقياً على سريره، يحيط به بعض الناس).

الملك هنري : كيف حالك يا مولاي؟ تحدث يا بوفور الى مليكك.

الكردينال : لو كنت أنت الموت لدفعت لك كنوز انكلترا الكافية لشراء جزيرة أخرى بشرط أن تدعني أحيا وأن ينتهي عذابي.

الملك هنري : هذا دليل على ما تعانيه من حياة تعيسة لا سيما عند تأخر موعد الموت الرهيب.

ورويك : ها هوذا مليكك يكلمك.

الكردينال : حاكموني متى شئتم. لست أدري إن مات في سريره! أينما كان عليه أن يقضي نحبه؟ هل أستطيع أن أدع الناس يعيشون شاؤوا أم أبوا؟ لا تزيدوا في تعذيبي، سأبوح لكم بكل ما ترومون معرفته. هل عاد الى الحياة؟ اذاً أروني اياه وسأدفع الف دينار لقاء مشاهدته. هو لا عيون له فلقد أعماه التراب. ملّسوا له شعره. انظروا، انظروا. ها هو شعره ينتصب كأنه مدهون دبقاً لكي يمسك بروحي وهي تصعد من صدري. أبلغوا الصيدلي أن يأتي بالسمّ الذي اشتريته منه واسقوني.

الملك هنري : أنت يا من يرعى السماوات والأرض، ألقِ نظرة اشفاق على هذا البائس الشقيّ. هيا اطرد الشيطان الرجيم الملحاح الذي يحاصر بخبثٍ نفس هذا المعذب المسكين، وطهّر قلبه من رجس اليأس والقنوط.

ورويك : علينا أن لا نضايقه وأن ندعه يعبُرْ بسلام.

الملك هنري : لتخرج نفسه بأمان، إن كانت هذه مشيئة الله. يا مولاي الكردينال اذا كنت تفكر بالاخدار السماوية، ارفع يدك كعلامة

أمل ورجاء. هو يموت الآن بدون أن يبدي أية اشارة. سامحه، يا الهي.

وورويك : ان ميتة شنيعة كهذه، هي برهان ساطع على حياة جهنمية.

الملك هنري : لنتجنب الادانة. لأننا كلنا خطأة. أغمضوا له عينيه، وأسدلوا حوله الستائر، وهيا بنا نذهب للتأمل بعض الوقت.

الفصل الرابع

المشهد الأول

في كونتيّة كنت، على شاطئ رملي قرب دوفر

(ينتشر العسق. يسمع صوت طلقات نارية من جهة البحر. ثم يُشاهد مركب ينزل منه ربّان وبحّار ثم ولتر ويتمور وغيرهم، ومعهم سوفولك متنكراً وسواه من الوجهاء كسجناء).

الربّان : ها هو الصبح ينبلج بطيئاً متثائباً، وينتشر نوره على صفحة البحر. وها هو موعد عواء الذئاب لايقاظ التنّين الذي يجرّ وراءه ليل المأساة الكئيبة، ويمسح غبار النوم بأجنحته الكسلى المتراخية عن جفون البشر ويمدّ شدقيه في ضباب الأجواء من خلال رهبة الظلمات. خذوا اذاً رجال الحرب الذين أمسكناهم منذ برهة، بينما يلقي زورقنا مرساته ليقف بمحاذاة كثبان الرمل، فيتفقون على مقدار فديتهم في هذا المكان بالذات على الرمال حيث تصطبغ بدمائهم أرض هذا الشاطئ الذي قد تغيّر لونه. أيها الملاح، ها أناذا أترك لك سجيني فأجعله غنيمتك. اما ذاك السجين فهو من نصيبك يا ولتر ويتمور.

(يشير الى سوفولك).

الوجيه الأول : كم هو مبلغ فديتي، أيها الملاّح؟
البحار : الف دينار، وإلا قطعت عنقك. (للوجيه الثاني) وأنت ستدفع لي مثله، أو يتدحرج رأسك عند قدميك.
الربّان : هل تجدون الثمن باهظاً وهو الفان من الدنانير فقط، وأنتم تتظاهرون بالوجاهة والغنى؟ اذبحوا، يا جماعة، هذين البليدين. أجل، لا بد من أن تموتا، هل تظنان أننا لقاء من فقدناهم من الرجال أثناء المعركة، نستعيض عنهم بمبلغ زهيد كهذا؟
الوجيه الأول : أنا أدفع حصتي، يا سيدي. فدعني أحْيَ.
الوجيه الثاني : أنا أيضاً سأدفع حصتي، يا سيدي. انما لكي أحصل على المبلغ دعني أكتب الى أهلي حالاً.
ويتمور (لسوفولك) : لقد فقدت عيناً في الاشتباك الذي جرى، ومقابل ذلك ستموت أنت. وهذا ما سيحلّ أيضاً بالآخرين، لو كنت أنا السيد هنا.
الربّان : لا تكن هكذا قاسياً. اقبل الفدية واتركه يعشْ.
سوفولك (مشيراً الى عقده) : انظر الى هذه القلادة التي تمثل الفارس جاورجيوس. أنا وجيه، فاطلب مني ما تشاء من المال. لماذا ترتجف؟ هل تخاف الموت يا هذا؟
سوفولك : أنا أرتعد لذكر اسمه الذي يرنّ في أذني كدويّ الرعد. لقد استخلص احد العلماء حظي من الأبراج الفلكية وأنبأني بأن مصيري أن أموت غرقاً في الماء. فأرجوك أن لا تكون دموياً، ما دام اسمك « ولتيه »، إن أحسنت لفظه.
ويتمور : ان كان « ولتيه » أو « ولتر »، هذا لا يهمني. لأن اسمي لم يلحق به يوماً أي عار لألجأ في محوه الى حدّ السيف. وان ساومت على الانتقام فلينكسرْ سيفي ولينتزعْ سلاحي من يدي ويلطخْ بالمذلة وليعْلن على الملأ أني جبان حقير.

(يمسك بسوفولك).

سوفولك : قف عندك يا ويتمور، لأن سجينك، شخصي الكريم، أنا الأمير وليم بول دوق سوفولك.

ويتمور : دوق سوفولك المتنكّر بالأسمال البالية.

سوفولك : نعم، ولكن هذه الأسمال البالية هي الآن جزء من الدوق. فان الإله المشتري تخفّى أحياناً بزي من الأزياء. فلماذا لا أتنكّر أنا أيضاً.

الربّان : انما الاله المشتري لم يرتكب أية جناية قتل، وأنت مزمع أن تقتل.

سوفولك : سحقاً لك من لص متشرّد. ان دم الملك هنري دم نبيل من اسرة لنكاستر، ويجب أن لا يهرق في سبيل خادم اسطبل مثلك. أولم تمسك بركاب حصاني مراراً بعد أن لثمت يدي؟ وكنت تسير عاري الرأس بقرب بغلتي المسرجة وكنت سعيداً جداً لدى الايماء لك برأسي. كم من مرّة ملأت لي كأسي وأكلت من فضلات طعامي الذي قدمته لي وأنت تجثو على ركبتيك، عندما كنت أولم المآدب مع الملكة مرغريت! كم من ذكريات تجعلك تحني هامتك وتطأطئ كبرياءك كطرح بغيض! كم من مرة بقيت تنتظرني باحترام في مدخل قصري الى أن أخرج اليك! ان يدي التي، بمجرد توقيعي على صكٍّ، قد خصّتك بنعم وافرة يمكنها الآن بسحر ساحر أن تقطع لسانك الوقح الطويل.

ويتمور : تكلم أيها الربّان. هل أطعن بخنجري صدر هذا المتطاول المتبجّح؟

الربّان : دعني أولاً أطعنه بخنجر كلامي كما جرحني بألفاظه البذيئة.

سوفولك : تباً لك من شريد حقير. ان كلامك سخيف بقدر ما أنت عليه من غباوة.

الربّان : خذه من هنا، واقطع له رأسه على حافة المركب.
سوفولك : لن تجسر على ذلك، لأنك ستسبقني الى ما تنوي عمله بي.
الربّان : بل اجسر، يا بول.
سوفولك : بول؟
الربّان : بول؟ سير بول؟ لورد بول؟ بل دجاجة ماء ملطخة بالوحل، توحي بالنتانة والقذارة، كما يوحي به اسمك الذي تنبعث منه أكره الروائح كمجاري القاذورات التي تزكم الأنوف في انكلترا. سأقفل إذاً فمك المفتوح فتبلع أموال الملكة. أما شفتاك اللتان قبّلتا الملكة فإنهما ستعفّران بتراب الأرض. وأنتِ التي كنت ترسمين الابتسامة على وجه دوق همفري، عبثاً تصرفين بأسنانكِ في وجه الرياح العاتية التي تستجيب الى صفيرك المزدري. اذهبي وانضمي الى ساحرات جهنم لأنك تجاسرتِ وعقدتِ خطبة أمير قدير على ابنة ملك مسكين لا رعايا له ولا ثروة ولا تاج. لقد تضخّم حجمك بطريقة سياسية شيطانية، ونظير المتعجرف « سيلاّ » قد التهمت لقمة بعد لقمة قلب أمك المكلوم. وعلى يدك بيعت مقاطعة أنجو ثم مقاطعة ماين الى فرنسا. وأهالي نورمندي الخبثاء المتمرسون بتحريضك رفضوا أن يعترفوا بسيادتنا. وها هي مقاطعة بيكاردي قد ذبحت حكامها، وفاجأت خصومنا وأعادت الينا جنودنا الجرحى في أسمال بالية. والأمير ورويك وجميع آل نافيل الذين كانوا حملة سيوف مُهابة، لم تجرّد من غمدها سدًى، قد بادروا الى السلاح حقداً عليك، والآن تمرّدت أسرة يورك على العرش بما أتته من غدر وظلم، من قتل ملك بريء قابلت نعمه بجحود وقح وتمرد واغتصاب. والآن تغلي مراجل غيظها وتطلب الانتقام، وهناك أعلامها كلها أمل تتوق الى شمس نصف محتجبة تحاول أن تسطع وقد كتب على هذه الأعلام « رغم الغيوم

المتلبدة ». وهنا في أرض مقاطعة كنت، معظم الشعب مسلّح. بالاختصار، نرى العار والبؤس قد دخلا قصر الملك وكل ذلك بسبب غلطك. هيا خذوه.

سوفولك : لماذا أنا لست إلهاً لأقصف بصواعقي هؤلاء الدجالين الأشقياء المنحطين اللؤماء؟ ان أتفه الأمور تنفخ صدر الرجل الشرير عجرفة. وهذا البليد الذي تراه أمامي، لأنه ربّان مركب لا غير يتكلم بلهجة التهديد أكثر من القرصان الشهير بركولوس. ان ذكور النحل لا تمتص دماء النسور لكنها تسطو على قفران النحل لتسرق ما فيها من عسل لذيذ. يستحيل أن يُنفّذ بي حكم الاعدام أحد مأموري الملك وهو أقل مني رفعة. فان حديثك يهيج أشجاني لكنه لا يخيفني. وأنا ذاهب الى فرنسا ومعي رسالة من الملكة، لذا أنذرك بأن توصلني سالماً الى الشاطئ الآخر من المضيق.

الربّان : يا ولتر.

ويتمور : تعال، يا سوفولك، لكي أوصلك على مركبي الى سواحل الموت.

سوفولك : الرعب يستولي عليّ ويجمّد أعضاء جسمي، لأني أخاف منك.

ويتمور : سأبتدع لك حجة كي تخشاني قبل أن أغادرك. فهل تروضت أخيراً؟ وهل نويت أن تخفف من غلوائك؟

الوجيه الأول : يا مولاي اللطيف، أرجوك أن تعامله بلين وأن تكلمه برفق.

سوفولك : ان صوتي الجهوري لا ينخفض وسيظل عالياً متسلطاً لأني معتاد على اصدار الأوامر، ولن ألتمس مِنَّةً من أي انسان. تباً لك، اتظنني أرضى بأن أكرم شخصاً من هذه الطينة الوضيعة. كلا أنا أفضّل أن أحني رأسي ليقطع على جزع شجرة ولن أركع أمام أي كان سوى رب السماء ومليكي المفدّى. الأولى بي أن يرقص رأسي في أعلى رمح دامٍ

من أن أظل مكشوف الرأس أمام خادم صعلوك مثلك. فالنبيل الأصيل لا يعرف الخوف. لدي طول أناة أكثر من الجرأة على خطف الأرواح.

الربّان : هيا جرّوه واخرسوه.

سوفولك : لا ترددوا، أيها الجنود، وعاملوني بأقصى وحشية ممكنة، واجعلوا لموتي ذكرى لا تنسى. فعظماء الرجال غالباً ما يغتالهم صعاليك سفلة. وكم من جلف روماني ولص محتال أقدم على قتل أمثال توليوس الشريف، وقد طعنت يد اللقيط بروتوس بالخنجر مولاه يوليوس قيصر. وهكذا قتل سوفولك بعض القراصنة.

(يخرج سوفولك بصحبة ويتمور وغيره).

الربّان : أما الذين عيَّنّا لهم مبالغ فديتهم، فيسرّنا أن نفلت أحدهم. فلينصرف هذا، أما أنت فتعَال معناً.

(يخرج الجميع ما عدا الوجه الأول).

(يعود ويتمور برفقة جثمان سوفولك).

ويتمور : دعوا رأسه وبدنه الهامد ممددين هنا على الأرض حتى تجيء صاحبته الملكة فتدفنه.

(يخرج).

الوجيه الأول : تباً لهذا المشهد البربري الدموي. سأنقل جسمه الى الملك. واذا لم يأخذ الملك بثأره ستنتقم له الملكة التي كانت تحفظ له مودة فائقة وهو حي.

المشهد الثاني

في بلاكْهيث

(يدخل جورج بافيس وجون هولاند).

جورج : هيا جئني بسيف، وان كان من الخشب. فهم واقفون على أتم الاستعداد منذ يومين.

جون : وتراهم الآن في أشد الحاجة الى النوم.

جورج : أقول لك أن جاك كاد، تاجر الجوخ ينوي أن يجدد مقر الدولة ويقلبه رأساً على عقب ويخلع عليه حلة جديدة قشيبة.

جون : هو بحاجة قصوى الى ذلك لأنه بلي واهترأ. يا الهي ماذا أقول؟ لم يبق من بحبوحة في انكلترا منذ أن برز الوجهاء فيها.

جورج : تباً لهذا الجيل البائس الذي لم يعد لديه أي اعتبار للحرفيين.

جون : يعتقد النبلاء أن الخروج بوزرة من الجلد عار على من يرتديها.

جورج : فوق كل ذلك، أؤكد لك أن مستشاري الملك ليسوا بارعين.

جون : هذا صحيح. ومع ذلك يقال دائماً : اعمل حسب رسالتك في الحياة. وهذا يوازي التوصية : على القضاة أن يكونوا مجتهدين حازمين. وعلينا نحن أن نكون القضاة.

جورج : أصبت الهدف، اذ ليس من دليل على الذهن المتوقد أصدق من اليد الخشنة.

جون : اني اراهم، ها اني اراهم. وهذا ابن باست دبّاغ ونكْهام.

جورج : هو بحاجة الى جلود اعدائنا ليصنع منها سيوراً للكلاب.

جون : و « ديك » الجزّار.

جورج : سيقضي على الجرم كأنه ثور، وعلى الظلم كأنه عجل.

جون : وسميث الحائك.

جورج : ان وجودهم معلّق بخيط رفيع.

جون : تعالَ، تعالَ ننضم اليهم.

(يسمع قرع طبل. يدخل «كاد» وديك الجزار وسميث الحائك وجماعة أخرى).

كاد : أنا جون «كاد»، دعيت هكذا لأني ابن زوجين أُلغي قرانهما.

ديك (على حدة) : أو لأنك سرقت برميلاً يحوي سمكاً مجفّفاً.

كاد : لأننا سنجهز على أعدائنا المنحطّين، وقد دعينا بإلهام سماويُ لِنُنزِلَ الملوك عن عروشها، والأمراء عن كراسيها، ولنفرض الصمت.

ديك : سكوت.

كاد : كان والدي أحد أفراد أسرة مرتيمور.

ديك (على حدة) : كان رجلاً شريفاً وبنّاءً ممتازاً.

كاد : وكانت أمي من أسرة بلانتاجينيه.

ديك (على حدة) : عرفتها جيّداً لأنها كانت قابلة قانونية.

كاد : وزوجتي هي من ذرية «لاسي».

ديك (على حدة) : هي في الواقع ابنة بائع متجّول كان يبيع شتى لوازم الخياطة.

سميث (على حدة) : لكن، منذ مدة، لأنها لم تعد قادرة على السفر وبيدها صرّة فرائها، صارت تقوم بغسل الملابس في بيتها.

كاد : أنا شجاع جريء.

سميث (على حدة) : لا بدّ من ذلك، لأن التسوّل يحتاج الى جرأة.

كاد : أنا لا أستطيع تحمّل التعب طويلاً.

سميث (على حدة) : بلا ريب، لأني شاهدته وهو يتلقى ضرب السياط في السوق مدة ثلاثة أيام متتالية.

كاد : أنا لا أخشى الحديد ولا النار.

سميث (على حدة) : لا يخشى الحديد، لأنه يرتدي سترة تقي من الطعنات.

ديك (على حدة) : انما يخيل اليّ أن عليه أن يتجنب النار إذْ أُحرقت يده بسبب سرقة المواشي.

كاد : كن اذاً شجاعاً، لأن ربّانك شجاع وهو مصمم على اصلاح

كل المعايب. من الآن وصاعداً الأرغفة السبعة وقيمتها فلس في انكلترا ستباع بفلسين، وابريق يتسع لثلاثة أقداح سيحوي عشرة أقداح. ومن الحقارة اذاً أن لا يشرب المرء قليلاً من الجعة، لأن المملكة بأجمعها ستكون مشتركة وخيّالي سيسرح في محلة شبيسايد، ومتى أصبحت ملكاً، لأني سأصبح ملكاً...

الجميع : حفظ الله جلالتك.

كاد : شكراً، أيها الشعب الأمين. لن يبقى من حاجة للمال، فالأكل والشرب على حسابي، وأريد أن يرتدي الجميع ملابس متشابهة حتى يبدوا كأنهم أخوة ويكرموني كسيدهم.

ديك : لنبدأ اذاً بقتل جميع رجال القانون.

كاد : أجل، هذا ما أنوي عمله. انما من المؤسف أن يذهب حمل بريء ضحية كم كلمة مكتوبة بخط رديء تكفي لإهلاك رجل. يقال ان النحلة تعقص، أما أنا فأقول أن الذي يعقص هو شمع النحل، لأني لم أستعمل خاتم الشمع سوى مرة واحدة. ومنذ ذلك الوقت لم أعد سيّد نفسي. من القادم الينا؟

(يدخل بعض الأهالي ومعهم موظف شاتهام).

سميث : هذا هو موظف شاتهام، وهو يعرف القراءة والكتابة والعدّ.

كاد : يا له من مسخ!

سميث : فاجأناه وهو يصنع نماذج للأطفال.

كاد : هذا محتال لعين.

سميث : في جيبه كتاب يحتوي على رسائل حمراء.

كاد : هل هو ساحر؟

ديك : انه يعرف تنظيم العقود والكتابة بخط عريض.

كاد : انا مستاء من وضعه، وأُقسم بأنه يبدو لي رجلاً طيباً. إلّا

اذا كان مذنباً فموتاً سيموت. اقترب يا صاح، عليّ أن أتفحصك. ما اسمك؟

الموظف : عمانوئيل.

ديك : عادةً، يكتب الاسم في أعلى الورقة، انما الأمر سيء بالنسبة اليك.

كاد : دعني أخاطبه. هل من عادتك أن تكتب اسمك؟ وهل لك شارة خاصة كأي رجل محترم شريف؟

الموظف : اشكر الله، يا سيدي، على أني ربّيت تربية لائقة فتعلّمت كتابة اسمي.

الجميع : لقد اعترف. فعلينا أن نتخلص منه لأنه خائن سافل.

كاد : لنتخلص منه اذاً، فأنا أريد ذلك، ولنشنقه، وريشته ومحبرته معلّقتان في عنقه.

(يدخل ميشال).

ميشال : أين قائدنا؟

كاد : ها أناذا، يا صديقي الحميم.

ميشال : اهربوا، اهربوا. لأن سير همفري ستافورد وأخاه قريبان من هنا مع فصائل الملك.

كاد : قف، أيها السافل، قف وإلا قتلتك. سيواجه رجلاً يوازيه انحطاطاً وهو ليس سوى خيّال، أليس كذلك.

ميشال : لا أكثر.

كاد : ولكي أعادله، سأصبح في الحال فارساً. فلنرتفعْ، يا سير جون مرتيمور. والاّ حذار منه.

(يدخل سير همفري ستافورد ووليم أخوه، بينما تقرع الطبول على رأس الفصائل).

ستافورد : أيها الرعاع المتمردون، يا حثالة مقاطعة كنت، انتم تستحقون

الشنق، ألقوا أسلحتكم أرضاً وعودوا الى أكواخكم، ودعوا هذا المسكين وشأنه، فاذا تخليتم عنه ستشملكم رحمة الملك.

وليم ستافورد: لكنه سيغضب ولن يتراجع عن سفك الدماء، اذا ثابرتم على عملكم فاستسلموا اذاً والاّ هلكتم جميعاً.

كاد: انا لا أهتم لهؤلاء العبيد المتسربلين بالحرير. انما لأجلكم، يا أفراد الشعب الكريم انا أتكلم، لأجلكم أنتم الذين أرجو أن أكون يوماً ملكاً عليكم لأني وحدي الوريث الشرعي لهذا التاج.

ستافورد: يا منافق، كان أبوك عاملاً بسيطاً، وأنت أجير متمرّن، أليس كذلك.

كاد: وكان آدم والدنا جميعاً بستانيًّا.

وليم ستافورد: ماذا تقصد؟

كاد: اسمع ما أقول. أعتقد بأن ادمون مرتيمور كونت مارش، تزوّج ابنة دوق كلارانس، أليس كذلك؟

ستافورد: أجل، يا سيدي.

كاد: ومنها أنجب توأمين.

وليم ستافورد: نعم، هذه هي القضية. وأنا أؤكد أن ذلك صحيح. فالبكر عندما سُلِّم الى المرأة التي أرضعته، خطفه أحد المُتسوّلين، واذ جهل أصله وأهله، عندما شبّ أصبح بنّاءً، وأنا ابنه، أنكرْ ذلك إن استطعت.

ديك: هذه عين الحقيقة. فإذاً هو الملك.

سميث: يا سيدي، لقد صنع مدفأة في بيت أبي، ولا تزال الأحجار موجودة في أمكنتها كشاهد حيّ برهاناً على ذلك. فلا تنكر الأمر إذاً.

ستافورد: هل تصدق ادّعاء هذا العامل البليد الذي لا يعي ما يقول؟

الجميع: حقًّا هذا هو الواقع. فلننصرف الآن.

وليم ستافورد: يا جاك كاد، لقد ألقى عليك دوق يورك درساً قاسياً.

كاد (على حدة): هو أكبر الكذّابين، لأني أنا الذي اختلقت كل هذه القصة. (بصوت عالٍ) اذهب يا صديقي وقل لمليكك من قبلي أني اعتباراً لوالده هنري الخامس الذي كان الأولاد في عهده يلعبون بالكعاب لقاء دنانير فرنسية، أنا موافق على أن يملك بشرط أن أسهر انا عليه كحامي المملكة.

ديك : من جهة أخرى، نريد اسقاط لورد ساي الذي باع مقاطعة ماين.

كاد : الحق معكم، لأن عمله قد شلّ انكلترا التي ستضطر للاستعانة بعكاز، اذا لم اساندها بقوتي. يا اخوتي الملوك أؤكد لكم أن لورد ساي قد فصد الدولة واستنزف دمها. وفوق ذلك، أنه يعرف أن يتكلم الفرنسية، اذاً هو خائن.

ستافورد : تبًّا لك من جاهل غبي.

كاد : جاوبني على هذا، اذا استطعت: الفرنسيون هم أعداؤنا، اذاً لا شك في أن من يتكلم لغة اعدائنا لا يمكنه أن يكون مستشاراً صالحاً. أثبت لي عكس هذا الاستنتاج.

الجميع : كلا، كلا. لذلك نطالب بقطع رأسه.

وليم ستافورد: يا جماعة، بما أن الحديث الحلو لا مفعول له، فما علينا إلا أن نهاجم أخصامنا بمؤازرة جيش الملك.

ستافورد : أيها الحراس، اذاً الى الأمام، وفي جميع المدن أعلنوا خيانة من يتمردون ويتبعون كاد. أعلنوا أن الذين يهربون قبل انتهاء المعركة سيكونون عبرة لسواهم وسيشنقون امام أبواب بيوتهم وتحت أنظار زوجاتهم وأولادهم. وأنتم كلكم يا أصدقاء الملك اتبعوني.

(يخرج الأخوان ستافورد وفرَقهما).

كاد : وأنتم جميعاً يا من يحبون الشعب اتبعوني، وأثبتوا الآن انكم

رجال أهل لنيل حريتكم. لن نترك لورداً واحداً ولا وجيهاً واحداً. ولن نوفّر إلّا من يلبسون أحذية ذات مسامير. لأنهم أناس اقتصاديون وشرفاء غير مبذرين وسيساعدوننا إذا كانوا يتحلّون بالجرأة.

ديك : ها هم كلهم مصطفون يتوجهون نحونا.

كاد : نحن أيضاً مصطفون حتى عندما تسودنا الفوضى. هيا سيروا الى الأمام.

(يخرجون).

المشهد الثالث

(تسمع موسيقى التحذير. يعود الفريقان الى المسرح ويتقاتلان يُقتل همفري سافورد وأخوه).

كاد : أين ديك، جزار آشفورد؟

ديك : أنا هنا، يا سادة.

كاد : هم يتساقطون أمامك كالخرفان والأبقار، وأنت تتصرف كأنك في مسلخك. بالنتيجة ها هي مكافأتك : القتال تتضاعف مدته، ولك وحدك امتياز قتل تسعة وتسعين شخصاً في الأسبوع.

ديك : انا لا أطلب المزيد.

كاد : الحق أقول، انك لا تستحق أقل من هذا العدد. (يرتدي صدرة همفري ستافورد) أود أن أرتدي هذه كتذكار انتصارنا. وسأجرّ هذه الجثث بعد ربطها الى ذنب حصاني حتى وصولي الى لندن حيث أجعل سيف المحافظ يسير مرفوعاً امامي.

ديك : اذا شئنا أن ننتصر وأن نحسن صنعاً، علينا أن نهاجم السجون ونطلق سراح نزلائها.
كاد : لا تخف، انا أعدك بتنفيذ ذلك. هيا نتّجه الى لندن.

(يخرجون).

المشهد الرابع

في لندن، داخل أحد القصور

(يدخل الملك هنري وهو يقرأ إلتماساً. يرافقه دوق بوكنكهام ولورد ساي. وعلى مسافة منهم تظهر الملكة مرغريت وهي تتأمل رأس سوفولك).

الملكة مرغريت : سمعت مراراً ان الألم يهيج دفائن النفس، ويجعلها تخاف وتفقد رزانتها. فلنفكر اذاً بالانتقام ولنكفّ عن الندب والنحيب. ولكن من يمكنه الامتناع عن البكاء حيال مشهد مؤلم كهذا؟ ها هو رأسه يرقد هنا في حضني لاهثاً، لكن أين جسده لكي أضمّه الى صدري؟

بوكنكهام (للملك) : بماذا تجيب، يا صاحب الجلالة، على التماس المتمردين؟

الملك هنري : ارسل اليهم أسقفاً باراً ليهدئ روعهم ويدعوهم الى السكينة. لأن من الحيف، لا سمح الله، أن تهلك كل هذه الخلائق البشرية بحدّ السيف. وأنا نفسي، عوضاً عن أن أموت في حرب طاحنة، أفضّل أن أفاوض جاك كاد قائدهم. فانتظروا حتى أعيد تلاوة هذا الالتماس.

الملكة مرغريت : سحقاً لكم أيها البرابرة القساة! كان هذا الرأس يهيمن عليّ كأنه كوكب ساطع، ولم يتسنَّ له أن يحظى بعطف هؤلاء الرعاع الذين لا يستحقون رفع نظرهم الى طلعته البهية.

الملك هنري : لقد أقسم جاك كاد على الظفر برأسك، يا لورد ساي.

ساي : أجل، لكن كل أملي أن تظفر أنت برأسه يا صاحب الجلالة.
الملك هنري : ما بك، يا سيدتي؟ أراك لا تكفّين عن البكاء والندب على موت سوفولك. لو وافاني أجَلي، يا حبيبتي، أخشى أن لا تنتحبي مثلما تفعلين لأجْله.
الملكة مرغريت : كلا، يا حبيبي، لن أبكيك، بل سأموت حزناً وكمداً عليك.

(يدخل رسول).

الملك هنري : ما وراءك من أخبار؟ لماذا أنت مستعجل هكذا؟
الرسول : لقد وصل المتمردون الى ساوثورك. فاهرب، يا مولاي. لأن جاك كان ينادي بنفسه ملكاً باسم مرتيمور سليل أسرة دوق كلارانس، وهو يتهم جلالتك صراحةً باغتصاب العرش، وقد أقسم أن يتوّج ذاته في ويستمنستر. أما جيشه فهو عبارة عن جماعة من الدجالين في اسمال بالية، وفلاحين بلا رحمة ولا شفقة. وزاد الطين بلة مقتل ستافورد وأخيه، وهو الذي شجعهم واستفزّهم على مواصلة الهجوم. أما هم فيعتبرون أهل العلم ورجال القانون والحاشية والبلاط والوجهاء كلهم صعاليك خونة ويتبجحون بالتصميم على ابادتهم.
الملك هنري : تباً لهم من جهلة سمجين لا يدرون ماذا يفعلون.
بوكنكهام : يا مليكي المفدّى، ارجوك أن تنسحب الى كانلورث حتى يتسنى لنا أن نجمع القوات الكافية لسحقهم.
الملكة مرغريت : آه! لو كان دوق سوفولك حياً، لفرض على هؤلاء الرعاع المتمردين أن يستسلموا في الحال.
الملك هنري : الخونة يكرهونك، يا لورد ساي، فتعالَ اذاً معنا الى كانلْورث.
ساي : قد يشكل ذلك خطراً على شخصك الكريم، يا صاحب الجلالة. فبما أن مشاهدتي تغيظهم، انا موطد العزم على البقاء في هذه المدينة حيث سأعيش خفية أطول مدة ممكنة.

(يدخل ثاني رسول).

الرسول الثاني: لقد احتلّ جاك كاد لندن، والأهالي يهربون ويغادرون منازلهم، فيأتي الرعاع ويستولون على الغنائم وينضمون الى الخونة، وكلهم ينوون سلب المدينة وقصرك الملكي.

بوكنكهام : لا تتأخر، يا مولاي. بادر الى جوادك وأسرع.

الملك هنري : تعالي، يا مرغريت. والله، أملنا الوحيد، يكون في عوننا.

الملكة مرغريت : خاب أملي بموت سوفولك.

الملك هنري (للورد ساي) : الوداع أيها اللورد، لا تتكل على متمردي منطقة كنت.

بوكنكهام : لا تتكل على أحد بتاتاً، لئلا تذهب ضحية الغدر والخيانة.

ساي : أنا واثق ببراءتي، وهذا ما يشجعني ويزيدني عزماً.

(يخرجون).

المشهد الخامس

في برج لندن

(يظهر لورد سكايل وآخرون في أعلى الحاجز، وفي أسفله يظهر بعض الأهالي).

سكايل : هل حقاً قتل جاك كاد؟

بعض الأهالي : كلا، يا مولاي، ولا نظنه يُقتل بسهولة. لأن جماعته استولوا على الجسر، وقد قضوا على كل من قاومهم. والمحافظ يستحلفك أن ترسل له جلالتك عوناً من البرج للدفاع عن المدينة وانقاذها من المتمردين.

سكايل : كل ما يمكنني أن أرسله من عون هو تحت تصرفك. لكني أنا ذاتي قلق هنا، لأن المتمردين حاولوا الاستيلاء على البرج أيضاً. انما عليك أن تمضي الى سميثفيلد لتجمع القوات، وأنا أرسل ماتيو كوك الى هناك فوراً. فقاتلوا في سبيل مليككم

ووطنكم ووجودكم. وعلى هذا الأمل استودعكم الله، إذْ آن لي أن أعود.

(يخرج).

المشهد السادس

في لندن، وسط شارع المدفع

(يدخل جاك كاد ورفاقه. يضرب بعصى قيادته حجر حدود لندن).

كاد : والآن، ها أناذا مرتيمور لورد المدينة. وهنا بالذات، حيث أجلس على حجر حدود لندن، آمر بإصرار أن تسيل من العين العامة وعلى حساب البلدية، خمرة عوضاً عن الماء طوال السنة الأولى من حكمي السعيد. ومن الآن وصاعداً تعتبر خيانة تسميتي بغير لورد مرتيمور.

(يدخل جندي راكضاً).

الجندي : جاك كاد، يا جاك كاد.

كاد : أقتله في مكانه، يا هذا.

(يُقتل الجندي).

سميث : لو كان هذا الشاب عاقلاً متبصراً لما دعاك جاك كاد. أعتقد بأنه نال جزاءه، وسيكون عبرة لمن يعتبر.

ديك : يا مولاي، هناك في سميثفيلد جيش مستنفر، على أهبة الهجوم.

كاد : فإلى الأمام اذاً. هيا بنا نقاتله. لكن، يجب إضرام النار أولاً في جسر لندن، وإن أمكن إحراق البرج أيضاً. هيا الى العمل.

(يخرجون).

المشهد السابع

في سميثفيلد

(تسمع موسيقى تحذير. يدخل من أحد الجوانب، كاد ورفاقه، ومن الجانب الآخر، بعض الأهالي وفصائل الملك بقيادة ماتيو كوك. ينشب قتال، يتشرذم الأهالي ويتفرقون، ويقتل ماتيو كوك).

كاد : هذا ما تستحقونه، يا سادة. والآن ليمضِ البعض ويهدم فندق سافوا، وآخرون الى مدرسة الحقوق ويدمروا كل ما فيها.

ديك : لديّ طلب أقدّمه لمولاك.

كاد : عندما تصبح صاحب سيادة، يستجاب طلبك.

ديك : ألتمس أن تعلن أنت ذاتك شرائع انكلترا.

جون (على حدة) : إي وربّي، ستكون شرائعه دموية، لأنه تلقى طعنة رمح في فمه ولم يُشفَ منها بعد.

سميث (على حدة) : ستكون، يا جون، شرائع نتنة، لأن رائحة فم هؤلاء الرعاع كريهة لكثرة ما يزدردون من الجبن المشوي.

كاد : أنا أيضاً على يقين بأن يكون الأمر كذلك. فاذهب واحرق جميع محفوظات الملك. لأن أقوالي ستكون هي قرارات مجلس نواب انكلترا.

جون (على حدة) : إذاً ستكون قوانيننا على لسانه صارمة جائرة، إلا إذا اقتلعنا له أسنانه.

كاد : ومن الآن وصاعداً، سيصبح كل شيء مشتركاً.

(يدخل رسول).

الرسول : يا مولاي. هناك لقطة هامة. ها هوذا لورد ساي الذي باع مدن فرنسا والذي دفّعنا في آخر إعانة مبالغ باهظة جداً.

(يدخل جورج بافيس عائداً بلورد ساي).

كاد : سيقطع رأسه عشر مرات، لأجل ذلك. أهذا أنت يا ساي؟ أنت يا سيرج أنت يا لورد بوكران؟ ها أنت الآن تحت رحمة قوانيننا الملكية النافذة. ما هو ردك على جلالتي لأنك تخليت عن منطقة نورمندي للسيد باريماكو ولي عهد فرنسا؟ إعلم اذاً أنك أمام سيادتي المجيدة، سيادة لورد مرتيمور بالذات، وأني سأكنس من يجب التخلص منه في بلاط السفلة اللئام مثلك. لقد أفسدت شبيبة الملك بدناءتك حين أنشأت مدرسة القواعد اللغوية. فآباؤنا لم يكن لدهيم سوى من وضع العلامة والمقياس. أما أنت فقد لجأت الى استخدام المطبعة بالرغم من مشيئة الملك وتاجه وكرامته، واستخدمت مصنع الورق. سأثبت لك أنك جمعت اناساً يتكلمون عادة عن الأسماء والأفعال وعن سواها من الكلمات السخيفة التي لا تتحمّل سماعها اذن مرهفة. وقد عينت قضاة ليحاكموا المساكين على أمور لا سبيل الى الاجابة عنها. فوق ذلك سجنت الكثيرين لأنهم لا يعرفون القراءة، ثم أمرت بشنقهم مع أنهم لأجل معرفتهم كانوا يستحقون أن يحيوا. أراك الآن تمتطي جواداً مطهّماً مسروجاً، أليس كذلك؟

ساي : ثم ماذا؟

كاد : أظنك لا تريد أن تسرج حصانك ببذخ بينما من هم أشرف منك يرتدون الجوارب والأرجوان.

ديك : ويشتغلون أحياناً وهم بالقميص نظيري أنا الجزّار مثلاً.

ساي : يا رجال كنت...

ديك : ماذا تقول عن كنت؟

ساي : لا شيء سوى أنها أجمل أرض لأسفل شعب.

كاد : تخلصوا منه، تخلصوا منه حالاً، لأنه طويل اللسان.

ساي : أصغِ فقط الى ما أقول، ثم تصرف كما تشاء. لقد جاء في تعليقات قيصر أن مقاطعة كنت هي البقعة التي تعجّ فيها الشرطة أكثر من أي مكان آخر في هذه الجزيرة الواسعة. والطبيعة فيها رائعة، وهي حافلة بالثروات وأهاليها كرماء وشجعان ويمتازون بالنشاط والثراء، الأمر الذي يحملني على الأمل بأن لا تكون، وأنت واحد منهم، خالياً من العطف والشفقة. أنا لم أبع مقاطعة ماين، ولم أخسر منطقة نورمندي. لكني لكي استردها، أنا مستعد لأن أضحّي بحياتي. لقد كنت دائماً عادلاً وسموحاً، وباستمرار هزّت فؤادي التوسّلات والدموع، بعكس الهدايا التي لم أقبلها أبداً. فلا تطلب مني بإلحاح إلا ابقاء الملك متربعاً على عرشه والمحافظة على المملكة وعلى شخصك أيضاً. فلقد بذلت الثروات الضخمة على العلماء من الموظفين لأن ثقافتي هي التي ميزتني دوماً عن الملك. وبما أن الجهل هو لغة الله، هكذا العلم هو الجناح الذي نرتفع به نحو السماء، إلّا اذا كانت الأرواح الشريرة تسكن في داخلنا. لذلك لا سبيل الى التفكير بقتلي، ودوماً كان لساني لدى الملوك الغرباء ترجمان مصالحكم.

كاد : وهل تسنى لك أن تطعن طعنة واحدة بسيفك في ساحة الحرب؟

ساي : الرجال المتفوّقون امتازوا بطول الباع في كل زمان ومكان. فكم طعنت مَن لم أكن أبصرهم طعنة نجلاء أودت بحياتهم.

جورج : تباً لك من جبان. ماذا فعلت؟ هل طعنت الناس في ظهورهم غدراً؟

ساي : لقد شحب لون وجهي وأنا أسهر على منفعتكم.

كاد : أصفعه كم صفعة فتسترد وجنتاه احمرارهما.

ساي : الجلسات الطويلة التي قضيتها في درس قضايا الفقراء، ما نابني منها سوى التعب والمرض.

كاد : سنعالجك بشراب القنّب وبفصد دمك بالمشرط.

ديك : لماذا ترتجف، أيها الرجل؟

ساي : من الشلل لا من الخوف.

كاد : يهز رأسه، وهو ينظر الينا، كمن يقول : لن أنسى معاملتكم. سأرى اذا كان رأسه سيهدأ في أعلى الرمح. خذوه واقطعوا له رأسه.

ساي : قل لي : ماذا اقترفت من ذنب؟ هل اشتهيت الغنى والشرف؟ قل لي : هل امتلأت خزائني بالذهب المغتصب؟ هل رأيت أن بزّتي فاخرة؟ بمن منكم ألحقت أي ضرر كي تطالبوا بإزهاق روحي؟ ان يديّ طاهرتان من كل دم بريء. فلا تدعوا أفكاري تحفل بالخواطر السوداء الجاحدة. اتركوني وشأني لأني لا أريد سوى العيش بسلام.

كاد (على حدة) : أشعر بأن هذه الكلمات تحرك فيّ عاطفة الشفقة. غير أني سأسيطر عليها وسيموت هو، لأنه دافع بمهارة عن حياته. خذوه، فإن شيطاناً رجيماً يكمن تحت لسانه، وهو لا يلفظ اسم الله. هيا خذوه واقطعوا له رأسه حالاً، ثم هاجموا بيت صهره سير جيمس كرومر، واقطعوا له هو أيضاً رأسه، واجلبوا لي رأسيهما، كل واحد معلّقاً على رمح.

الجميع : قضي الأمر.

ساي : أيها المواطنون، لو أن الله، عندما تتضرعون اليه، يكون متشدّداً نظيركم، ماذا كان حلّ بنفوسكم بعد مماتكم؟ أرجوكم أن تشفقوا عليّ وترحموني وتصونوا حياتي.

كاد : خذوه، خذوه ونفذوا ما أمرتكم به. (يخرج بعض المشاغبين بصحبة لورد ساي) أن أكبر شخصية محترمة في هذه المملكة لا تستطيع أن تحفظ رأسها فوق كتفيها اذا لم تدفع الجزية

المفروضة. وليس من عذراء يمكنها أن تتزوج بدون أن تسدّد لي مسبقاً ضريبة بكارتها. فالرجال مدينون لي أولاً، وأنا آمر وأفرض أن تكون نساءهم مسايرات حسب ما يشتهيه قلبي ويطلبه لساني الزلق.

ديك : يا مولاي، متى تذهب الى شبيد سايد لنستعيد المؤن بأسنة رماحنا؟

كاد : يمكننا تنفيذ ذلك فوراً.

الجميع : هذا رائع.

(يعود المتمردون برأسَيْ لورد ساي وصهره).

كاد : لكن هذا أروع. دعوهما يقبّل أحدهما الآخر لأنهما كانا متحابّين للغاية، حين كانا على قيد الحياة. والآن أبعدوهما الواحد عن الآخر خشية أن يتشاوروا في أمر استسلام مدن جديدة في فرنسا. أيها الجنود، اجّلوا نهب المدينة الى الليل، لأننا نريد أن نتجوّل في الشوارع على جيادنا في ضوء المشاعل ومعنا هذان الرأسان مرفوعين أمامنا كأنهما علمان، وعن جميع مفترقات الطرق نجعلهما يقبل أحدهما الآخر.

(يخرجون).

المشهد الثامن

في ساوثورك

(يسمع انذار. يدخل كاد وجميع أفراد عصابته).

كاد : إصعدوا في شارع فيش من زاوية سنتْمكْنوس. اقتلوا وحطموا وارموا الجثث في نهر التايمز (تسمع حركة استسلام ثم انسحاب).

ما هذه الضجة؟ هل يجسر أحد على اعلان الاستسلام عندما آمر انا بالقتل؟

(يدخل بوكنكهام والعجوز كليفورد مع فصائلهما).

بوكنكهام : أجل، نحن تجاسرنا على ازعاجك، يا كاد، لأننا قادمون كسفراء من قبل الملك لدى الشعب الذي ضيّعته. وهنا نعلن العفو العام عن جميع من يتخلّون عنك عائدين الى بيوتهم بأمان.

كليفورد : ما رأيكم، يا مواطنيّ؟ هل تريدون أن تسايروا وترضوا بالعفو المعروض عليكم، أو أن يقودكم متمرد الى الهلاك والموت المحتم؟ فمن يحب الملك ويريد نيل الحظوة في عينيه يلقي قبعته في الهواء ويهتف : حفظ الله جلالته. ومن يبغضه ولا يكرم والده هنري الخامس الذي أرجف كل فرنسا، يرفع سلاحه في وجهنا ويمضي.

الجميع : حفظ الله الملك، حفظ الله الملك.

كاد : ما هذا؟ هل بلغت بكما الوقاحة هذا الحد، يا بوكنكهام ويا كليفورد؟ وأنتم أيها المنافقون المتقلّبون، هل صدّقتموهما؟ هل تريدون أن تُشنَقوا وعفوكم معلّق في رقابكم؟ هل فُلَّ حدّ سيفي عند أبواب لندن حتى تخلّيتم عني كما أفلتّم طيارة في الهواء ساعة وصولنا الى ساوثورك؟ لقد اعتقدت بأنكم لن تلقوا بأسلحتكم جانباً إلا بعد أن تستردوا حرياتكم السابقة. لكنكم جميعاً جبناء خانعون ترتضون حياة الذلّ والعبوديّة في ظل النبلاء المتغطرسين. دعوهم اذاً يحطموا ضلوعكم تحت وقر استبدادهم. اتركوهم يسلبوا بيوتكم تحت أنظاركم وينتهكوا اعراض نسائكم وبناتكم اما أعينكم. أما أنا فأتدبر أمري وحدي، وعلى هذا الأساس، فلتسقط لعنة الله على رؤوسكم جميعاً.

الجميع : سنتبع كاد، سنتبع كاد.

كليفورد : هل « كاد » هو ابن هنري الخامس كي تعلنوا بصوت عالٍ ولاءكم له واللحاق به؟ هل سيقودكم الى احتلال فرنسا وسيرقي احقركم الى مقام دوق أو كونت؟ وهو مع الأسف لا سقف له يأوي اليه، ولا يسعه أن يعيش إلّا من القتل والسلب، ونهب أموال أصحابكم وسرقتنا نحن أيضاً. وفيما أنتم تحيون في نزاع مستمر، أي عار سيحلّ بكم اذا ما الفرنسي الخسيس الذي كنتم دائماً تتغلبون عليه اجتاز البحر وانتصر عليكم في عقر داركم؟ منذ الآن ونحن لا نزال في غمار هذه الحرب الأهلية يخيّل اليّ أني أراهم يتمايدون في شوارع لندن وهم ينادونكم : أيها الأوغاد، ويبصقون في وجه جميع من يصادفون. آه ليهلك عشرة آلاف بائس متشرد مثل كاد، ولا تستسلموا الى الفرنسيين. فهيا، الى فرنسا الى فرنسا، واستردوا ما فقدتموه. صونوا انكلترا لأنها ملاذكم الأمين ومسقط رأسكم. فان هنري يملك المال، وأنتم أقوياء وشجعان، وبعون الله ستنتصرون.

الجميع : ليحيَ كليفورد، ليحيَ كليفورد. سنتبع الملك وكليفورد معاً.

كاد (على حدة) : هل رأى أحد ريشة في مهب الرياح، أخفّ من هذه الشراذم السريعة التقلب؟ ان اسم هنري الخامس يجرهم الى ارتكاب مئة غلطة، وهذا ما يرميني بالوحدة والعزلة. اراهم يتشاورون كي يفاجئوني. فما لي سوى سيفي ليشق لي طريقي، ما دمت لا أستطيع الانتظار أكثر مما فعلت. ورغم كل شياطين الجحيم سأمرّ في وسطهم، فالسماء وشرفي يشهدان على أن العزم لا ينقصني لأحزم أمري. لكن، ما حيلتي بالخيانة الدنيئة التي يبادرني بها رفاقي وتضطرني الى الضرب يميناً ويساراً.

(يخرج).

الجنود افتدوا اليوم حياتكم وبرهنوا على مدى محبتكم لأميركم ولبلدكم. حافظوا دوماً على عواطفكم النبيلة. ومهما كنت أنا هنري قليل الحظ، ثقوا بأني لن أكون أبداً عقوقاً. وعلى هذا الأساس أشكركم وأعفوا عنكم جميعاً وأعيد كل واحد منكم الى أسرته وبيته.

الجميع : حفظ الله الملك، حفظ الله الملك.

(يدخل رسول).

الرسول : ليسمح لي صاحب الجلالة بأن أعلن له أن دوق يورك قد وصل حديثاً الى ايرلندا ومعه قوّة وجيش كبير من كالوكلاس، ومن كارن موطن الشجعان. وهو يتقدم على رأسهم الى هذه النواحي بنظام بديع ويذيع في كل مكان على طريقه انه لم يلجأ الى السلاح إلا ليبعد عنك دوق سومرست الذي ينعته بالخائن.

الملك هنري : ها قد أصبحت مملكتي بين كارثتين، كاد من جهة، ويورك من جهة أخرى نظير سفينة نجت من أهوال العاصفة لتفاجأ، حال عودة الهدوء، بمهاجمة قرصان بطّاش. فما كاد (كاد) أن يندحر وجماعته أن تتبعثر حتى تلاه يورك بأسلحته. أرجوك يا بوكنكهام أن تبادر الى ملاقاته وسؤاله عن سبب تسلحه هذا. قل له أني أرسلت دوق ادمون الى البرج. وأنت يا سومرست سأحتفظ بك الى أن يسرّح هو جيشه.

سومرست : يا مولاي، انا موافق على دخول السجن راضياً، وأقبل حتى بالموت في سبيل بلادي.

الملك هنري (لبوكنكهام) : على كل حال، لا تخاطبه بلهجة شديدة، لأنه عنيف ولا يتحمّل الكلام القاسي.

بوكنكهام : يا مولاي، أنا طوع بنانك وسأتصرف حتماً بطريقة تجعل كل الأمور لصالحك.

الملك هنري : تعالي، يا امرأة لنعود ونتعلم كيف نحكم بأسلوب أفضل. لأن انكلترا عرفت كيف تلعن حكمي البائس.

(يخرجون).

المشهد العاشر

في كنت داخل حديقة.

(يدخل جاد).

كاد : تباً للغرور، وتبًّا لي أنا الذي أملك سيفاً وأكاد أهلك جوعاً. ها أنا ذا أختبئ هنا في الغابة منذ خمسة أيام ولا أجسر على مغادرتها. لأن الجميع يجدّون في البحث عني. لكني الآن جائع الى درجة، حتى إن ضمنوا لي أن أعيش ألف سنة، لم يعد لي من طاقة على الاحتمال. هكذا أراني تسلقت حائطاً ونزلت الى هذه الحديقة لأحاول أن أسدّ رمقي ببعض الحشائش أو بشيء من الخضراوات التي ترطّب حلقي ومعدتي في هذا الطقس الحارّ، وأنا أعتقد بأن جميع خضراوات الدنيا قد زرعت لإسعافي، إذ بدون الخضراوات كنت أحسّ بأن طعنة رمح تشق رأسي، وفي كثير من الأحيان عندما كنت أشعر بجفاف في حلقي على أثر سيري الحثيث، كانت هذه الخضراوات تبل حلقي كأني شربت كأس ماء بارد عذب. وهكذا ستسدّ الآن بعض الخضراوات جوعي وتروي عطشي معاً.

(يدخل ايدن بصحبة خدامه).

ايدن : مولاي، من يريد أن يعيش وسط ضجة البلاط والتمتع بمثل

هذه النزهات الهادئة؟ إن الأرث الذي تركه لي والدي يكفيني ويوازي مملكة. أنا لا أريد أن أعمل على إفقار غيري ولا أن أكدس المال لأثير حسد من يحيطون بي. يكفيني الآن بيتي ومساعدة الفقير المسكين الذي يطرق بابي ويغادره وهو راضٍ.

كاد (على حدة) : هذا هو سيد الدار يأتي للقبض عليّ بسبب تشرّدي ودخولي الى حديقة بدون استئذان. آه! يا لعين، تريد أن تسلمني الى الملك وتقبض ألف دينار ثمن رأسي. لكني سألقمك حجراً كأنك نعامة وستبلع سيفي كدبّوس كبير الحجم قبل أن نفترق.

ايدن : يا لك من مغفل خشن الطباع والكلام. أنا لا أعرف من أنت. ألا يكفيك أن تتغلغل الى حديقتي نظير سارق وجئت تنهب أرضي بعد أن تسلقت حائطي عنوةً وتتحداني، أنا المالك، بهذه الكلمات الوقحة؟

كاد : أنا أتحداك، أجل، وأنوي أن أسفك دمك، بعد أن أهينك وجهاً لوجه. أنظر إليّ جيداً. أنا لم آكل منذ خمسة أيام. مع ذلك، إقترب أنت ورجالك الخمسة، فإن لم أصرعكم وألقيكم على الأرض جثثاً هامدة بدون حراك كأنكم أوتاد مدقوقة في البريّة، ليجعَلْني الله غير قادر حتى على أكل العشب.

ايدن : لا، ما دامت انكلترا في الوجود، لن يقال أبداً إن اسكندر ايدن الفارس الشهم، في مقاطعة كنت قد اغتنم وجود عدد من رجاله معه ليقاتل مسكيناً جائعاً وحيداً. تطلّع جيداً في عينيّ وانظر إذا كنت بعد ذلك تقوى على خفض بصرك. تعال نتوازى عضواً عضواً : أنت أنحف مني بكثير، ويدك لا تشكّل سوى إصبع بالنسبة الى قبضتي، ساقك كالقصبة المرضوضة إذا قيست بساقي المفتولة هذه التي تشبه جزع

الشجرة. وفي رجليّ نشاط بقدر ما في سائر بدنك من قوة، فكن على يقين بأني إذا رفعت يدي في الهواء، لا أنزلها إلا ويكون قد حفر قبرك في هذه التربة. لنختم حوارنا القاسي ولنتركْ سيفي يقول ما لم يصرح به لساني.

كاد : أقسم لك، بأنك أكمل بطل شاهدته حتى الآن. ولو كنت من الفولاذ سأفلّ حدّك، إذا لم تُعد سيفك الى غمده حالاً، فلن تتمكن من تقطيعي أنا قفص العظام إرباً إرباً. إني أبتهل الى ربي وأنا راكع على ركبتي أن تصمد أمامي كالعمود الضخم. (يتقاتلان فيسقط كاد). آه! لقد متّ والجوع وحده قتلني. إن وقف في وجهي عشرة آلاف شيطان يكفيني أن أتناول وجبات الطعام العشر التي فاتتني، وأنا أتحدّى الجميع. أذبلي يا نباتات هذه الحديقة وتحوّلي الى مقبرة تضمّ رفات كل من يسكن هذا المنزل، بما أني أنا كاد المتمرّد قد غبت عن الوعي.

ايدن : هل حقاً أنا قتلت كاد الصعلوك الخائن؟ أريدك يا سيفي أن لا تكون ضحية تصرّفك هذا، وأن تزيّن قبري بفخر حين أموت، وأن لا يغسل دم هذا الخائن الشريد أبداً عن حدّك البتّار، بل أن تحتفظ به كشعار وكرمز شرف تَقلَّدَه صاحبك بشجاعة واعتزاز.

كاد : وداعاً يا ايدن. إفتخر بانتصارك، وقل عني لأهالي مقاطعتي « كنت » إنهم فقدوا أبسل مقاتليهم بعد أن حرّض الناس رجاله على الجبن والاستسلام، لأني أنا الذي لم أخفْ أي مخلوق، قد غلبني الجوع وحده، لا قدرة من تصدّى لي.

(يموت).

ايدن : الله يعلم كم أهنتني بهذا الهراء الذي لا معنى له. متْ أيها الشقي الذليل، ولتحلّ عليك لعنة المرأة التي ولدتك.

فكما غززت سيفي في جسمك أودّ أن أغرز روحك في أعماق الجحيم. سأجرّك من رجليك الى القمامة التي ستكون مثواك الأخير. وهناك سأفصل رأسك السخيف عن بدنك وأحمله باعتزاز الى الملك، تاركاً جثتك وليمة للغربان.

(يخرج وهو يجرّ الجثة).

الفصل الخامس

المشهد الأول

في السهول بين دارتفورد وبلاكْهيث.

(من جهة، مخيم الملك، ومن جهة أخرى يدخل يورك مع حرسه وطبوله تقرع، وأعلامه مرفوعة، وفصائله واقفة على مسافة منه).

يورك : هكذا أعود، أنا يورك، من إيرلندا لأطالب بحقّي وأنتزع التاج من رأس هنري الضعيف. فاقرعي يا أجراس الفرح وأسمعي الجميع رنينك المطرب، وتأجّجي يا نيران الغبطة وانشري أضواءك الساطعة لاستقبالي أنا الملك الشرعي كي أتربع على عرش انكلترا. أيتها العظمة الجليلة، من لا يشتريكِ مهما كان ثمنك باهظاً؟ على من لا يحسن القيادة أن يتنحّى ويخضع للمغوار الجبّار، فإن يدي لم تخلَق إلا لتلمّس الذهب. أنا لا أستطيع أن أعطي كلامي قيمته الحقيقية إلا إذا أمسكت بالصولجان أو بالسيف. أقسم بحياتي بأني سأحمل الصولجان وأحرّك بطرفه أزهار الزنبق رمز مملكة فرنسا.

(يدخل بوكنكهام).

من الآتي إلينا؟ بوكنكهام؟ هل جئت لتضع العثرات في طريقي؟ لا بدّ من أن يكون الملك قد أرسلك، فعليّ أن أختفي.

بوكنكهام : إن تصرفت يا يورك بإخلاص، أحيّيك كأعز صديق.

يورك : أنا أقبل تحيتك، يا همفري بوكنكهام، فهل أنت قادم كرسول أم من تلقاء ذاتك؟

بوكنكهام : أنا رسول هنري، مليكنا المحبوب. جئت لأعرف أسباب هذا التسلح ونحن في أيام السلم. لماذا وأنت أحد الرعايا مثلي، جمعت قوّات ضخمة بدون إذن، ورغم قسمك المقدس وتعهّدك بالولاء، تجاسرت على الإتيان بها الى مكان هكذا قريب من بلاط الملك؟

يورك (على حدة) : أكاد لا أقوى على الكلام من شدة غيظي. أنا أستطيع أن أشقّ الصخر وأن أفتّتَ الحجر من شدة ما أغضبني هذا الحديث البذيء. فنظير أجاكس بن تلامون يمكنني أن أصبَّ جامّ غضبي على قطعان الغنم أو البقر هؤلاء. فأنا كريم المحتد أكثر من الملك ذاته، وتلوح عليّ إمارات النبل ولي أفكار ملكية أكثر منه. إنما عليّ أن أتظاهر بالصفاء في هذه الأثناء، ريثما يضعف موقف هنري أكثر ويقوى وضعي أنا أكثر. (بصوت مرتفع). يا بوكنكهام، أرجوك أن تعذرني إن أجبتك ببعض الأنفعال. فإن خواطري فريسة القلق والكآبة العميقة بسبب مجيئي الى هنا مع جيشي، كي أبعد عن الملك هذا المتجبّر سومرست الذي خان جلالته وخان الدولة.

بوكنكهام : هذا تشامخ مبالغ من جهتك بصراحة، إن لم يكن للجوئك الى السلاح من هدف آخر، فإن الملك قد استجاب طلبك وأودع دوق سومرست داخل أسوار البرج.

يورك : بشرفك، هل هو حقاً سجين؟

بوكنكهام : أقسم لك بأنه سجين.

يورك : إذا سأسرّح فصائلي، يا بوكنكهام. أيها الجنود أشكركم جزيل الشكر، وأرجوكم أن تتفرقوا. ستوافوني غداً الى جوار مقرّ الفارس جاورجيوس، وهناك أدفع لكم أجوركم وكل ما تريدونه. لأن مليكي هنري الفاضل، إن طلب ابني البكر، ماذا أقول؟ بل إن طلب جميع أولادي كرهائن عربون أمانتي وإخلاصي له، أرسلهم اليه راضياً بدون تردّد. فكل ما أملك من الأراضي والأرزاق والخيل والدروع هو تحت أمره وبتصرفه بشرط أن يموت سومرست.

بوكنكهام : أنا أُثني على امتثالك الودود، يا يورك. فهيا بنا معاً الى خيمة جلالته.

(يدخل الملك هنري مع حاشيته).

الملك هنري : إذاً يا بوكنكهام، لا يضمر لي يورك أي سوء، بما أني أراك تمشي الى جانبه متأبطاً ذراعه.

يورك : بكل خضوع واتضاع أقدم لك احترامي، يا صاحب الجلالة.

الملك هنري : لماذا إذاً أتيت اليّ بكل هذه الفصائل من المقاتلين؟

يورك : لكي أقتلع من هنا الخائن سومرست، ولكي أقاتل المسخ المتمرد « كاد » الذي بلغني منذ هنيهة أنه لاقى مصرعه.

(يدخل ايدن حاملاً رأس كاد).

ايدن : إن كان لرجل مثلي، بخشونتي وبوضاعتي، أن تستقبلني أيها الملك، فاسمح لي يا صاحب الجلالة بأن أقدم لك رأس الخائن كاد، الذي قتلته في معركة.

الملك هنري : رأس كاد؟ ما أعدلك يا إلهي! دعوني أبصر وجه الميت الذي أقلق راحتنا عندما كان على قيد الحياة. قل لي يا صديقي، هل حقاً أنت قتلته.

ايدن : أجل، يا مولاي، أنا قتلته.

الملك هنري : ما اسمك، وما هي أحوالك ؟

ايدن : أنا أدعى اسكندر إيدن، خيّال من مقاطعة كنت، وأحبك كثيراً يا صاحب الجلالة.

بوكنكهام (للملك) : إن شئت، يا مولاي، لن تكون مكافأته كثيرة إن جعلت منه فارساً لأجل خدمة هامة كهذه.

الملك هنري : إركع إذاً، يا إيدن. (يركع إيدن)، إنهض الآن فقد أصبحت فارساً. إني أمنحك ألف دينار كهبة، وأودّ أن تظلّ دائماً على مقربة مني.

ايدن : أتمنى أن أحيا لأستحق هذه النعمة وأظل أميناً لك يا مليكي المفدّى.

الملك هنري : انظر، يا بوكنكهام، هذا سومرست قادم بصحبة الملكة. فاذهب وقل له أن يتوارى سريعاً كي لا يبصره الدوق.

(تدخل الملكة وبرفقتها سومرست).

الملكة مرغريت : حتى ولا لأجل الف يورك لن يتوارى، بل سيظل يجابهه ببسالة ودائماً وجهاً لوجه.

يورك : ماذا أرى؟ سومرست متمتعاً بكامل حريته؟ إذاً سأطلق أفكاري التي ظلت طويلاً حبيسة، وليكن لساني على وفاق مع قلبي. هل يسعني أن أتحمّل رؤية سومرست؟ أيها الملك المحتال، لماذا خدعتني بكلامك المطمئن، وأنت تعلم جيداً أني لا أستطيع تحمّل إهانة مشاهدته؟ لقد دعوتك ملكاً. كلا أنت لست ملكاً. أنت غير أهل لأن تحكم ولا أن تفرض نفسك على رعيّتك، فكيف يمكنك أن تسيطر على خائن. إن رأسك لن يحمل التاج ويدك لن تقبض حتى على عصى الراعي، فكيف تحمل صولجان أمير مهاب؟ فرأسي أنا الذي سيلامس ذهب هذا التاج، أنا الذي نظير رمح البطل الأسطوري أخيل، بسمته وعبسته تقدر كل منهما بدورها أن تجرح وتداوي،

أن تحيي وتميت. ها هيذا يدي الطاهرة تقبض على الصولجان وتفرض تنفيذ القوانين. بحق السماء، أعطني مكانك لأنك لن تملك بدلاً عمّن خلقه رب السماء لأن يكون ملكاً عليك.

سومرست : أيها الخائن السافل، إني أقبض عليك، يا يورك، لاقترافك جرم الخيانة العظمى بتمردك على مليكك وعلى تاج انكلترا. إخضع أيها الخائن الخسيس والتمس العفو جاثياً على ركبتيك.

يورك : أنت تطلب مني أن أركع؟ دعني أولاً أن أسأل رجالي إذا كانوا يقبلون أن أطوي ركبتي أمام أي إنسان. يا صاحبي، اذهب وائتني بأولادي لكي يكونوا ضمانتي. (يخرج أحد المرافقين). أنا على يقين بأني قبل أن أمضي الى السجن سيستلّون سيوفهم لتخليصي من أيديكم.

الملكة مرغريت : اطلبوا من كليفورد أن يحضر الى هنا سريعاً كي يقول لي إذا كان أولاد يورك اللقطاء بإمكانهم أن يشكلوا ضمانة لأبيهم الخائن.

يورك : تباً لكِ، أيتها الإيطالية النجسة، يا حثالة نابولي، ويا جالبة العار لإنكلترا، إن أبنائي هم أشرف محتداً منك بما لا يقاس وسيؤمّنون الضمانة لأبيهم، وبفضلهم أنا أرفض هذا الارتهان.

(يدخل ادوارد وريشار بلانتاجينيه مع فصائلهما من جهة، ومن الجهة الأخرى، يدخل العجوز كليفورد وابنه الشاب مع فصائلهما).

ها هم قد أتوا، وأنا واثق بأنهم سيشرفون موقفي وينقذونني.

الملكة مرغريت : وها هوذا كليفورد الذي جاء يرفض ضمانتهم.

كليفورد : التحية والعمر الطويل لمولاي الملك.

(يركع).

يورك : أشكرك، يا كليفورد. ما وراءك من الأخبار؟ ماذا تقول؟ لا، لا تهدّدني بهذه اللهجة الغبيّة. أنا مليكك، يا كليفورد،

كليفورد : الى الوراء، يا شبح التبجح، يا بصلة نتنة، يا قليل العقل وكثير البشاعة.

يورك : سأؤدبّك وألقّنك درساً لن تنساه ما حييت.

كليفورد : حذارِ أن يكون هذا الدرس من نصيبك.

الملك هنري : ما هذا، يا ورويك ألم تعد تعرف كيف تطوي ركبتك؟ وأنت أيها العجوز سالزبري عار على شيبك أن تحمّس ابنك على العصيان والهوس. أتريد أن تصبح قاطع طرق وأنت على فراش الموت، وأن تستعجل حتفك بخساستك وجحودك؟ أين إيمانك؟ أين وفاؤك؟ إن كان الإخلاص تبخّر من رأسك الأصلع، فأين ستجد ملاذاً على هذ الأرض؟ أتريد أن تحفر قبرك بأظفارك، وتنبش منه حرباً، وتلطخ بدم الغدر شيخوختك الجليلة؟ لماذا وأنت عجوز تتناسى حنكتك؟ وإن كنت لا تزال تحتفظ بها، لماذا لا تستفيد منها؟ أتتصرف هكذا بداعي الحياء الذي يحدوك الى عدم الركوع أمامي احتراماً وقد قربك الشيب من منيّتك.

سالزبري : يا مولاي، لقد تفحصت أنا بذاتي ألقاب الدوق الشهير وحسب ضميري أعتبر جلالته كوريث شرعي لعرش انكلترا.

الملك هنري : ألم تقسم بأن تحتفظ بولائك لي وحدي، أنا مليكك؟

سالزبري : أجل، يا مولاي.

الملك هنري : هل تستطيع أمام السماء أن تتنصّل من قسمك هذا؟

سالزبري : ليس من شرٍّ أفظع من أن يتعهد الانسان بعمل الشرّ. والبلية الكبرى هي تنفيذ هذا التعهد الدنيء. أي نذر علني يجبر المرء على ارتكاب الجريمة وعلى سرقة قريبه وعلى انتهاك عفة العذراء، وعلى تجريد اليتم من حقه الشرعي بالإرث، وعلى اغتصاب حق الأرملة الأكيد. كل هذه الآثام لا يبررها أي ارتباط أو أي قسم علني.

الملكة مرغريت : الخائن الخنوع لا تردعه موعظة المتصوف.

الملك هنري : نادوا لي بوكنكهام وقولوا له أن يتسلّح وأن يكون على أتمّ الأهبة.

يورك : استعن ببوكنكهام وبجميع أصحابك. فأنا مصمم على اعتلاء العرش أو الموت في سبيله.

كليفورد : الموت أنا أضمنه لك، إذا تحقق حلمي.

ورويك : الأولى بك أن تذهب الى سريرك وتنام، وأن تستسلم الى أحلامك لتتّقي أنواع عاصفة القتال.

كليفورد : أنا مصمم على مجابهة أعنف الرياح التي يسعك أن تتوهمها اليوم. وسأسجل انتصاري على خوذتك، لأني لا أعرف شعار أسرتك.

ورويك : إذاً بحق شعار والدي، أقسم بأن أحمل شارة أسرة نافيل التي تشتمل على رسم دبّ مربوط بسلسلة وهو يحمل عصا كثيرة العقد، وأن أضعه على خوذتي، فيكون بارزاً مثل أرزة على رأس جبل، وهي متشبثة بجميع أغصانها رغم الرياح الهوجاء بشكل يجعلك تتهيّب مجرد منظرها.

كليفورد : وأنا سأنتزع صورة هذا الدب عن خوذتك وأدوسها بقدمي باحتقار رغم أنف صاحب الدب المشار اليه.

كليفورد الشاب : بناء على ذلك، هيا الى السلاح يا أبي، يا حليف النصر، لنسحق المتمردين وجميع أعوانهم.

ريشار : تباً لك. أرجوك أن تكون أكثر شفقة وأوفر حباً. لا تتكلم بمثل هذا الحقد لأنك ستتعشى هذا المساء في العالم الآخر.

كليفورد الشاب : ما هذه العنجهيات؟ أنت تتبجح بأكثر من طاقتك.

ريشار : وإذا لم تأمل بأن تتعشى في الجنة فحتماً سيكون عشاؤك في جهنم.

(يفترقان).

المشهد الثاني

في مدينة سنتلبان

(يسمع انذار، وضجيج تحرّك الفصائل. يدخل ورويك).

ورويك : يا كليفورد كمبرلاند، أنا ورويك أناديك. وإن لم تكن هارباً من الدب، الآن والبوق يُنفخ فيه نغم الانذار، وصيحات الموتى تملأ الفضاء، أقول لك يا كليفورد : تعال قاتلني، يا أمير الشمال الباسل، يا كليفورد كمبرلاند، أنا ورويك أتحدّاك وأنتظرك للقتال.

(يدخل يورك).

ما بك أيها اللورد النبيل؟ أراك تمشي على قدميك.

يورك : الغدّار كليفورد قتل لي مطيّتي. لكني بادرته بطعنة قاضية وجعلته فريسة للطيور الجارحة والغربان، ولا سيما رأسه الذي كان يجب الاحتفاظ به سليماً.

ورويك : بالنسبة الى أحدنا والى كلينا معاً، قد دقت الساعة الحاسمة.

يورك : قف، يا ورويك، وابحث عن صيد آخر، لأني أريد أن أطارده حتى الموت.

ورويك : تصرف اذاً بنبل، يا يورك، إذ إنك تقاتل لأجل التاج. وبما أني مصمم على الانتصار هذا النهار، ليس ما يغيظني أكثر من التخلي عن القتال.

(يخرج ورويك).

كليفورد : ماذا ترى فيّ، يا يورك، لماذا تتوقف؟

يورك : أنا معجب بموقفك المتشامخ، وإن تكن لي عدواً لدوداً.

كليفورد : وهل أرفض قبول ثنائك وتقديرك القيّم، إذا انجرفت أنت وراء خيانتك المشينة؟

يورك : أرجو أن تحميني اليوم من سيفك الذي يتحتم عليه أن يخدم العدالة والحق.

كليفورد : اني أجازف هنا بجسمي وروحي.

يورك : مغامرتك هائلة رغم ظروفك، فهيا إذاً، استعدّ.

(يتعاركان فيسقط كليفورد).

كليفورد : عند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

(يموت).

يورك : هكذا أَدْخلَتْك الحرب جنة السلام. فها أنت جثة هامدة. فلتسترحْ نفسك في جوار ربك، تماماً كما أنت شئت.

(يخرج).

(يدخل كليفورد الشاب).

كليفورد الشاب : يا للعار، يا للفوضى! كل شيء قد تبدّد، وبسط الرعب على الساحة ضباب التضعضع الذي قضى على من أرادوا حمايته. سحقاً للحرب وليدة الجحيم الذي أغضب السماء فانتدبته لإحراق قلوب أنصاره المتقلبة على جمر الحقد والانتقام. لا مجال لأي جندي لكي يهرب. فمن كرس نفسه فعلاً للحرب لم يعد يكنّ لذاته أي حبّ. ومن أحب ذاته لم يستحق عن جدارة، بل بسبب الظروف، أن يدعي شجاعاً. (يشاهد أباه ميتاً) ليُدمّرْ هذا العالم الجاحد ولتُحرَقْ نيران اليوم الأخير رحاب السماء والأرض معاً. ليدقّ النفير العام ولتدوِّ أنغامك الموسيقية وتخرس ململات كل البشر. هل حكم عليك يا أبي أن تستخدم شبابك أيام السلم وأن

تلبس شيخوختك الحكيمة حلة البياض لتأتي هكذا في سنّ المهابة والوقار، وقد آن لك أن تستريح على أريكة المجد، أن تموت في معركة جنونية مدمّرة! إن هذا المشهد يمزق قلبي ويضطرني الى اعتباره لا من لحم ودم بل من صخر صلب لا يلين. أنت يا يورك، لم توفّر شيوخنا، فعليك أن لا توفّر أولادهم أيضاً. ستكون لي دموع العذارى كقطرات الندى التي تبرد اللظى المتأجج، والجمال الذي غالباً ما يخضع قلب الطاغية لن يكون لي إلا زيتاً وقطراناً يزيدان غضبي اشتعالاً ولهيباً. من الآن وصاعداً لن تعرف الرحمة سبيلاً الى صدري الموغر حقداً على البشرية. وإن صادفت طفلاً من آل يورك سأقطعه إرباً إرباً، كما فعلت الساحرة الغاضبة « مادية » التي هشّمت جسم الشاب أبسيرت وتركته أشلاء مبعثرة، ومن الشراسة سأجني أمجادي (يحمل الجثة على كتفيه). ويحك أيها الدمار الحديث العهد إذ لحقت بأسرة كليفورد العريقة. فكما حمل « اينيه » أباه العجوز « نشيز » عشيق افروديت، أحملك أنا على كتفيّ القويتين. لكن اينيه لم يحمل ثقلاً حياً أخفّ من حملي الجنائزي هذا.

(يخرج).

(يدخل ريشار بلانتاجينيه وسومرست وهما يتعاركان فيسقط سومرست على الأرض قتيلاً).

ريشار : حسناً، استرح هنا. فبموتك هكذا تحت شعار هذا النزل المشؤوم الذي يمثّل قصر سنتلبان، قد أذعت، يا سومرست، صيت تلك الساحرة التي تنبأت بموتك. فيا أيها السيف، إحتفظ بحدّك، ويا أيها القلب أكظم غيظك. إذْ إنّ الكهنة يصلّون لأجل أعدائهم، أما الأمراء فيقتلونهم.

(يخرج).

(يسمع نذير، ثم ضجة فصائل المقاتلين. يدخل الملك هنري والملكة مرغريت وغيرهما ويتراجع الجميع).

الملكة مرغريت : أهرب، يا مولاي. ما أبطأك! بربك أسرع في الرحيل.

الملك هنري : هل نستطيع أن نستبق مشيئة السماء؟ بحياتك، يا مرغريت الطيبة، دعينا نقف قليلاً.

الملكة مرغريت : بماذا أنت مجبول؟ أنت لا تريد القتال، ولا تنوي الهرب. الآن ما لنا سوى الشجاعة والحكمة والتبصر بعواقب الأمور، لتحملنا على ترك الساحة للعدو. تعال نهرب بما أننا لا نزال نستطيع الابتعاد عن هذا المكان، فليس لنا من خلاص إلا بالهرب. (تسمع موسيقى تحذير عن بعد) إذا قبض علينا، فلا مفرّ لنا من مصيرنا الأسود المحتوم. لكن إذا نجونا، ونحن لا نزال نتمكن بسهولة من النجاة، إلّا إذا حال دون ذلك جمودك وجبنك، سنصل الى لندن حيث أنت محبوب وحيث الثغرة التي نفتحها في حظنا العاثر يتاح سدّها بسرعة.

(يدخل كليفورد الشاب).

كليفورد : لو لم يكن فؤادي مصمماً على الانتقام مجدداً، لفضّلت أن أشتم على أن أنصحك بالهرب. لكن لا بدّ من الهرب، لأن تخاذلاً غير مشجع يسود أذهان جميع الأنصار. فاهربوا واغنموا أنفسكم. وسنحيا لنرى ذلك اليوم الذي نردّ لهم فيه كيدهم الى نحرهم. فإلى الأمام، يا مولاي، هيّا الى الابتعاد عن هذا المكان.

(يخرجون).

المشهد الثالث

في سهل قرب سنتلبان

(يسمع إنذار ثم ضجة انسحاب تليه موسيقى. حينئذ يدخل يورك وريشار بلانتاجينيه وورويك وجنود وطبول تقرع وشارات ترفع).

يورك : لكن يا سالزبري، من يستطيع أن يزوّدنا بأخبار عن هذا الأسد الذي فقد شعر لبدته، وفي غضبته نسي جراح عمره، وعثرات الزمن. ونظير الشجعان في شرخ شبابهم، يسترد قواه بهذه المناسبة. فهذا اليوم السعيد لن يكون هنيئاً ولن نكون قد أصبنا أي ربح، إذا فقدنا سالزبري.

ريشار : لقد أجلست أبي على سرج الحصان ثلاث مرات وحميته بجسمي ثلاث مرات وأخرجته من المعركة ثلاث مرات، وأنا أستحلفه بأن لا يشترك فيها مجدّداً. لكني كنت أجده دائماً يواجه الخطر، ونظير سجادة ثمينة في بيت حقير، هكذا كانت ارادته في جسمه العاجز بسبب تقدمه في السن. وها هو ذا الجندي النبيل يعود الى إنجاز مهمته.

(يدخل سالزبري).

سالزبري (ليورك) : بحق سيفي، قاتلت اليوم. بشجاعة ومهارة، كما فعلنا نحن جميعاً. لذلك أشكرك يا ريشار. الله يعلم كم بقي لي من العمر في هذه الدنيا. لقد أتيح لي أن أنجو اليوم ثلاث مرات من موت أكيد. لكن ما يخصّنا، يا مولاي، لم نعد نمتلكه. لا يكفي أن ينهزم أو يهرب أعداؤنا هذه المرة، فإن أخصاماً مثلهم لا يلبثون أن يعوّضوا عن سقوطهم.

يورك : أنا أعلم أن أمْننا يتطلب منا أن نطاردهم، لأني عرفت أن الملك قد هرب الى لندن لكي يدعو المجلس فوراً الى

الاجتماع. فهيا نذهب إليه قبل أن يرسل بطاقات الدعوة. ما هو رأي لورد ورويك؟ هل يحبّذ ذهابنا اليهم؟

ورويك : نذهب إليهم؟ لا، لا، بل نسبقهم، إذا استطعنا. إي وربي، يا مولاي هذا يوم مجيد. لأن معركة سنتلبان، وقد انتصر فيها يورك الباسل ستكون مخلّدة لدى الأجيال القادمة. انفخوا الأبواق واقرعوا الطبول، وتعالوا نتوجّهْ كلّنا الى لندن، ونحن نتمنّى أن نحظى بأيام عديدة مثل هذا اليوم التاريخي البهيج.

(يخرجون).

(تمت)

هنري السادس

القسم الثالث

أشخاص المسرحية

هنري السادس : ملك انكلترا.
ادوارد أمير ويلز
لويس الحادي عشر : ملك فرنسا.

دوق سومرست
دوق اكْساتر
كونت أوكسفورد
كونت نرتمبرلند
كونت وستمورلند
لورد كليفورد

} أنصار أسرة لنكاسرت

ريشار بلانتاجينيه : دوق يورك.

ادوارد كونت مارش، فيما بعد، ادوارد الرابع
جورج، فيما بعد دوق كلارانس
ريشار، فيما بعد دوق كلوسستر
ادموند كونت رتْلند.

} أولاده

كونت ورويك : الملقب بصانع الملوك.

دوق نورفولك
مركيز مونتيكو
كونت بمبروك

} أنصار يورك

لورد هاستينكس لورد ستافورد	انصار يورك
سير جون مرتيمور سير هيو مرتيمور	عمّا الدوق

هنري الشاب : كونت ريتشموند، فيما بعد هنري السابع

لورد ريفرز : شقيق ليْدي كراي.

سير وليم ستانلي.

سير جون منتكومري.

سير جون سومرفيل.

حاكم كونت رتْلند.

محافظ مدينة يورك.

ملازم البرج.

لورد.

اثنان من حرس الصيد.

صياد.

ابن قَتَل أباه.

أب قَتَل ابنه.

الملكة مرغريت : زوجة هنري السادس.

ليْدي كراي : فيما بعد زوجة ادوارد الرابع وملكة انكلترا.

بون : شقيقة لويس الحادي عشر.

جنود، رجال حاشية، رسل، حرّاس، الخ...

الفصل الأول

المشهد الأول

لندن ــ في قاعة مجلس النواب

(يسمع قرع طبول. جنود حزب يورك يحتلّون القاعة. حينئذٍ يدخل دوق يورك وادوارد وريشار ونورفولك ومونتيكو ووورويك وغيرهم وعلى قبعاتهم ورود بيضاء).

وورويك : يدهشني أن يكون الملك قد نجا من أيدينا.

يورك : بينما كنا نطارد فرسان الشمال، هرب سرًّا، وقد تخلّى عن رجاله. وعلى هذا الأساس يكون لورد نرتمبرلند الذي لم تتعود أذنه الحربية على ضجة التراجع، قد شحذ همة الجيش المنكسر للفرار. فهو ولورد كليفورد نفسه، ولورد ستافورد، قد هاجموا جميعاً جيشنا المحارب، وتوغلوا فيما بيننا فسقطوا تحت طعنات سيوف جنودنا البواسل.

ادوارد : أمّا والد لورد ستافورد، دوق بوكنكهام، فلا بد من أن يكون إمّا قُتل وإمّا أصيب بجرح بليغ، إذ اخترقت خوذته بطعنة محكمة، وبرهاناً على ذلك يا ولدي، انظر دمه.

(يشير الى سيفه الملطخ دماً).

مونتيكو (يُري سيفه ليورك) : انظر، يا أخي، هذا دم كونت ويلتشاير الذي جابهته في أول صدام.

ريشار (يرمي الى الأرض برأس سومرست) : تكلم أنت عني، وأخبرهم ماذا فعلت.

يورك : من بين جميع أولادي، ريشار هو المميّز حتماً. كيف متَّ يا سيادة لورد سومرست؟

نورفولك : جميع ذرية حنّا دي غان سيلاقون نفس هذا المصير.

ريشار : أملي أن أهز بيدي هكذا رأس الملك هنري.

ورويك : أنا أيضاً، يا أمير يورك المظفّر. طالما لا أراك تتربع على هذا العرش الذي اغتصبتْه أسرة لنكاستر، أنا أقسم بحق السماء أن لا يغمض لهذين العينين جفن. هذا هو قصر الملك الجبان فاستولِ عليه يا يورك، لأنه ملكك ولا يخص الملك هنري أبداً.

يورك : تصرف اذاً كما يحلو لك يا عزيزي ورويك، وأنا مستعد لأن أساندك، فاننا ما دخلنا الى هنا إلا بالقوة.

نورفولك : سنساعدك جميعنا، لأن مَن يهرب يصبح بحكم الميت.

يورك : شكراً يا نورفولك. ابقوا الى جانبي أيها اللوردات، وأنتم أيها الجنود ابقوا هنا واقضوا هذه الليلة بقربي.

ورويك : وعندما يأتي الملك، لا تقابلوه بأي عنف إلا اذا حاول طردكم بالقوة.

(ينسحب الجنود).

يورك : الملكة تقيم هنا مجلسها اليوم. لكنها لا تشكّ أبداً بأننا سنشترك في محاورتها سواءً بالكلام أو بالطعان لأننا مصممون على استعادة حقوقنا.

ريشار : سنمكث في هذا القصر بقوة السلاح الموجود في حوزتنا.

وارويك : وسيدعى هذا المجلس مجلس الدم، إلّا اذا توصل بلانتاجينيه دوق يورك الى اعلان ذاته ملكاً، وقَبِل بالتنازل عن العرش صاحبنا هنري الجبان الذي جعل منا أضحوكة لأعدائنا.

يورك : لا تتركوني اذاً، أيها اللوردات، وكونوا حازمين، لأني مصمم على الوصول الى حقوقي.

وارويك : لا الملك، ولا نصيره المخلص والأكثر اعتزازاً بين جماعة لنكاستر، لا يسعه أن يحرك ساكناً اذا ما لوّح وارويك بقبضة سيفه البتّار. سأزرع بلانتاجينيه هنا، فمن يجسر على اقتلاعه. كن ثابت الجنان، يا ريشار، وطالب بعرش انكلترا.

(وارويك يقود يورك الى العرش، وهذا الأخير يتربع عليه).

(تسمع موسيقى. يدخل الملك هنري وكليفورد ونرتمبرلند ووستمورلند واكساتر وغيرهم وعلى قبعاتهم ورود حمراء).

الملك هنري : أيها اللوردات، انظروا كيف يجلس المتمرد الوقح على العرش الذي يبدو ظاهراً ان قوات وارويك تسانده، وهو النائب الأخرق الذي يدّعي الوصول الى التاج ليملك مثلي. ان كونت نرتمبرلند قد قتل اباك، ووالدك أيضاً، يا لورد كليفورد، وكلاكما اقسمتما اليمين بأن تنتقما منه ومن أولاده ومن أصحابه والمقربين اليه.

نرتمبرلند : اذا لم أعاقبه أنا، اقتصّي منه أنت أيتها السماء.

كليفورد : أنا كليفورد، سأرتدي ثياب الحداد الفولاذية حتى أحقّق الانتقام.

وستمورلند (مشيراً الى يورك) : ما هذا؟ هل علينا أن نتحمل ذلك؟ اطرحوه خارجاً ان قلبي تغلي فيه مراجع الغضب، ولا يسعني احتمال هذا الحال أكثر مما فعلت.

الملك هنري : صبراً، يا عزيزي كونت وستمورلند.

كليفورد : الصبر سلاح الجبناء أمثاله. ما جَرُؤَ على الجلوس هنا، لو

كان والدك لا يزال حياً. يا عزيزي اللورد، دعنا نهاجم اسرة يورك هنا في هذا المجلس.

نرتمبرلند : بالصواب نطقت يا ابن العم، هيا نهاجمهم.

الملك هنري : ألا تدرون ان المدينة رهن اشارتهم، وأن لديهم عدداً كبيراً من الجنود ينتظرون صدور الأوامر اليهم.

اكساتر : لكن متى قتل الدوق سيبادرون الى الهرب.

الملك هنري : بعيداً عن مودتي أنا هنري، وبدون أن أفكر بأن أدفن عظام نواب المجلس، يا ابن عمي اكساتر، أرى أن الأنظار والكلمات القاسية هي السلاح الوحيد الذي يمكنني اللجوء اليه. (يتقدم نحو الدوق) أنزل عن عرشي يا دوق يورك المتبجح اللئيم، وخرَّ على قدميّ لالتماس صفحي وإنعامي، أنا ملكك وسيدك.

يورك : بل أنا مليكك وسيدك.

اكساتر : هيا أخجل منه وأنزل، لأنه هو الذي رفعك الى مقام دوق يورك.

يورك : هذه الدوقية هي من حقي بالارث نظير كونتية مارش.

اكساتر : والدك خان التاج.

ورويك : أنت خنت العرش، يا اكساتر، بمساندتك هذا المغتصب هنري.

كليفورد : أولا يتحتم عليه أن يناصر مليكه الشرعي.

ورويك : بالفعل، يا كليفورد، ريشار هو دوق يورك.

الملك هنري (ليورك) : سأظلّ واقفاً طالما أنت متربع على عرشي.

يورك : هذا واجب لا مفر منه، وعليك أن تزعن للواقع وتتنازل عن العرش.

ورويك (لهنري) : كن أنت دوق لنكاستر، وهو يصبح ملكاً.

وستمورلند : هنري هو في الوقت نفسه دوق لنكاستر، وملك، بموافقة لورد وستمورلند.

وورويك : أنا موافق على ذلك يا وورويك. هل نسيت أننا طردناك من السهل، وأننا قتلنا أجدادك، وبعد أن رفعنا اعلامنا مشينا عبر المدينة للدخول الى هذا القصر؟

نرتمبرلند : أجل، يا وورويك، يؤلمني جداً أن أتذكر ذلك. أقسم برحمة والدي أنك أنت وأسرتك، ستدفعون الثمن باهظاً.

وستمورلند : اكراماً لك، يا بلانتاجينيه، ولأولادك هؤلاء وذويك وأصحابك، سأتمسك بوجودكم أكثر مما أفعله لأجل قطرات الدم التي تسري في عروقي.

كليفورد : لا تُلِحّ أكثر من هذا، يا وورويك، خشية أن أوجّه لك بدلاً من الكلام رسولاً يثأر لموت أبي قبل أن أغادر هذا المكان.

وورويك : مسكين كليفورد. كم أحتقر تهديداته العقيمة الفاشلة.

يورك : هل تقبل بأن نبيّن لك انسابنا وحقنا بالتاج؟ وإلا طالبتْ سيوفنا به حالاً في ساحة القتال.

الملك هنري : أيها الخونة، أية أنساب وأي حق لكم بالتاج؟ كان أبوك مثلك دوق يورك، وكان جدك روجر مرتيمور كونت مارش. أمّا أنا فإبن هنري الخامس الذي أخضع لحكمه وليّ العهد والفرنسيين معاً، واستولى على المدن والمقاطعات.

وورويك : لا تتكلم عن فرنسا بما أنك خسرتها برمتها.

الملك هنري : اللورد حامي المملكة هو الذي خسرها، لا أنا. وعندما توّجت، لم يكن عمري سوى تسعة أشهر.

ريشار : الآن أراك تقدمتَ في السن، ومع ذلك يخيّل اليّ أنك لا تزال خاسراً على الدوام. يا والدي، انتزع التاج عن رأس المغتصب.

ادوارد (ليورك) : هيا، يا أبي العزيز، ضعه على رأسك.

مونتيكو (ليورك) : إذا كنت، يا نسيبي، تحب أن تشرّف السلاح، تعال نحتكم اليه في القتال بدون أن نثرثر هكذا.

ريشار : أقرعي يا طبول، وانفخي يا أبواق، فان الملك مزمع أن يهرب.

يورك : اصمت، يا ولدي.

الملك هنري : اسكت، ودعني أنا الملك هنري أتكلم.

ورويك : بلانتاجينيه سيتكلم أولاً. فاستمعوا اليه أيها اللوردات، اسكتوا وانتبهوا، وإلا لن يبقى من يقاطعه على قيد الحياة.

الملك هنري : أتظنون أني أتنازل عن عرشي الذي تربع عليه مثلي أبي وجدي؟ كلاّ، ثم كلاّ، فقبل أن يتم ذلك ستحصد الحرب جميع رعايا مملكتي وتطوي أعلامهم التي ارتفعت طويلاً في فرنسا والتي يؤلمني أن لا تخفق الآن إلا في سماء انكلترا فقط والتي ستكون الكفن الذي يلفني. لماذا تترددون أيها اللوردات. فان نسبي وحقي بالعرش أوضح وأفضل بكثير مما يدعيه هو.

ورويك : أثبت يا هنري أنك مصمم على أن تكون ملكاً.

الملك هنري : هنري الرابع إكتسب التاج.

يورك : بواسطة التمرد على مليكه.

الملك هنري (على حدة) : لا أدري ماذا أقول، هل نسبي ضعيف؟ قل لي : هل يسع الملك أن يتبنّى وريثاً؟

يورك : ماذا تعني؟

الملك هنري : اذا كان ذلك باستطاعته، فأنا اذاً ملك شرعي، لأن ريشار، بحضور عدد كبير من اللوردات، تنازل عن التاج لهنري الرابع، وكان والدي وريثه، كما أنا وريث أبي.

يورك : لقد ثار ريشار على مليكه وأجبره بالقوة على الاستقالة.

ورويك : ولنفترض أيها اللوردات أن ريشار تصرف بملء ارادته، فهل تعتقدون أن باستطاعته أن ينكر حقي في العرش ؟

اكساتر : كلا، لأنه حالَ تنازله عن الملك، كان على الأقرب نسباً اليه أن يخلفه ويملك بعده.

الملك هنري : هل أنت عليّ اذاً، ولست معي، يا دوق اكساتر؟

اكساتر (يدل على يورك) : الحق بجانبه هو. أرجو منك أن تسامحني.

يورك : لماذا تغمغم، يا مولاي، ولا تتكلم بصراحة؟
اكساتر (يدل على يورك) : ضميري يحدثني بأنه الملك الشرعي.
الملك هنري (على حدة) : الجميع يتخلون عني وينضمّون اليه.
نرتمبرلند : يا بلانتاجينيه رغم كل غرورك وتبجحك، لا تظن أن هنري يتنازل بمثل هذه السهولة.
ورويك : سيتنازل رغم أنف الجميع.
نرتمبرلند : أنت تخدع نفسك. فليس مسلحو الجنوب وإسّكس ونورفولك وسوفولك، ولا رجال مقاطعة كنت الذين يقتلهم الشموخ وتنفخ صدورهم العجرفة هم الذين سيفيدونك أو يستطيعون أن يُجلسوا الدوق على العرش بالرغم منك.
كليفورد : أيها الملك هنري، إن كان لقبك صالحاً أو سيئاً، فأنا لورد كليفورد أقسم بأن أحارب دفاعاً عنك. فلتنشقّ الأرض وتبتلعني حياً إن جثوت أمام قاتل أبي.
الملك هنري : يا كليفورد، أود أن تنعش كلماتك قلبي الحزين.
يورك : يا هنري سليل لنكاستر، اخلع التاج عن رأسك. بماذا تتمتعون، وعلى من تتآمرون أيها اللوردات؟
ورويك (لهنري) : أعطِ دوق يورك حقه الأميري، وإلا ملأت هذه القاعة بالرجال المدججين بالسلاح، وفوق العرش الذي يتربع عليه في هذه اللحظة سأجعل لقبه بدم المغتصب.

(يضرب الأرض بقدمه فيبرز الجنود).

الملك هنري : يا لورد ورويك، اسمح لي بكلمة واحدة فقط. دعني أحكم كملك طوال حياتي.
يورك : أمّن التاج لي ولذريتي، وستحكم بسلام ما دمت حياً.
الملك هنري : انا موافق على جلوس ريشار بلانتاجينيه على العرش بعد مماتي.
كليفورد : ما هذه الاهانة بحق ابنك الأمير؟

ورويك : بل يا لسعادة انكلترا وسعادتك!
وستمورلند : ما أجبنك، يا هنري اليائس الخسيس!
كليفورد : هكذا أنت تؤذي نفسك وتؤذينا في الوقت ذاته!
وستمورلند : لا يسعني البقاء هنا لسماع هذه الشروط.
نرتمبرلند : ولا أنا.
كليفورد : تعال، يا ابن العم، ننقل الخبر الى الملكة.
وستمورلند : وداعاً، أيها الملك الخائف المنحط الذي لا يحوي دمه الفاسد أية ذرة شرف.
نرتمبرلند : ستكون اذاً ضحية أسرة يورك، وتموت راسفاً في سلاسل الذل بسبب هذا التصرف الجبان الأرعن.
كليفورد : لا بدّ من السقوط صريع حرب هائلة، والعيش في سلام هزيل محتقر.

(يخرج نرتمبرلند وكليفورد ووستمورلند).

ورويك : أدر وجهك نحونا، يا هنري، ولا تأبه لهم.
اكساتر : هم لا يبحثون إلا عن الانتقام، لذلك تراهم متمسكين بما هم حاصلون عليه.
الملك هنري : آه، يا اكساتر!
ورويك : لماذا هذا التأوّه، يا مولاي؟
الملك هنري : أنا لا أتحسّر على نفسي، يا لورد ورويك، انما على حظّ ابني الذي سأحرمه من العرش بسبب مصيري المشؤوم. ليحدث ما هو مقدّر لي. (لدوق يورك) أنا أهبك العرش على أن تنقله الى أولادك من بعدك بشرط أن تُقسم لي هنا بأن تنهي هذه الحرب الأهلية، وأن تحفظ شرفي ما دمت أنا حياً بصفة كوني ملكاً سيداً، وأن لا تحاول، عن طريق الخيانة أو بقوة السلاح، أن تقلبني لتحكم أنت مكاني.
يورك (وهو ينزل عن العرش) : أقسم راضياً، وأعدك بأن أبرّ بيميني.

وورويك : ليحيَ الملك هنري. عانقه، يا بلانتاجينيه.
الملك هنري (يعانق يورك) : لتحيَ طويلاً أنت وأولادك وأولاد أولادك.
يورك : الآن تصالحت أسرتا يورك ولنكاستر.
اكساتر : ملعون من يحاول أن يزرع العداوة بينهما.

(ينفخ البوق ويتقدم اللوردات).

يورك : وداعاً، أيها اللورد النبيل، أنا ذاهب الى قصري.
وورويك : وأنا ذاهب لاحتلال لندن مع جنودي.
نورفولك: وأنا ذاهب الى نورفولك مع رجالي.
مونتكو: وأنا عائد الى البحر من حيث أتيت.

(يخرج يورك وأولاده وورويك ونورفولك ومونتيكو والجنود والحاشية).

الملك هنري : وأنا، والألم يحزّ في قلبي، أعود الى بلاطي.

(تدخل الملكة مرغريت وأمير ويلز).

اكساتر : ها هي الملكة آتية، وعلى وجهها امارات الغضب الشديد، فالأولى بي أن أنسحب.
الملك هنري : وأنا أيضاً، يا اكساتر.
الملكة مرغريت : لا، لا تبتعد عني، فأنا لاحقة بك.
الملك هنري : هدّئي روعك، يا ملكتي العزيزة، فأنا باقٍ هنا.
الملكة مرغريت : تباً لهم من رجال أشقياء. كم أتمنى لو متُّ وأنا فتاة، على أن أكون قد عرفتك ومنحتك ابناً، عندما أرى فيك أباً هكذا حقيراً. هل أستحق هذا الابن أن يخسر هكذا ما يحق له بالميراث؟ لو كنت أحببته بمقدار نصف ما يتحتم عليك وما أكنّه انا له من حنان، لو كنت تعذبت بسببه كما تعذبت أنا، لو كنت غذيته نظيري بدمك، لبذلت هنا أطهر دم سرى في عروقك، قبل أن تجعل وريثك هذا الدوق المتوحش، وتحرم ابنك الوحيد من حقك.

أمير ويلز : لا يسوغ لك، يا أبي أن تحرمني. فان كنت ملكاً، لماذا لا أخلفك أنا؟

الملك هنري : العفو يا مرغريت، العفو يا ولدي العزيز، ان كونت ورويك والدوق هما اللذان أجبراني على التنازل.

الملكة مرغريت : هما أجبراك. هل أنت ملك لكي تدعهما يتحكّمان بك؟ أنا أذوب خجلاً لسماعك تنطق هكذا. تباً لك من جبان. لقد ضيّعتنا جميعنا، أنا وأنت وابنك. اذا منحت اسرة يورك كل هذا الدعم، فلن تحكم أبداً بسبب تساهلك، وبسماحك بانتقال التاج اليه، ومن بعده الى ذريته، تكون قد حفرت قبرك بيدك لتتردى فيه قبل الأوان. فأنا ورويك أصبح مستشاراً ولورد كاليه، وفولكنبريدج الغريب الأطوار يتحكم بالمضيق، والدوق نصّب نفسه حامي المملكة، وتظن أنك الآن في أمان؟ أجل، في أمان نظير الحمل المرتجف الذي تحيط به الذئاب. لو كنت هنا أنا المرأة الضعيفة لكان الجنود أرقصوني على رماحهم قبل أن أقبل بحلّ كهذا. أما أنت ففضلت البقاء حياً على الدفاع عن شرفك. وعلى هذا الأساس، يا هنري، أنا أرفض الجلوس الى مائدتك والنوم في فراشك حتى أرى المجلس يلغي ميثاق حرمان ولدي من العرش. ان لوردات الشمال الذين نكّسوا اعلامك سينضوون تحت اعلامي حالما يرونها مرفوعة خفاقة. وسيتم هذا ويلحقك منه شر عار ودمار من أسرة يورك. وبناء على ذلك اغادرك. هيا يا بنيّ، ان جيشنا جاهز، هيا بنا نسرع وننضم اليه.

الملك هنري : قفي يا مرغريت اللطيفة، واصغي الى كلامي.

الملكة مرغريت : لقد تكلمت كثيراً. فإليك عني.

الملك هنري : يا ولدي الحبيب ادوارد، ابقَ أنت هنا.

الملكة مرغريت : لكي يقتله اعداؤه.

أمير ويلز : عندما أعود منتصراً من ساحة القتال، سأقبل بشخصك الكريم، والى ذلك الحين سأتبع والدتي.

الملكة مرغريت : هيا يا ولدي، الى الأمام. فلا يجمل بنا أن نتأخر هكذا.

(تخرج الملكة مرغريت ومعها أمير ويلز).

الملك هنري : مسكينة أنت أيتها الملكة! كم دفعها حبها لابنها، ولي أنا أيضاً الى التلفظ بكلمات غاضبة. أتمنى أن يثأر لها أحد من هذا الدوق المتعجرف الذي يحوم بأجنحة الجشع حول عرشي نظير نسر جائع لينقضّ بشراسة على لحمي ولحم ولدي. ان عدم مبالاة هؤلاء اللوردات الثلاثة يعذب قلبي. لذا سأكتب اليهم واستعطفهم بصداقة ومودة. تعال يا ابن عمي لتكون الرسول الوسيط بيني وبينهم.

اكساتر : وأنا أملي كبير بأن يصالحوك جميعهم.

(يخرجان).

المشهد الثاني

في قصر الصندل قرب ويكفيلد في كونتية يورك

(يدخل ادوارد وريشار ومونتيكو).

ريشار : يا أخي، مهما كنت أنا أصغر منك، أسألك أن تدعني أتكلم.

ادوارد : لا، أنا أقدر منك في الخطابة.

مونتيكو : أنا حجتي أقوى، ولا سبيل الى دحضها.

(يدخل يورك).

يورك : حسناً. ما معنى هذا؟ أرى أبنائي وأخي يتشاجرون. فما

هو سبب المشادة؟ وكيف بدأت؟

ادوارد : هذا ليس شجار. هذه مناقشة طريفة.

يورك : حول ماذا؟

ريشار : حول موضوع يهم سعادتك ويهمنا، ألا وهو تاج انكلترا الذي يخصك يا أبي؟

يورك : يخصني أنا، يا ولدي؟ لا، لا يمكن ذلك قبل موت الملك هنري.

ريشار : أنت وريثه، فما عليك الا أن تبتهج بذلك. اذا تركت لأسرة لنكاستر مجالاً لتتنفس الصعداء، فانها حتماً ستسبقك اليه، يا أبي.

يورك : لقد أقسمت أن أتركه يحكم بلاده بارتياح، وتريدني أن أحنث بألف يمين لكي أملك سنة واحدة فقط؟

ريشار : كلا، لا سمح الله أن تحنث بقسمك.

يورك : أكون قد حنثت بيميني إن أنا لجأت الى السلاح.

ريشار : سأبرهن لك العكس، اذا شئت أن تصغي اليّ.

يورك : لن تستطيع اثبات ذلك، يا ابني. لأن هذا مستحيل.

ريشار : الحلفان لا قيمة له إلا اذا جرى القسم أمام قاضٍ حقيقي وشرعي له سلطة على من يحلف اليمين. والملك هنري لم يقسم أي حلفان عندما شغل مكانك. وبما أنه هو الذي فرض عليك التعهد واليمين أيها اللورد، فان قسمك باطل لا قيمة له. ثم، أسألك أن تفكر، يا أبي كم هو جميل أن يحمل الانسان تاجاً على رأسه. ففي مجلسه هو نظير « اليزيه » ينعم بجميع الملذات والمسرّات التي يحلم بها الشعراء. فلماذا نتأخر هكذا؟ أنا لا أرتاح الى كون الوردة البيضاء التي أحملها لن تنمو إلا اذا شربت من دم قلب الملك هنري الفاتر.

يورك : كفى يا ريشار. أريد أن أصبح ملكاً أو أموت. ستذهب

حالاً الى لندن، يا أخي، لتحثّ ورويك على التعجيل في هذه القضية. أنت، يا ريشار، اذهب لمقابلة دوق نورفولك، وأعلمه سراً بنواياانا. وأنت يا ادوارد ستذهب لمقابلة لورد كوبهام الذي سيهب مع رجال كنت يداً واحدة، وأنا لي ملء الثقة بهم لأنهم جنود أذكياء وشجعان وكرماء وكلهم نخوة. وبينما تكون أنت منشغلاً لن يبقى لي سوى البحث عن فرصة لمناهضته، بدون أن يدري الملك أو أي فرد من أسرة لنكاستر بمسعاي الخفي.

(يدخل رسول).

تعالَ يا هذا. ما وراءك من الأخبار؟ لماذا أنت آت بمثل هذه العجلة؟

الرسول : الملكة مع سائر الكونتات ولوردات الشمال يتأهبون لمحاصرتك هنا في قصرك. انها تتقدم مع عشرين الف رجل، وهكذا عليك أن تحصّن وضعك يا مولاي.

يورك : أجلٍ، بسيفي هذا. أوتظن أني أهابهم؟ يا ادوارد ويا ريشار ظلاً معي فان أخي مونتيكو سيسرع الى لندن، والنبيل ورويك وكوبهام والآخرون الذين تركناهم كحراس لحماية الملك، سيتضامنون كقوة سياسية، ولن يثقوا بالملك هنري الساذج ولا بعهوده.

مونتيكو : انا ذاهب، يا أخي، أقنعهم. فلا يقلق لك بال. وعلى هذا الأساس أستأذنك بالانصراف.

(يدخل سير جون وسير هيو مرتيمور).

يورك : يا عمي سير جون وعمي سير هيو مرتيمور، لقد وصلتما الى صندل في الوقت الملائم. فجيش الملك يستعد لمحاصرتنا.

سير جون : لا حاجة الى ذلك. سنبادر الى لقائهم في السهل.

يورك : ماذا تقول؟ أنسيت أن معها خمسة آلاف رجل؟

ريشار : أجل يا أبي، وان كانوا خمسة آلاف؟ بما أن قائدتهم امرأة، فماذا نخشى؟

(يسمع عن بعد نشيد عسكري).

ادوارد : انا اسمع قرع طبولهم. فلنعدّ رجالنا ونخرج الى مقاتلتهم في الحال.

يورك : خمسة مقابل عشرين. ومهما كانت هذه النسبة في الفرق كبيرة، أنا لا أشك، يا عمي، بأن النصر سيكون حليفنا. ولقد فزت وأنا في فرنسا بكسب أكثر من موقعة كان فيها الأعداء عشرة لقاء واحد. فلماذا لا يكون نصيبي اليوم نفس النجاح.

(يسمع صوت انذار يخرج الجميع).

المشهد الثالث

في سهل قرب قصر الصندل.

(يسمع صوت إنذار وحركة جيوش. يدخل رتلند والحاكم).

رتْلند : هيا اهرب لتنجو من أيديهم. أيها الحاكم ها هوذا سفّاك الدماء كليفورد.

(يدخل كليفورد وبعض الجنود).

كليفورد : اذهب أيها المرشد. فوظيفتك الدينية أن تنقذ حياتي. أما

ابن هذا الدوق اللعين، فإن والده قتل أبي. لذلك لا بدّ له من أن يموت.

الحاكم : وأنا يا مولاي سأرافقه.

كليفورد (يشير الى الحاكم) : خذوه، أيها الجنود.

الحاكم : يا كليفورد، لا تقتل هذا الولد البريء خوفاً من غضب الله والناس أن ينهال عليك.

(يخرج يجره الجنود).

كليفورد (ينظر الى رتلند) : هل مات؟ أم أن الخوف أغمض عينيه؟ سأفتحهما.

رتْلند : هكذا يتطلع الأسد الجائع الى المخلوق الشقي الذي يختلج تحت براثنه الجارحة. وهكذا يأتي لإهانة ضحيته وتمزيقها إرباً إرباً. اقتلني بسيفك يا كليفورد الكريم، لا بنظرتك الوحشية المشبعة تهديداً. يا كليفورد الحنون استمع إليّ قبل أن أموت. أنا أمام هياجك ضعيف للغاية. صبّ نقمتك على الرجال الأشدّاء ودعني أعشْ.

كليفورد : كلامك يذهب سدًى، يا ولدي المسكين، لأن دم أبي سدّ الثغرة التي كان على كلامك أن يدخل منها الى قلبي.

رتلند : إذاً دع دم أبي يغطيها. هو رجل قادر، فما عليك يا كليفورد إلا أن تقارن نفسك به.

كليفورد : لو كان إخوتك هنا، لما كَفَت حياتهم وحياتك لشفاء غليل انتقامي. كلا، عندما أنبش قبور أجدادك وأعلّق بالسلاسل جثثهم المهترئة، لن ينطفئ لهيب غضبي ولن يذوق قلبي طعم الانفراج. لأن رؤية أحد أفراد أسرة يورك هي بحدّ ذاتها شوكة تعذب نفسي. وإلى أن أبقر بطون هذه السلالة الملعونة ولا أدع منها أحداً على قيد الحياة، أحيا في جحيم ولا يهدأ لي بال. إذا...

(يرفع يده).

رتلند : دعني أصلي قبل أن تزهق روحي. أتوسل اليك يا كليفورد الحنون أن ترأف بحالي.

كليفورد : ليس أمامك سوى الشفقة التي يكنّها لك حدّ سيفي.

رتلند : أنا لم أسبّب لك أي ضرر، فلماذا تروم قتلي؟

كليفورد : أبوك أنزل بي أشنع مذلّة.

رتلند : هذا كان قبل أن أرى النور. أنت لك ابن، فباسم هذا الابن أسألك أن تشفق عليّ خوفاً من أن تقتصَّ منك عدالة الله، فيموت ولدك أفظع الميتات. دَعني أمكثْ في السجن ما بقي لي من العمر. وإذا سببت لك أي إزعاج يمكنك حينئذ أن تقضي عليّ لأنك لا تملك الآن أية حجة للقيام بذلك.

كليفورد : لا حجة لديّ؟ يكفي أن يكون والدك قاتل أبي، لكي يتحتم عليك أن تموت.

(يطعن رتلند بخنجر).

رتلند : لتكن هذه الجناية قمة أمجادك. (يموت).

كليفورد : أنا قادم اليك، يا بلانتاجينيه. سيسبّب دم ابنك العالق في حدّ سيفي الصدأ لنصلته، ومتى جمد الدم عليها امسحهما كليهما معاً.

(يخرج).

المشهد الرابع
في نفس المكان

(يسمع صوت إنذار. يدخل يورك).

يورك : جيش الملكة يسيطر على ساحة المعركة، وقد قتل اثنان من أعمامي عندما جاءا لنجدتي، وجميع أنصاري أداروا ظهورهم لأعدائي. وهربوا مثل السفن أمام الرياح العاتية أو مثل الخرفان التي تطاردها الذئاب الجائعة. أين أنتم يا أولادي؟ الله يعلم ماذا حلّ بهم. إن ما أعرفه هو أنهم تصرفوا، إن كانوا أحياء أو أموات، كرجال لم يخلقوا إلا للمجد. ثلاث مرات شقّ ريشار طريقه حتى وصل إليّ، وثلاث مرات صاح : تشجع يا أبي، واصمدْ حتى النهاية. ثم ثلاث مرات وصل ادوارد الى جانبي وسيفه بلون الأرجوان، مصبوغ حتى قبضته بدم الذين جابهوه. وعندما انسحب أشجع المقاتلين صرخ ريشار : هاجموا ولا تتخلوا عن شبر من الأرض. وظل يصيح : ليس أمامنا إلا التاج، أو القبر المجيد، والصولجان أو الحفرة الضيقة في أرض شريفة. وبناء على ذلك هاجمناهم مرة أخرى، لكننا يا للأسف فشلنا مرة أخرى. وهكذا رأيت البجعة تجاهد عبثاً في السباحة بعكس اتجاه مجرى الماء، وتبذل أقصى جهدها لمكافحة الأمواج العنيدة (يسمع صوت إنذار مقتضب). انصتوا. إن المضطهد المشؤوم يلاحقنا وأنا منهوك القوى لا يسعني أن أهرب من غضبه، حتى ولو كنت أمتلك كامل قواي لما تسنى لي أن أتجنبه. لأن حبّات الرمل التي تحصي أوقات حياتي معدودة. هنا عليّ أن أبقى، وهنا يتحتم على مصيري أن يوصلني الى حتفي.

(تدخل الملكة مرغريت وكليفورد ونرتمبرلند وبعض الجنود).

تعالَ أيها السفاك كليفورد، ويا أيها المتوحش نرتمبرلند. أنا أتحدّى غضبك الهائج وجنونك الرهيب، فأنت تستهدفني، وأنا لا أخشى طعناتك.

نرتمبرلند : استسلم الى مشيئتنا، يا بلانتاجينيه المتجبر.

كليفورد : أجل، الى مشيئتكم التي لا ترحم لأنكم قتلتم أبي عندما سدّدتم له الحساب. حينئذ سقط فاتيون ابن الشمس عن مركبته، وجعل الظلام يخيّم حتى في رابعة النهار.

يورك : إن بقاياي نظير رماد طائر الفينيق الذي يسعه أن ينبثق منه ليثأر لي منكم جميعاً. وعلى هذا الأمل أرفع أنظاري الى السماء، وأنا أهزأ بكل ما يمكنكم أن تنزلوه بي من بلايا. فلماذا لا تتقدمون نحوي؟ كيف ترتضون بأن تكونوا جماعة ترتجف من الخوف؟

كليفورد : هكذا يحارب الجبناء الرعاديد عندما لا يتمكنون من الهرب، وهكذا تعض الحمائم مخالب الصقر الجارحة، وهكذا ينهال اللصوص المحكوم عليهم، وقد يئسوا من الحياة، بالإهانات على شهود قبائحهم.

يورك : أرجو منك يا كليفورد أن تتأمل لحظة بما تذكرك به أيام حياتي الماضية. ثم أن تنظر الى عينيّ إن أمكنك، وأن تعضّ لسانك الذي ينطق بجبانة رجل كانت أنظاره ترعدك وتحملك كالمهزوم على الفرار.

كليفورد : لا أريد أن أهاجمك بكلامي، بل أن أقارعك بخنجري، وأردّ لك أربع طعنات لقاء كل طعنة. (ينتضي خنجره).

الملكة مرغريت : قف، يا كليفورد الشجاع، لألف سبب أريد أن أطيل عمر هذا الخائن الزميم. فالهياج قد بلاه بالصمم. اسمع كلمة واحدة مني، يا نرتمبرلند.

نرتمبرلند : قف يا كليفورد. لا تبدأ بجرح اصبعه لكي تخزق قلبه.

إن الكلب الذي يكشّر عن أنيابه، ليس من الحكمة أن تمتد اليد الى شدقيه، بينما يتيسر طرده بركلة رجل. لا بدّ للحرب من أن تنتزع حقوقها من المقاتلين ولا تقتضي البسالة أن يقاتل المرء وحده عشرة رجال ويسوّد صفحة شجاعته، وقد قيل بحقّ إن الكثرة تغلب المرجلة.

(يجري اشتباك مع يورك الذي أخذ يخبط خبط عشواء).

كليفورد : أجل، أجل، هكذا يتخبط الديك، الفصيح على تلّته، في فخّ العصافير.

نرتمبرلند : وهكذا يتمايل الأرنب تيهاً في شبكة الصياد.

(يقع يورك في الأسر).

يورك : وهكذا أيضاً يظفر اللصوص بالغنيمة الباردة، كما يسقط الرجل الشريف تحت طعنات قطاع الطريق.

نرتمبرلند (للملكة) : والآن، ماذا تريدين أن تفعلي به، يا صاحبة الجلالة.

الملكة مرغريت : أيها المحاربان الشجاعان كليفورد ونرتمبرلند، أوقفاه على هذه الأكمة، طالما مدّ ذراعيه ليعانق الجبال بدون أن يضمّ سوى الأشباح. ماذا تقصد أنت يا من تريد أن تصبح ملك انكلترا، أنت يا من تتشامخ متخاذلاً في مجلسنا، وأنت تتبجح بعراقة النسب. أين إذاً ابنك الذي يعتبر ذاته بقوة فرقة محاربين ليبادر الى نجدتك. أين ادوارد المستهتر المستسلم الى مجونه، أين ابنك الصغير الذي يزمجر بصوته الأجش ويهيج دفائن نفس أبيه؟ أين أيضاً عزيزك رتلند؟ إليك يا يورك المنديل الذي لوّثه بالدم حدّ سيف كليفورد الشجاع، وقد فجّره من صدر الطفل. وإذا كانت عيناك قادرتين على أن تبكيا موته سأعطيك هذا لتمسح به وجنتيك. لكني آسف يا يورك المستكين إذا لم أبغضك حتى الموت سأرثي لحالك

ولبؤسك. أرجوك أن تشفق لتفرجني يا يورك. يمكنك أن تميد وتهيج وترغي وتزبد حتى يتسنى لي أن أغني وأرقص. ماذا أرى؟ هل جفّت رقة قلبك في صدرك حتى لا تستطيع أن تذرف دمعة على رتلند؟ لماذا كل هذا التجبّر، يا رجل؟ لا بدّ من أن تحتدم غيظاً وغضباً. ولكي أضرم بين ضلوعك نار الحقد، ها أنا أسخر منك. إني أنظر إليه لأتسلى. فهل تريد أجراً على ذلك؟ لا سبيل ليورك أن يتحدث بدون أن يكلّل التاج رأسه. هيا إليّ بهذا التاج لأضعه على رأس يورك. وأنت يا مولاي اخضع له. امسكوا بأيديه بينما أنا أتوجّه (تضع على رأسه تاجاً من الورق). وربي، يا سادة، أرى له سحنة الملك، وهو وريثه بالتبنّي. لكن كيف تسنى لبلانتاجينيه الكبير أن يتوّج باكراً ويحنث بعهده العلني؟ إذا لم أكن مخطئاً، لا حقّ لك بأن تستأثر بالعرش قبل أن تختطف المنية شخص الملك هنري. وهكذا تكلل رأسك وتتنكر لوعدك المقدس. هذا جرم لا سبيل الى الصفح عنه بشكل من الأشكال. فليسقط هذا التاج وليسقط معه هذا الرأس أيضاً. والزمن الذي يساعدنا على التنفس، كفيل بأن يسقيه كأس المنون ويحرمه نعمة الحياة.

كليفورد : أنا أطالب بهذه الطقوس إكراماً لذكرى والدي.

الملكة مرغريت : كلاّ؛ توقفوا. لنسمع خطابه الرنّان.

يورك : يا ذئبة فرنسا، بل أشرس من الذئاب المفترسة، أنت يا صاحبة اللسان السليط السام أكثر من أنياب الأفعى، لا يليق بجنسك الذي يقال عنه إنه لطيف أن ينتصر، يا أيتها المستهترة الدنيئة، يا طالع النحس، يا عنوان الخساسة التي شاء شقاؤك أن تكوني أسيرة. إذا كان وجهك مقطب الحاجبين كأنه قناع غريب مخيف إذا لم يكن مخلوقاً للأعمال الحقيرة التي تخفي كالحجاب حياءك بحكم أفعالك الخبيثة، سأحاول

أيتها الملكة المتشامخة أن أجعل الاحمرار يجتاح محياك. وأن أسألك من أنتِ، ومن أين أنت تنحدرين، ما دام هذا سبباً كافياً لإخجالك ولو كنتِ خالية من كل حشمة. ان والدك يحمل لقب ملك نابولي وصقلية، مع انه أقل غنى من الفلاّح الانكليزي. هل هذا الملك المسكين هو الذي علمك الوقاحة؟ هذا أمر لا جدوى منه بل مرهق للغاية أيتها الملكة الجبانة، إذا كنت تريدين تبرير القول المأثور: الخيّال القذر يظل راكضاً حتى تموت مطيّته. حقاً هو الجمال الذي يجعل المرأة في أغلب الأحيان جبانة. لكن الله يعلم مقدار هزال زوجتك. إنما المرأة الفاضلة فقط تستدر الإعجاب، والعكس يولّد فيها الوجوم، والحياء يضفي عليها مسحة الأنوثة والنعومة، بينما الوقاحة تجعلها في منتهى القباحة. أنت نقيض كل خير، كما أن الفضيلة نقيض المجون، والجنوب نقيض الشمال. يا قلب النمر المستتر ببشرة المرأة كيف تسنى لك أن تحتفظي بوجه امرأة بعد أن سفكت دم طفل وقلت لأبيه أن يكفكف دموعه؟ النساء عادةً كلهن حنان ورقّة وشفقة وإحساس، بينما أنت مقدودة من صخر أصمّ، أنتِ خشنة صلبة ومُرّة كالعلقم وعديمة الرحمة. كنت تنذرينني بأن لا أستسلم الى الغضب. وها هو رجاؤك قد تحقق. كنت تريدينني باكياً وها هي مشيئتك قد نفذت. لأن الرياح الهوجاء تطرد المطر الوشيك الهطول، وحالما يهدأ هبوبها تبدأ الأمطار بالانهمار. هذه الدموع هي جنازة رتلند اللطيف، وكل منها يطلب الانتقام من قاتليه، منك أنت يا كليفورد الشرير ومنكِ أنتِ يا أيتها الفرنسية الجاهدة.

نرتمبرلند : تباً لك، أن تأثرك يهز مشاعري الى حد أني أكاد لا أمسك دمعي عن الانهمار على خدّيّ.

يورك : ألا ترى أن وجهه يشبه أكلة اللحوم الجشعين الذين لا يكفّون

عن الافتراس وعن مصّ الدماء. لكنك أنت أكثر وحشية وبعداً عن الانسانية بعشرة أضعاف بل أشرس من النمور بما لا يقاس. أنظري أيتها الملكة العديمة الاحساس، هذا المنديل الذي لوثته بدم ولدي الحنون. دعيني أغسل دمه بدموع عينيّ. خذي إذاً هذا المنديل وتبجحي بإثمك المشؤوم (يرد لها المنديل) سترويْن الحادث تماماً كما جرى، وحق السماء سيسكب السامعون دمعهم مدراراً. أجل حتى أعدائي سيذرفون الدمع بغزارة ويقولون : واأسفاه، هذا الجرم يستدعي الازدراء. هيا خذي هذا التاج ومعه تلقي لعنتي. وأنا كلي أمل أن أجد عزاءً في محنتي التي أنزلتها بي يدك القاسية. يا كليفورد الفظّ اقتلعني من هذا العالم، فتصعد روحي الى السماء ويُهدر دمي على رؤوسكم.

نرتمبرلند : لو سفك دم جميع أفراد أسرتي، لما وسعني أن لا أبكيهم معه وأنا أرى ما يسحق قلبه ألماً.

الملكة مرغريت : ماذا أرى؟ هل تتباكى يا مولاي نرتمبرلند؟ تذكر فقط ما ألحقه بك من شرور، فلا يلبث دمعك أن يجفّ.

كليفورد : هذا وفاء عهدي، وهذا جزاء موت أبي.

(يطعن يورك).

الملكة مرغريت : وهذا في سبيل الانتقام لملكنا الممتاز.

(تطعنه بالخنجر).

يورك : افتح يا رب أبواب رحمتك. فإن نفسي تطير إليك من خلال جرحي. (يموت).

الملكة مرغريت : اقطعوا له رأسه، وضعوه عند باب مدينة يورك بشكل يجعل سيد يورك يسيطر على مدينته. (يخرجون).

الفصل الثاني

المشهد الأول

في سهل قرب صليب مريتمور في كونتيّة هيرفورد.

(يسمع قرع طبول. يدخل ادوارد وريشار مع رجالهما المسلحين في مشية عسكرية).

ادوارد : إني أتساءل كيف هرب والدنا الجليل، وكيف تمكن من الخلاص من مطاردة كليفورد ونرتمبرلند؟ فلو تمكنا من القبض عليه لبلغنا الخبر. ولو كانا قتلاه لبلغنا الخبر أيضاً. إنما لو كان فعلاً هرب، يخيّل إليّ أننا كنا سمعنا بخلاصه المرتجى. كم أتوق إلى معرفة أحوال أخي، ولماذا هو هكذا حزين؟

ريشار : لن يهدأ لي بال قبل أن أعلم ما حلّ بوالدنا الشيخ الشجاع. لقد رأيته يتجوّل في كل اتجاه وسط ميدان القتال، ولاحظت كيف يهاجم كليفورد، وهو في عزّ المعركة، نظير أسد بين قطيع من الثيران، أو كدبّ تطارده الكلاب : فحالما يعض بعض الكلاب الدبّ يقف باقي الكلاب بعيداً ويعوون عليه. هكذا كان والدنا يفعل بأعدائه، وهكذا كان الأعداء

يهربون من ثورة غضبه الهائل الرهيب. وما أعظم أن نكون نحن أولاده! انظروا كيف نشر الفجر أنواره الذهبية ليستقبل الشمس الساطعة. وهو يشبه شاباً في مقتبل العمر يتباهى بفتوته الرائعة أمام حبيبته المشرقة المحيا.

ادوارد : هل انبهر نظري، أم أني أرى ثلاث شموس حقاً؟

ريشار : أجل ثلاث شموس مشرقة كل منها تمتاز عن الأخرى، يفرق بينها غمام أبيض من رحابة ذلك المدى الصافي الأديم. انظروها كيف تقترب إحداها من رفيقتها وتتعانق بشوق وانسجام كأنها تقسم على الولاء لتكوّن مصباحاً ونوراً وشمساً واحدة. وهذا دليل على أنّ السماء منشغلة بحادث خطير.

ادوارد : هذا أمر غريب جداً، لم تسمع به أذن. أعتقد يا أخي بأن السماء تدعونا الى معركة جديدة، وتطلب منا نحن أولاد بلانتاجينيه الباسل، وقد لمع نجمنا وذاع صيتنا أن نحزم أمرنا ونجمع أنوارنا في مشعل واحد نظير هذه الشمس الساطعة على العالم أجمع. ومهما كان هذا التنبيه خطيراً أودّ أن أحمل من الآن وصاعداً هذه الشموس الثلاث كشعار.

(يدخل رسول).

من أنت، ومظهرك المرهق ينبئ بقصة مريعة ترتجف لفظاعتها شفتاك؟

الرسول : أنا رجل مجرّب عاركت الدهر وشاهدت ما يشيب لهوله الأطفال، إذ أبصرت مقتل والدك دوق يورك النبيل الوقور وهو مليكي الحبيب المفدّى.

ادوارد : كفّ عن هذا الكلام، فلقد سمعت أكثر من اللازم.

ريشار : أخبرني كيف مات، لأني أريد أن أسمع عنه أدق التفاصيل.

الرسول : كان محاطاً بعدد من الأعداء، وكان يقاتلهم كبطل مغوار،

وكأنه أمل خلاص طروادة في محاربتها اليونانيين الذين حاولوا السيطرة على ضحيتهم. إن هرقل ذاته لا يستطيع مقاومة الجماعة التي تهزمه بوفرة العدد، لأن ضربات الفأس المتواترة وإن خفيفة تقطع في آخر الأمر أضخم أشجار السنديان. ووالدكم ما تغلب عليه إلا الغدر والنزالة فذبحه الشرس كليفورد نصير الملكة التي كافأت هذا الدوق السفّاك بضحكة مريرة رنّت قهقهتها في أجواء الأسى وارتجت لها القلوب الكسيرة. وعندما بكى حسرة وألماً قدمت له وجنتيها لتمسح بهما دموعه ومنديلاً لوَّثه الدم الذكي الذي سال من جرح الشاب اللطيف رتلند حين قتله كليفورد بوحشية. وبعد وابل من الإهانات والسباب الدنيء قطعوا رأسه ووضعوه على باب مدينة يورك حيث بقي منظره القاتم معروضاً كشبح يرهب الخواطر ويلهب الأحقاد.

ادوارد : يا حبيبي يورك، على من نتكل الآن بعد أن فقدناك ولم يعد لنا من يناصرنا ويحمينا. وأنت يا كليفورد اللعين قتلت زهرة فرسان أوروبا الذي ما تغلبت عليه إلا بخيانتك المنحطّة، إذ لو قارعت خنجره بخنجرك لكان حتماً نال منك وأزالك من عالم الوجود كأنك لم تكن يوماً في هذه الدنيا. منذ ذلك الوقت أضحت نفسي سجينة في أعماق صدري الموغر حقداً عليك. ولو تسنّى لها أن تهرب من جسمي لدفنت السلم في أعماق الأرض الى الأبد، وما ذقت طعم الفرح أبداً بعدئذ وما هدأ لي بال.

ريشار : أنا لا أستطيع البكاء لأن كل دموعي لا يسعها أن تطفئ لظى قلبي، ولساني لا يقوى على تخفيف عبء همومي. لأن الأنفاس اللازمة لإخراج جميع كلماتي تضرم الجمر المتأجج في أحشائي، وتزيد لهيب الحريق الذي تحاول دموعي أن تخمد نيرانه. وما دام البكاء يخفف الألم، فهيّا

الى البكاء أيها الأولاد، وعليّ أنا أن أقاتل وأنتقم. أنا أحمل اسمك يا ريشار وأنوي أن أثأر لموتك أو أموت في سبيل المحافظة على أمجادك.

ادوارد : هذا الدوق الباسل ترك لك اسمه ودوقيّته ومكانته.

ريشار : إن كنت حقاً ابن هذا النسر الملكي، عليك أن تبرهن عن أصالة نسبك بأن تحدق بأنظارك في نور الشمس. أنت تقول إنه ترك لي دوقيته ومكانته؟ بل قل عرشه ومملكته، فكلاهما لك أو أنت لست من صلبه.

(تسمع مشية عسكرية. يدخل ورويك ومونتيكو مع جنودهما).

ورويك : الى أين وصلت أيها اللورد الوسيم. وما وراءك من الأخبار؟

ريشار : يا لورد ورويك العالي المقام، كان علينا أن نقصّ حكاية مصائبنا. فلدى كل كلمة كنا نتلقى طعنة خنجر الى أن تمّ فينا قول كل ما يمكن قوله، لأن الكلام يحفر أخاديد اللوعة والكمد بدلاً من الجراح البليغة الأليمة. أيها اللورد الشجاع، قُتل دوق يورك وترك في صدرنا غصة.

ادوارد : لهفي على ورويك سليل أسرة بلانتاجينيه. هو عزيز على قلوبنا نظير طمأنينة نفوسنا وأمانها. وقد قضى عليه لورد كليفورد الغادر.

ورويك : منذ عشرة أيام، وأنا أطفئ بالدموع ما أورثني إياه هذا النبأ من الأسف. والآن زاد شقاؤك بسبب ما أطلعتك عليه من الأحداث منذ ذلك الحين. فبعد القتال الدامي الذي جرى في ويكفيلد حيث لفظ والدك الشجاع أنفاسه الأخيرة، بلغني خبر الكارثة ونبأ موته وصل إليّ بالبريد السريع. كنت في لندن أحرس الملك، فجمعت جنودي ولفيفاً من الأصدقاء، وبرفقة قوات ظننتها كافية زحفت على سنْتلْبان لأسدَّ الطريق على الملكة وآتي بالملك كي يسمح لي بمجابهتها لأن

جواسيسي أعلموني بأنها قادمة وهي تنوي أن تلغي آخر قرار اتخذه المجلس بخصوص ما أقسم الملك لأجله من يمين واستلامك منه العرش. وبالاختصار تلاقينا في سنتلبان واصطدم جيشانا وتقاتل حزبانا بغيظ وضراوة. ولا أدري إن كان ما أصابنا من إخفاق سببه انشغال الملك بتأمل زوجته التي خففت بعدائها حماس جنودي، أم هي الضجة التي أحدثها نجاح الملكة، أم بالحري هو الخوف الناجم عمّا يفرضه كليفورد، وقد صعق أسراه بمشاهدة الدم والموت؟ لست أدري. على كل حال، كانت أسلحة الأعداء تروح وتجيء نظير البوم المشؤوم أو منجل الحصاد الكسول الذي يضرب بتهاون واسترخاء كأنه يصيب بعض الأصدقاء. حاولت أن أنشطهم بالثناء على قضيتنا العادلة والوعود بإجزال العطاء والمنح الوافرة. لكن على كل هذا كان بلا جدوى. إذ لم يكن لديهم الإقدام اللازم للقتال. ونحن لم يعد لدينا أمل بالانتصار، فتقاعس رجالنا هؤلاء ففضلنا الهرب، على أن يلاقي الملك ملكته ولورد جورج شقيقك وأنا ونورفولك، لنوافيكم على جناح السرعة. لأننا علمنا أنك هنا، على أهبة السير بعد أن جمعتم جيشاً آخر للقتال.

ادوارد : أين دوق نورفولك، يا عزيزي ورويك؟ ومتى رجع جورج من بوركون الى انكلترا؟

ورويك : مقرّ الدوق، على بعد ستة أميال تقريباً من هنا، وهو مع جنوده. أما أخوك فقد وصل الينا منذ هنيهة آتياً من لدن عمتك دوقة بوركون مع نجدة من الجنود ضرورية لهذه الحملة.

ريشار : لم تكن الحملة متوازية، فما كان على ورويك الشجاع إلا الفرار. وكم سمعت من حديث ينسب اليه شرف المطاردة، لكني لم أعلم حتى اليوم بأنه واجه ذلّ الانسحاب.

وورويك : أنت لن تقف اليوم على قصة إذلالي يا ريشار، لأنك سترى أني لا أزال أحتفظ بذراعي القوية لكي أنزع التاج عن رأس هنري الضعيف، ومن يده الصولجان الرهيب، وان عُرف بشجاعته في الحرب فهو لطيف هادئ متديّن.

ريشار : أنا أعرف ذلك يا لورد وورويك، فلا تلمني، إن رغبتي في رؤيتك منتصراً هي التي تحملني على الكلام. لكني في هذه الأوقات العصيبة ما عساي أن أفعل؟ هل علينا أن نرمي جانباً دروعنا الفولاذية ونرتدي ثياب الحداد ونرتّل أناشيدنا وصلواتنا بحزن؟ أم علينا أن نحمل أسلحتنا ونهجم بإيمان، في سبيل الانتقام، ونحطم خوذات أعدائنا؟ فإن كنت من هذا الرأي، فقل نعم، وهيا الى القتال، يا مولاي.

وورويك : لهذا السبب جئت يا وورويك وسأصطحبك. ولهذا السبب أيضاً أتى أخي مونتيكو. انتبهوا أيها اللوردات. إن الملكة الجبانة الوقحة، بالاتفاق مع كليفورد والمتشامخ نرتمبرلند وغيرهما من الطيور الكاسرة التي تشبههما، قد عجنوا الملك كأنه شمع طري، وأقسموا جميعاً على أن تكون أنت خلفه، وحلفانهم مسجّل في المجلس. الخلاصة أنهم ذهبوا كلهم الى لندن لإلغاء هذا القسم وكل ما يقوم عقبة في سبيل وصول أسرة لنكاستر الى مبتغاها. وها هي قواتهم يبلغ تعدادها ثلاثين ألف رجل. والآن إذا كان عدد مسلحي نورفولك ومسلّحيَّ أنا أيضاً وجميع الأنصار الذين تستطيع استدعاءهم أنت يا كونت مارش الشجاع من بين أهالي ويلز، ويمكنهم أن يحملوا أسلحتنا، يناهز عددهم خمسة وعشرين ألف مقاتل، فإلى الأمام لنزحف رأساً على لندن ممتطين ظهور جيادنا النزقة ونصرخ بأعلى أصواتنا : هيا نهاجم أعداءنا يا فرسان، وكلنا عزم وطيد هذه المرة على أن لا نتراجع ولا نخيب.

ريشار : الآن جاء دور وورويك الكبير ليسمعنا صوته. نتمنى أن لا

يرى يوماً نور الشمس الساطعة كل من تسوّل له نفسه الانسحاب من المعركة عندما يأمره ورويك بالصمود.

ادوارد : يا لورد ورويك، أنا متكل عليك في تنفيذ هذه المهمة. فإذا فشلت لا سمح الله الذي أسأل أن يحميني من مثل هذا الموقف الحرج، أرجو أيضاً أن لا أسقط أنا وادوارد معاً.

ورويك : أنت لم تعد كونت مارش، بل أصبحت دوق يورك. والمرتبة التالية التي سترتقي اليها هذه المرة ستكون درجات عرش انكلترا بدون شك. وستتوج ملكاً في لندن وجميع المدن والقرى التي سنمرّ بها. ومن لا يلقي بقبعته في الهواء ابتهاجاً، سيدفع رأسه ثمن هذه الإهانة. أيها الملك ادوارد، ويا ريشار الباسل ويا مونتيكو، علينا أن لا نتوقف لنحلم بالأمجاد، بل أن نأمر بنفخ الأبواق لنبدأ هجومنا.

ريشار : مهما قسا قلبك يا كليفورد وأصبح صلباً كالفولاذ، وقد برهنت أنه كالصخر الأصمّ، فأنا أبادر الى اختراقه أو أسلّمك أنا قلبي.

ادوارد : اقرعي إذاً يا طبول، والله وشفيعنا جاورجيوس يكونان في عوننا.

(يدخل رسول).

ورويك : ما وراءك من الأخبار؟

الرسول : أوفدني دوق نورفولك لأبلغ الملكة أن تتقدم مع جيش قوي لأنه يتكل على مساندتك ليحقق لنا تحريراً سريعاً.

ورويك : كل شيء يسير على ما يرام. فهيا أيها المحاربون الشجعان.

(يخرجون).

المشهد الثاني

أمام مدينة يورك.

(يدخل الملك هنري والملكة مرغريت وأمير ويلز وكليفورد، ونرتمبرلند مع جنودهم).

الملكة مرغريت (للملك) : أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم في مدينة يورك هذه. هنا يجثم رأس عدونا اللدود الذي حاول أن يغتصب منك تاجك. ألا يفرحك هذا المشهد، يا مولاي؟

الملك هنري : كما يسرّ منظر الصخر الراسخ، من يخشى الغرق في اللجة. هذا المنظر يضيق له صدري. فأرجوك أن تؤجل انتقامك، يا عزيزي، فالذنب ليس ذنبي، وان حنثت بقسمي، فليس بمحض ارادتي.

كليفورد : يا مولاي الكريم، إن هذا اللطف العقيم، وهذا الحنان المؤذي، لا بد من أن ندعهما جانباً. فعلى من يلقي الأسد نظرة الاشفاق؟ طبعاً ليس على البهيمة التي تقتحم عرينه لتطرد اصحابه منه. ثم يد مَن يلحس الدب في الغابات؟ ليس طبعاً يد من يهاجم صغاره أمام عينيه. ومن ينجو من لسعة الحية الرقطاء؟ ليس بالطبع من يدعس بقدمه ذنبها اللين. لأن أحقر حشرة تلدغ الرِجْل التي تحاول دوسها، وكذلك الحمامة الوديعة تنقد من يحاول تخريب عشها. فالطامع يورك كان يتمنى الاستيلاء على تاجك وأنت تبتسم له، بينما كان هو يقطب حاجبيه غضباً. وهو الذي لم يكن أكثر من دوق، شاء أن يجعل من ابنه ملكاً ليرفع ذرّيته الى أعلى مراتب الحكم، وأنت الملك، ولك ابن ممتاز رضيت بأن تحرمه، وتتصرف هكذا كأب ارعن. ان العصافير الخالية من العقل والتفكير تغذي صغارها، ومهما كان وجه الانسان دميماً

في نظرها، فلكي تدافع عن فراخها تتسلح بالأجنحة ذاتها التي تساعدها على الهرب أمام الخطر لتتصدّى لعدوها المتسلق للسطو على أعشاشها، ولا تتردد في بذل حياتها لأجل صيانة صغارها. ففي سبيل سعادتك يا مولاي الملك، يمكنك أن تستخلص العبر، أوليس من الحيف أن تضيع حقوق ولدك في الملك من بعدك؟ وذلك بسبب تخاذلك. فيقول لابنه ذات يوم : ان ما كان يملكه أجدادي تخلّى عنه أبي الذي لم يأبه لما كان في يده فأضاعه. يا للعار! انظر الى هذا الصبي الذي يشرق محياه بالأمل، واستمدّ من نضارته وبراءته ما يقويك على الدفاع عما وصل اليك لتحافظ عليه وتسلمه الى ولدك.

الملك هنري : لقد تبيّن ان كليفورد أبدى بلاغة خارقة في الخطابة، وجاء بالبراهين الدامغة. هل تظن دوماً ان السعد حليف ابن الوالد الذي ذهب الى الجحيم بسبب ما اختزنه من أموال. أنا سأورث ابني أعمالاً صالحة. أشكر الله على أني لم أرث ما هو أثمن، لأن سائر الأمور تشترى مهما غلا ثمنها. فإن قلت لك ان المرء يشقّ عليه ألف مرة الاحتفاظ بالملذات أكثر من الحصول عليها وامتلاكها. فيا ابن العم يورك ليت أصحابك يدركون كم أنا متأسف على ما وصلت اليه من حالٍ في هذه الظروف العسيرة.

الملكة مرغريت : ارفع معنوياتك يا مولاي، فالعدو قد اقترب. وقلة شجاعتك تثبط عزيمة اتباعك. لقد وعدت برتبة الفروسية ابننا البكر الطموح، فقلده سيفك حالاً. اركع يا ادوارد.

الملك هنري : يا ادوارد بلانتاجينيه، انهض فقد أصبحت فارساً. واحفظ وصيتي هذه : عليك أن تمتشق حسامك كلما دعاك الواجب الى ذلك.

أمير ويلز : أشكرك يا والدي العزيز، وباذن جلالتك سأمتشق هذا الحسام

الذي يحمي التاج، وفي هذه المشادة سأستعمله حتى الممات.

كليفورد : هذا كلام أمير شجاع قدير.

(يدخل رسول).

الرسول : أيها القادة الأبطال، استعدوا، فان ورويك قادم على رأس عصابة من ثلاثين ألف رجل، وهو يعتمد على دوق يورك ليجتاز جميع المدن وينادي الشعب به ملكاً فيجتذب الجماعات اليه. نظموا صفوف جنودكم الواقفين على أهبة الاستعداد للقتال.

كليفورد (للملك) : أتمنى أن تترك جلالتك على الفور ساحة القتال، فنجاح الملكة مضمون أثناء غيابك.

الملكة مرغريت : أجل، يا مولاي. اتركنا نتدبّر شؤوننا لئلا يخزلنا حظنا.

الملك هنري : حظك هو حظي أنا أيضاً. لذا أنا باقٍ هنا.

نرتمبرلند : وليشتمل قرارك هذا على القتال أيضاً.

أمير ويلز : يا والدي الملك، أرجو أن تشجع هؤلاء اللوردات النبلاء، وأن تحمس من يريد الحرب في سبيل حمايتك. استلّ سيفك يا أبي الحبيب، واستعنْ ببسالة شفيعك جاورجيوس.

(يسمع نشيد عسكري. يدخل ادوارد وجورج وريشار وورويك ونورفولك ومونتيكو والجنود).

ادوارد : هيا اذاً يا هنري، اركع على ركبتيك واطلب العفو، ثم ضع تاجك على رأسك، واشترك في مغامرة تقرر مصيرك المتأرجح.

الملكة مرغريت : اذهب ووبّخ أحبابك أيها الولد الوقح. الأحرى بك أن تخاطب مليكك بجرأة وتقدّم له واجب الاحترام.

ادوارد : أنا مليكه، وعليه هو أن يركع أمامي. لقد اختارني وريثاً

له بملء رضاه. ومنذ أن حنث بيمينه، كما بلغني، أصبحت أنت الملك الحقيقي، وإن ظل هو يحمل التاج على رأسه. ولقد أجبرته بموجب قرار جديد من المجلس على إزاحتي من الدرب وتنصيب ابنه مكاني.

كليفورد : هذا حق شرعي. ومَن يخلف الأب إلّا ابنه؟

ريشار : أنت اذاً هنا، يا جزار؟ وأنا لا أرى سبيلاً الى محادثتك؟

كليفورد : أجل، أيها الأحدب. ها أناذا أجيبك وأجيب كل الحمقى الوقحين أمثالك.

ريشار : أنت قتلت رتْلند الشاب أليس كذلك؟

كليفورد : نعم، يا يورك العجوز. وأنا لا أزال حانقاً.

ريشار : باسم السماء يا مولاي، اعطِ اشارة البدء بالقتال.

ورويك : ماذا تقول يا هنري؟ هل أنت مستعدّ لتنازل عن التاج؟

الملكة مرغريت : أجل أنت طويل اللسان ولا تجسر على الكلام. في آخر مرة تقابلنا أنا وأنت في سنتلبان، أذكر جيداً أن رجليك تحركتا أكثر من يديك.

ورويك : اذا كان دوري بالأمس أن أهرب، فقد جاء اليوم دورك أنت.

كليفورد : لقد نصحتك قبلاً ولم تهرب.

ورويك : ليس توجيهك الذي يحملني على الانسحاب يا كليفورد.

نرتمبرلند : ولا بسالتك التي أعطتك القوة لتتشبّث بعناد.

ريشار : يا نرتمبرلند، بما أني أحترمك، أرى من الأفضل أن تقف محادثتنا عند هذا الحد، لأني أكاد أتمالك انفجار قلبي المنتفخ غضباً على كليفورد قاتل الأولاد الشرس.

كليفورد : أنا قتلت أباك. فهل تحسبه طفلاً؟

ريشار : أجل، أنت قتلته بجبانة وخيانة، كما قتلت أخانا الحنون رتْلند. لكن قبل مغيب الشمس ستحل عليك اللعنة بسبب فعلتك هذه.

الملك هنري : كفى أيها اللوردات. اصغوا اليّ.

الملكة مرغريت : تحداهم اذاً، وإلاّ أغلق فمك ولا تنطق بكلمة.

الملك هنري : أرجوك أن لا تضعي القيد في تصرفي، فأنا ملك ولي حق التكلم بحرية.

كليفورد : يا مليكي، ان الجرح الذي أوجب هذا الاجتماع لا يمكن لأي حديث أن يشفيه، فالزم الصمت اذاً.

ريشار : إستلّ سيفك، يا سفاك الدماء. بحق من خلقنا جميعاً أنا مقتنع بأن شجاعة كليفورد محصورة في لسانه فقط.

ادوارد : تكلم، يا هنري. هل تعترف بحقي أم لا؟ ان آلافاً من الرجال الذين تغدوا هذا النهار لن يتعشوا هذا المساء، اذا لم تتنازل عن العرش.

ورويك : اذا رفضت التنازل، سيهدر دمهم على رأسك، لأني أنا يورك، لأجل فرض عدالتي قد ارتديت درعي الحديدي.

أمير ويلز : ان ما يقوله يورك هو الحق بعينه، فلن يبقى في الدنيا من ظلم، وسيصبح كل شيء في منتهى العدل.

ريشار (يشير الى الملكة) : لا يهمني من كان أبوك، فها هي أمك، وأنا أرى فيك لسانها الزلق.

الملكة مرغريت : لكنك لا تشبه أباك ولا أمك. فأنت مسخ شوهتك الرذيلة، وقد حكم عليك مصيرك بأن يحتقرك الجميع نظير ضفدع حقير أو حية رقطاء أو شوكة سامة.

ريشار : أنت حديد من نابولي مطليّ بذهب انكليزي، ووالدك يحمل لقب ملك، لكنك كساقية تتكنّين بالمحيط. الا تستحين، وأنا أعرف منبتك، عندما يخونك لسانك البذيء الذي ينطق بفضلات قلبك الخسيس؟

ادوارد : انا مستعد لأن أدفع درهم ثمن حزمة قضبان تذكرك بهذه السافلة المستهترة، هيلانة اليونانية التي كانت أجمل منك وكان زوجها مينيلاس مغبوناً. مع ذلك لم يحنق شقيق أكاممنون هذا، ولم تغضبه هذه المرأة الجاحدة، رغم كون

وضعه يشبه حالك. فقد انتصر والدها في قلب فرنسا وسيطر على الملك وضغط على ولي العهد. وإن حقق زواجاً مناسباً كما يشتهي، لحفظ حتى الآن هذه الثروة الضخمة من الأمجاد. لكنه حالما قَبِلَ في سريره هذه المتسوّلة، جرّ على رأسه عاصفة من الكوارث اكتسحت فرنسا وامبراطورية والده، وأثارت التمرد على عرشه. اذ لم يسبب هذه الاضطرابات الهدامة إلا كبرياؤه وعجرفته. فلو كنت متواضعاً لظلت القابنا محترمة، ومن باب شفقتنا على هذا الملك اللطيف كنا أرجأنا مطالبتنا الى وقت آخر.

جورج : لكن متى سطعت أنوارنا لتنشر الربيع في دياركم، وجدنا أن صيفك لا يزال قاحلاً بالنسبة الينا، وهذا ما حدا بنا الى إعمال الفأس في جذورك المغتصبة. لذا، وان جَرَحَنا حدّ سيفك أحياناً فنحن لم نطرق بعد بابك ولن نتحوّل عنك إلا بعد أن ندكّ كيانك، ونروي عظمتك المتمايدة بغزير دمائك.

ادوارد : بهذا التصميم أنا أتحداك، لأني لا أريد أن أطيل عليك هذه المحاضرة، وأنت تمنع الملك اللطيف من الكلام. انفخوا الأبواق ودعوا اعلامنا تخفق، وإن قطرت دماً، فإمّا الانتصار بعزّة وكرامة، وإما الاندثار في قبر مجيد خالد.

الملكة مرغريت : كفى، يا ادوارد.

ادوارد : كلا، أيتها المرأة المشاغبة المتخاذلة. لن نصبر دقيقة واحدة بعد الآن، لأن طلبك سيكلفنا التضحية بحياة عشرة آلاف مقاتل.

(يخرجون).

المشهد الثالث

في ساحة القتال بين تاوتن وساكستون في مقاطعة يورك شاير.

(يسمع صوت انذار، ومعركة حامية. يدخل ورويك).

ورويك : لقد أنهكني التعب كأني عدّاء في سباق جري طويل. سأستريح هنا لأتنشق الهواء برهة. ما دامت الضربات المتلقاة والمردودة قد ذهبت بقوى عضلاتي المفتولة، فبالرغم من اندفاعي، لا بد لي من أن أستريح بعض الوقت.

(يدخل ادوارد راكضاً).

ادوارد : ابتسمي أيتها السماء الحليمة، أو إطعنْ أيها الموت الغاشم، فكل شيء أظلم في عيني واحتجبت شمسي وراء الغيوم المتلبدة.

ورويك : وهل تنتظر، يا مولاي، أن يكون مصيرنا أبهج من هذا؟ ما هو نصيبنا؟ وماذا بقي لنا من أمل؟

(يدخل جورج).

جورج : مصيرنا هو الهلاك المحتم، وأملنا هو اليأس الكئيب القاتل. صفوفنا قد تمزقت والدمار يلاحقنا ويلازمنا. فماذا تنصحنا؟ والى أين نذهب؟

ادوارد : لا فائدة من الهرب، لأن لأخصامنا أجنحة يطيرون بها. وبما أننا في غاية الضعف، لا يسعنا إلا الابتعاد عنهم.

(يدخل ريشار).

ريشار : آه منك يا ورويك، لماذا انسحبت؟ فالأرض العطشى شربت من دم أخيك الذي هدره رمح كليفورد بأسى وقسوة. اذ

صاح بصوت حزين كناقوس خطر مخنوق : انتقم لي أنا شقيقك واثأر لموتي. وهكذا تحت حوافر جياد الأعداء، وقد ابتلّت جوانبها بدم لا يزال يتصاعد منه البخار، لفظ الوجيه النبيل آخر أنفاسه.

وورويك : لتسكر الأرض بدمائنا. سأقتل حصاني لأني لا أريد أن أفرّ. لماذا نبقى هنا كالنساء الواجفات نندب ما خسرناه، بينما أعداؤنا يهزجون هنا، وأنا راكع أمام الله سيد الأرض والسماء، أتعهد بأن لا أتوقف أو أرتاح، وأن لا يغمض لي الموت جفناً قبل أن يسعفني الحظ وأروي غليل انتقامي بدمه.

ادوارد : يا وورويك، أنا أجثو الى جانبك وأتعهد مثلك بأن أضمّ سعيي الى جهودك لتحقيق ما نصبو كلانا اليه. وقبل أن أنهض وأرفع ركبتيّ عن الأرض الباردة، أرفع يديّ وعينيّ وقلبي اليك يا ربي، يا صانع الملوك ومهلكهم، وألتمس عونك ورعايتك. واذا لم تشأ أن يكون جسمي ضحية أعدائي، إفتح أمامي أبواب النصر ووسّع آفاقي وامنحني الفوز والغلبة، وان كنت خاطئاً. والآن أيها اللوردات، ليودع بعضنا بعضاً الى أن نلتقي ثانية إما في السماء أو هنا على الأرض.

ريشار : اعطني يدك، يا أخي، لنتعانق ولنبحث عن وورويك. أنا لم أنتحب قبلاً، وأحسّ بدموعي تتدفق من مآقيّ، وقد داهمنا شتاء كربتنا، وكان يقطع الطريق على ربيع عمرنا.

وورويك : هيا بنا، هيا بنا. مرة أخرى نسألك اللّهمّ أن تأخذ بيدنا.

جورج : لنذهب ونلحق بجنودنا، ولنسمح بالهرب لمن لا يريد البقاء معنا، ولنحيّي الشجعان الذين يأبون إلا مساندتنا. واذا كتب لنا النصر، نعدهم بمكافآت كما يغنم الجوائز من يفوزون في الألعاب الأولمبية. فهذا يوطّد عزمهم ويوثق عري التعاون بينهم وبيننا. هيا بنا بدون تأخير ولنغادر هذا المكان حالاً.

(يخرجون).

المشهد الرابع

في مكان آخر من ساحة القتال

(تسمع حركات جنود، يدخل ريشار وكليفورد).

ريشار : أخيراً يا كليفورد، أنت تحت رحمتي، تصوّر أن ذراعي هذه تخص دوق يورك، وذراعي هذه تخص رتْلند، وكلاهما تترقبان لحظة الانتقام كأنهما قُدَّتا من البرونز.

كليفورد : أخيراً يا ريشار، أنا أمامك وجهاً لوجه. هذه يدي التي طعنت بها والدك يورك بالخنجر، وهذه التي قتلت بها أخاك رتْلند، وهذا قلبي الذي ظفر بموتهما، وقد شجع يديّ على ازهاق روح أبيك وأخيك، وعلى محوك أنت أيضاً من عالم الوجود. فإليّ إذاً.

(يتقاتلان).

(يدخل ورويك ويهرب كليفورد).

ريشار : لا، يا ورويك. اختر طريدة أخرى، لأني أنا نفسي أريد أن أداعب هذا الذئب المفترس حتى أقضي عليه.

(يخرجان).

المشهد الخامس

في أرض وعرة على أطراف ساحة القتال.

(تسمع موسيقى انذار. يدخل الملك هنري).

الملك هنري : هذه الحرب تشبه معركة هذا الصباح التي تصارعتْ فيها العتمة الزائلة والأنوار الساطعة. في هذه اللحظة حين ينفخ الراعي في نايه، لا يمكن استحضار وهج النهار ولا ظلام الليل. اذ تارة يميل الفوز الى جهة نظير بحر واسع يدفعه المدّ بعكس الرياح، وطوراً يميل الى جهة أخرى نظير الأمواج المتلاطمة أمام ثورة العواصف. حيناً ينتصر البحر وحيناً يفوز الريح. فالغلبة الآن لأحدهما وبعد برهة للخصم الآخر. وكلاهما يتنازعان الظفر وهما يتماسكان وليس بينهما لا غالب ولا مغلوب ما دام الاثنان متعادلين بالقوة والمهارة والحيلة. لأجلس برهة هنا على الأرض، والله يعطي النصر لمن يشاء. لأن ملكتي مرغريت وكذلك كليفورد، أقصياني عن ساحة القتال، وقد أقسما أنهما سيظفران حين أغيب أنا عن المعركة. كم أود أن أموت اذا كانت هذه ارادة الله. وهل في هذه الدنيا غير الحزن والشقاء؟ أحمدك يا الهي، لأني لست سوى راع بسيط. سأستريح هكذا على هذه التلة فترة، وأرسم بدقةٍ دائرة وأراقب فيها سير الزمان أعدّ الثواني والدقائق، وأحسب الساعات والأيام والسنين التي يتسنى للمرء أن يقضيها في هذا العالم الفاني. وعندما أفرغ من حساباتي هذه أرى كيف توزع الأعمار وتقسم الحظوظ، كم من الساعات يمكنني أن أخصّص لقطيعي، وكم من الساعات لراحتي، وكم من الساعات لتأملاتي ولتسلياتي، وكم من الأشهر ستظل نعاجي مليئة وكم يلزم من السنين لتكبر

جزّاتها. هكذا تمر الدقائق والساعات والأيام والأعوام، وتسخّر لغايات مرسومة سلفاً تسرع بشعري الى المشيب ثم بجسمي الى القبر المظلم. تباً لهذه الحياة المرهقة! أولا يمكن أن تكون حلوة ومحبوبة؟ أولا يسع سياج الشوك أن يمنح ظلاً ارحم للراعي الذي يسهر على قطيعه الآمن كما يستظل الملك المرفه خيمة مزركشه تقيه عوادي الزمان وكما يحميه حراسه من غدرات خيانة بعض رعاياه؟ أجل هذا ممكن ألف مرة، أجل، أجل، بالنتيجة أعتقد بأن لبن الراعي الذي يبرّد جوفه أيام الحرّ ويروي به عطشه، جميع هذه الأمور تؤمن له الطمأنينة ببساطة أفضل من كل ما يتمتع به الأمير من الرخاء والمآكل الفاخرة والأواني الذهبيّة البراقة والسرير الوثير الفخم الذي يأوي اليه وفي رأسه تتصارع المطامع وفي صدره ينمو الحذر من الغدر والخيانة.

(يسمع صوت انذار. يدخل ابن قتل أباه ويجر وراءه جثته).

الابن : لا خير في هدوء لا فائدة منه لأحد. وهذا الرجل الذي قتلته أثناء المعركة وجهاً لوجه، ربما كان في جيبه بعض النقود، وقد يسعدني حظي لانتزاعها منه في هذه اللحظة، وقبل هبوط الليل، قد أتنازل عنها لسواي كما انتقلت اليّ من هذا القبيل. ماذا أرى؟ يا الهي. هذا محيا والدي وقد أزهقت روحه بيدي بدون أن أتبيّن من هو في غمار المعمعة. تباً لهذه الأوقات المشؤومة التي تسبب مثل هذه الكوارث. لقد استدعاني الملك الى لندن على عجل. ربما لأن والدي من رجال ورويك، وقد وجد في صفوف جماعة يورك نزولاً عند إلحاح سيده. ما أفظع تصرفي! أبي الذي منحني الحياة، سلبته حياته بيدي. سامحني يا الهي، لأني لم أكن أدري ماذا أفعل. وأنت يا أبي أغفر لي لأني لم أعرفك.

ستغسل دموعي هذه الآثار الدامية، فعليّ بالسكوت حتى تسيل وتمحو زلّتي.

الملك هنري : ما هذا المشهد المؤثر الأليم؟ ما هذا العمل الفوضوي الهدام! عندما تتهارش الأسود في ساحة الوغى وتتنازع الأمان داخل عرينها، تذهب الخراف البريئة ضحية جشع العداوة واللؤم. ابكِ أيها الشقي، وأنا سأساعدك على الندب والنحيب. لا بد من أن تعمي بصائرنا الدموع وأن تمزق قلوبنا ألماً رزايا الحروب الأهلية.

(يدخل أب قتل ابنه، وهو يحمل جثته على ذراعيه).

الأب : أنت يا من قاومتني بضراوة، أعطني ما لديك من الذهب إن كان لديك بعض المال. لأن منازلتك كلفتني مئة طعنة. لكن، ماذا أرى؟ أهذا وجه عدوّي؟ لا، لا، وألف لا. هذا ابني الوحيد. آه! يا ولدي، إن كان لا يزال في صدرك بضعة أنفاس، أرجو أن تفتح عينيك. أنظر الى هذا السيل من الدموع المنهمرة من مآقيّ وقد قذفت بها عواصف قلبي. اشفق عليّ يا الهي، أنا الشقي المسكين في هذه السن العتيّة. ما هو الجرم الفظيع والاثم الوحشي الذي يولّد كل يوم نزاعات قاتلة؟ آه! يا ابني. ان والدك الذي وهبك الحياة يحنو وأنت طفل قد سلبك اياها غدراً وأنت في ربيع الشباب لأنه لم يعرفك إلا بعد فوات الأوان.

الملك هنري : بليّة تلو بلية، ألم فوق ألم. ليت حياتي تستطيع أن تضع حداً لما ينتابني من عذاب مرير. الرحمة، الرحمة، أيتها السماء الحليمة اشفقي عليّ. اني أرى على هذا المحيا وردة حمراء ووردة بيضاء، وكلا اللونين اتّسما بالشؤم في انتسابهما الى الأسر المتعادية. فلهذا الدم كل ما في الأولى من ارجوان. ولهذا الخد كما أرى كل شحوب الثانية. وعلى احدى هاتين

الوردتين أن تذبل وتذوي وأن تدع الوردة الأخرى تزهو وتزدهر. فان واصلتم القتال لا بد لألوف الأشخاص من أن يزولوا من عالم الوجود.

الابن : بأية ملامة سترشقني أمي حين تدري أني قاتل والدي.

الأب : وكم ستذرف زوجتي من الدموع على موت ابني، لا سيما حين تعلم أني قاتل ولدي.

الملك هنري : وكم سيصبّ الشعب من الكره على رأس مليكه بعد كل هذه الكوارث.

الابن : لم يسبق لولد أن يحزن هكذا لموت أبيه.

الأب : ولم يسبق أيضاً لأب أن ينتحب هكذا على فقده ولده.

الملك هنري : ولم يسبق لملك أن تحلّ برعاياه مثل هذه المصائب الفظيعة. ومهما كانت آلامهم مبرّحة فان عذابي يفوق عشرة أضعاف ما أصابكم.

الابن : سأنقلك من هنا لأتمكن من البكاء بقدر ما أشاء.

(يخرج وهو حامل جثة أبيه).

الأب : ها هما ذراعاي قد أصبحتا كأنهما كفنك وقلبي يا ولدي العزيز، كأنه نعشك. لأن صورتك لن تمّحي من فؤادي أبداً، وتنهداتي ستكون بمثابة ناقوس حزن عليك مدى الدهر. وسيتحسر أبوك عليك الى الأبد. سأبكيك وأندبك لأنك ابني الوحيد، كما بكى الملك بريام جميع أبنائه الشجعان. سأنقلك من هنا وأترك القتال لمن يشاء، لأني طعنت أقرب الناس اليّ طعنة نجلاء لا مبرر لها.

(يخرج حاملاً جثة ابنه).

الملك هنري : أيها الرجال أصحاب القلوب الحزينة التي برّح بها الألم، أراني أنا الملك أتعس حالاً منكم جميعاً.

(تسمع موسيقى انذار وضجة تنقّل جنود).

(تدخل الملكة مرغريت وأمير ويلز واكساتر).

امير ويلز : اهرب، يا أبي، اهرب، لأن كل أصدقائك لاذوا بالفرار. ورويك يرغي ويزبد نظير ثور هائج. هيا بنا نذهب لأن شبح الموت يطاردنا.

الملكة مرغريت : امتطِ جوادك، يا مولاي، واسرع حالاً الى ورويك. فان ادوارد وريشار زائغان نظير كلبين شاهدا أرنباً مروّعاً، وعيناهما تقدحان شرراً من الغضب، وفي يدهما السيف المسلول يقطر دماً وهما يطاردانا. لذا وجب علينا أن نعجل في الابتعاد من هنا.

اكساتر : الى الهرب، فالانتقام يقود خطاهما ويعمي بصرهما. لا تضيعوا الوقت سدًى في التأنيب. هيا اسرعوا واتبعوني فأنا أسبقكم.

الملك هنري : كلا، خذني معك، يا اكساتر الرؤوف. أنا لست خائفاً من البقاء هنا. انما أحب أن أرافق الملكة حيثما توجهت. فهيّا نغادر هذا المكان.

(يخرجون).

المشهد السادس

(تسمع موسيقى صاخبة. يدخل كليفورد مجروحاً).

كليفورد : لقد احترق مشعلي بكامله، أجل وسينطفئ هذا النور الذي أضاء للملك هنري بقدر ما دام التهابه. فيا لنكاستر، أنا أخشى سقوطك أكثر من مفارقة روحي. لأن المودة والخوف اللذين كنت أوحي بهما كانا يشدّان اليك أصدقاء عديدين

والآن وقد سقطت لا بدّ لحزبك المتفكّك الأوصال من الانهيار. وفي التخلّي عن هنري بغية مساندة خصمه الوقح، ينجرف الشعب وراء يورك كأنه سرب من النحل ضلّ طريق القفير. والى أين يطير البعوض إن لم يكن نحو النور الوهاج؟ ومن يلمع اليوم سوى عدوّ هنري. أيها الإله فابوس، لو لم تسمح لفايتون أن يقود جيادك المطهّمة، لما كانت مركبتك الملتهبة أشعلت الأرض برمّتها. وأنت يا هنري لو كنت حكمت كملك قدير، كما حكم أبوك وجدك بدون أن تتنازل عن مواقعك لأسرة يورك، لا أنا ولا عشرة آلاف مثلي في هذه المملكة التعيسة ما ترانا أرامل تبكي أمواتنا، واليوم بالذات كنت لا تزال متربعاً على عرشك بسلام. أوليس الهواء الناعم يتيح للأعشاب الفاسدة أن تزداد نموًّا؟ أوليست المبالغة في التسامح هي التي تشجع اللصوص على النهب والسلب. لا فائدة من شكواي، كما أن لا شفاء لجراحي البليغة. ولا مجال للهرب ولا لمساندة انسحابي. فالعدوّ لن يرحم ولن يشفق عليّ لأني لا أستحقّ ذلك منه. لقد دخل الهواء الى جراحي القاتلة ومقدار الدم الذي سال مني قد أضعف جسمي. تعالوا يا يورك ويا ريشار ويا ورويك، ومن بقي من الرجال. لقد طعنت آباءكم بالخنجر، فما عليكم إلا أن تخترقوا قلبي بخناجركم.

(يغمى عليه).

(تسمع موسيقى إنذار وضجة انسحاب. يدخل ادوارد وجورج وريشار ومنتيكو وورويك وبعض الجنود).

ادوارد : والآن لنتنفس الصعداء أيها اللوردات لأن حظنا السعيد أتاح لنا قليلاً من الراحة والتخلّص من التجهّم بسبب الحرب، والابتسام لاستقبال السلام. إن بعض فصائل الجنود تطارد

تلك المملكة الدموية التي كانت تجرّ وراءها هنري الهادئ، وإن كان ملكاً فهو كشراع تنفخ فيه رياح هوجاء وتتقاذف سفينته المتمايلة أمواج عاتية. لكن، هل تظنون أيها اللوردات أن كليفورد فرّ معها؟

وورويك : كلا، لأن هربه مستحيل. وأنا أخشى أن أعلن ذلك في حضوره، ما دام أخوك ريشار قد أصابه بطعنة أودت به الى القبر. فحيثهما وجد لا بد من أن يكون قد قضى نحبه.

(يهتف كليفورد ويموت).

ادوارد : من الذي فارق روحه الحياة؟

ريشار : هذه شهقة جنائزية تدل على الانتقال من هذه الدنيا الى الآخرة.

ادوارد : انظر من هو. فالآن وقد وضعت الحرب أوزارها، إن كان صديقاً أو عدواً يجب أن نعامله معاملة لائقة.

ريشار : أقلع عن التصرّف بلين. لأن كليفورد هو الذي مات، وهو الذي قصف الغصن الندي ببراعمه النضيرة عندما طعن رتلند بسكينه، ثم اقتلع جذور تلك الشجرة التي أعطت ذلك الغصن، أعني والدنا الجليل دوق يورك.

وورويك : أنتزع من أمام أبواب يورك رأس والدك الذي علقه كليفورد، وضع مكانه رأس هذا اللعين كليفورد. فلا بد من ردّ الكيل للعدو كيلين.

ادوارد : إيتوني بوجه البوم الذي جلب الشؤم على أسرتنا واضطهدنا نحن وجماعتنا، وجرّ علينا الشقاء والهلاك. لقد أخرس الموت صوته الأجش الشبيه بنعيب الغراب، كأنه طالع النحس الذي ارتاحت آذاننا الآن من ضجيجه وصخبه.

(يؤتى بجثة كليفورد).

وورويك : أظنه فاقد الوعي. تكلم يا كليفورد. هل تعرف من يخاطبك؟ وها هي غيمة الموت السوداء، قد خيمت على حياته، وأظلم النور في عينيه، فلم يعد يرى أحداً منا ولم يعد يسمع ما نقوله له.

ريشار : كم أنا آسف لذلك! ربما هو لا يزال يسمع. فلا يستبعد أن يكون مظهره هذا خدعة بارعة من حيله العديدة كي يلوذ بالفرار ويتخلص من ردة الفعل التي يتوقعها منا لقاء ما سام والدنا المنازع من بؤس وعذاب.

جورج : إذا كنت تظن ذلك فما عليك إلا أن تعذبه بالكلام القارس.

ريشار : كليفورد الخبيث يتوخى الرحمة لأنه لا يستحق الصفح.

ادوارد : بدانتك يا كليفورد أضحت الآن غير مجدية إطلاقاً.

وورويك : كليفورد يستنبط الأعذار عما اقترفت يداه من فظائع.

جورج : بينما، لأجل قبائحك أنت، كنا اختلقنا أعذاراً أفظع.

ريشار : أنت أحببت يورك، وأنا ابن يورك.

ادوارد : لأنك أشفقت على رتْلند، أنا أشفق عليك.

جورج : أين إذاً البطلة مرغريت لتهبّ الى الدفاع عنك حالاً؟

وورويك : هو يهزأ بك يا كليفورد، فما عليك إلا أن تردّ عليه بشتائمك المعتادة.

ريشار : ماذا تقول؟ لا أريد أن أسمع أي سباب. لا أنكر أن الأمر ليس بهيّن عندما لا يكون لدى كليفورد أية لعنات جاهزة ليخص بها أصدقاءه. وهذا دليل قاطع على أنه مات. لذلك أودّ أن أشتري له، ولو ساعة من الحياة، وأنا مستعد لأن أقطع يدي اليمنى ثمناً لها، وبالدم الذي يسيل منها سأغرق اللعين الذي لم يتمكن يورك والشاب رتلند من إطفاء عطشه المزمن اليه.

وورويك : أجل، لكنه مات. اقطعوا رأس الخائن وعلّقوه مكان رأس أبيك. (لأدوارد) والآن لنزحف على لندن منتصرين. سأُتوّج

ملكاً على انكلترا. ومن هناك سيمخر ورويك عباب البحر الى فرنسا كي يطلب لك يد السيدة بون وهي أحلى عروس. وهكذا يتوحد البلدان بروابط وثيقة تكسبك فرنسا كصديقة، ولن تخشى بعد ذلك من أعداء متفرقين قد يفكرون بمناوأتك. إذ حتى إن كانت أشواكهم لا تؤذيك أو توجعك، تتخلص على الأقل من صخب ثرثراتهم. أريد أولاً أن أشاهد حفلة التتويج، ثم أعود على متن السفينة الى بريطانيا لكي أعقد لك هذا الزواج، إذا شئت يا مولاي.

ادوارد : ليكن ما تريد، يا عزيزي ورويك. لأني أقصد أن أسند عرشي بأكتافك العريضة وأنوي أن لا أفعل أي شيء بدون مشورتك وموافقتك، يا ريشار. سأجعل منك دوق كلوسستر، وأنت يا جورج، دوق كلارانس. أما ورويك فيمكنه أن يحلّ ويربط باسمي على هواه.

ريشار : أفضل أن أكون دوق كلارانس، ويكون جورج دوق كلوسستر. لأن دوقية كلوسستر كئيبة أكثر مما أتحمّل.

ورويك : هذا اعتراض صبياني. كن يا ريشار دوق كلوسستر. والآن هيا بنا الى لندن لاستلام مناصبنا الرفيعة الشأن.

الفصل الثالث

المشهد الأول

في غابة شمالي انكلترا.

(يدخل اثنان من حرس الصيد، والقوس في يد كلٍّ منهما).

حارس الصيد الأول : لنختبئ وراء هذه الأجمة لأن الغزلان لا تلبث أن تجتاز الغابة من هنا، ثم نهاجم ونقتل منها ما يتسنى لنا بعد أن نصيب الحيوان الذي يمشي على رأس قطيعها.

حارس الصيد الثاني : سأقف بجانبك في أعلى هذه التلة، فنتمكن هكذا من تسديد سهامنا معاً.

حارس الصيد الأول : هذا غير ممكنٍ، لأن صوت قوسك سيرعب تجمّعها فيطيش سهمي. تعالَ نختبئ كلانا هنا ونسدّد سهامنا الى أجمل غزال منها. ولكي لا نشعر بطول الوقت والملل، سأروي لك قصة جرت لي ذات يوم في نفس هذا المكان.

حارس الصيد الثاني : ها هوذا رجل قادم إلينا فلننتظر حتى يعبر.

(يدخل الملك هنري متنكراً، وفي يده كتاب صلاة).

الملك هنري : أنا هارب من اسكتلندا حباً بوطني، وجئت الى بلدي أحيّيه

بنظرة حب وإخلاص. كلا، يا هنري، هذه البلاد لم تعد تخصك، لأن مكانك قد شغله غيرك وصولجانك قد انتزع من يدك. والزيت الذي مُسحت به قد زال. ومن الآن وصاعداً لا أحد يجثو أمامك ليعرض عليك قضاياه، ولا أحد يطلب منك العدل والإنصاف. إذ كيف يتسنى لك أن تعين الناس ما دمت أنت لا تقوى على تدبير أمورك؟

حارس الصيد الأول (على حدة) : ها هوذا غزال يساوي جلده ثروة ويصلح لحارس صيد مثلي، ألا وهو الملك السابق، فما عليّ إلا أن أمسك به.

الملك هنري : لنقبل هذه المحنة بصبر، لأن العاقل يعتبر أن هذا هو الحل الأنسب.

حارس الصيد الثاني (على حدة) : لماذا التردد؟ هيا نقبض عليه.

حارس الصيد الأول (على حدة) : قليلاً من الصبر، فالأولى أن أستمع إليه بعض الوقت أيضاً.

الملك هنري : مليكتي وابني ذهبا الى فرنسا لطلب النجدة. وعلمتُ بأن القائد القدير ورويك ذهب هو أيضاً يطلب يد شقيقة ملك فرنسا ليزفّها الى ادوارد. فإذا كان هذا النبأ صحيحاً فمسكينة أنت أيتها الملكة، ومسكين أنت أيها الابن لأن سعيكما سيذهب سدًى. ما دام ورويك خطيباً مفوّهاً ولويس أميراً سهل الاستعطاف برقيق الكلام. وعلى هذا الأساس يسع مرغريت أن تستميله هي أيضاً لأنها امرأة تستحق الشفقة، ودموعها تفتّت الصخر الأصمّ. حتى النمر الشرس يحنّ لتعاستها عندما تجود بدموعها، ونيرون نفسه يلين رفقاً بتفجعها لمجرد رؤية دموعها وسماع تنهدها. أجل هي آتية لتطلب، وورويك مستعدّ للبذل والعطاء. هي الى يسار الملك تسعى للحصول على نجدة لهنري، وهو الى يمينه يطلب عروساً لادوارد. هي تنتحب وتشكو من خلع هنري عن

العرش، وهو يبتسم ويقول إن صاحبه ادوارد توّج ملكاً.
هي بائسة شقية يمنعها الألم عن الكلام، بينما ورويك يعلن
لقب ادوارد الجديد، يخفف من سيئاته ويشيد بحججه القوية
الساحرة، وبالنتيجة سيفوز على مرغريت لدى الملك، ويحصل
على أخته مع مساعدات قيّمة ترسخ مكانة الملك ادوارد
وتوطّد أركان عرشه. فيا مرغريت إليك ما سيحدث. وأنا
الشقي لن يكون نصيبي سوى الهجران والإهمال.

حارس الصيد الثاني : أجبني، من أنت كي تتحدث عن الملوك والملكات؟

الملك هنري : هل يبدو عليّ أني أكثر مما أتظاهر به، وأقل مما يحق
لي في الوجود؟ فأنا رجل بسيط بالرغم من ظروفي، ولا
يسعني أن أكون غير ذلك. وهكذا أستطيع كرجل أن أتكلم
عن الملوك. ولماذا لا أتكلم عنهم؟

حارس الصيد الثاني : لكنك تتحدث وكأنك ملك.

لملك هنري : أجل يخيّل إليّ أني ملك، وهذا يكفيني.

حارس الصيد الثاني: إن كنت حقاً ملكاً، وهذا يكفيني.

الملك هنري : تاجي في أعماق قلبي، وليس على رأسي. وهو غير محلى
بالماسات، ولا بالأحجار الهندية الكريمة، وهو غير ظاهر
طبعاً للعيان. تاجي أنا يدعى الاكتفاء والإزعان، وهو تاج
قلّما يحصل عليه الملوك.

حارس الصيد الثاني : إن كنت ملكاً وتاجك الازعان، فأنت وتاجك عليكما
أن تزعنا وترافقانا. لأنك على ما نعتقد، أنت الملك السابق
الذي خلعه الملك الجديد ادوارد. ونحن رعاياه، أقسمنا له
يمين الولاء، ونعتبرك عدوه.

الملك هنري : أولم يتفق لكم أن تقسموا يميناً وتحنثوا به؟

حارس الصيد الثاني : كلا، لم نحنث أبداً بمثل هذا القسم، ولن نبدأ
اليوم بذلك.

الملك هنري : أين كنت تسكن عندما كنت أنا ملك انكلترا؟

حارس الصيد الثاني : هنا في هذه البقعة حيث نحن الآن مقيمون.
الملك هنري : لقد تُوّجت وأنا في الشهر التاسع من عمري، وكان أبي وأجدادي ملوكاً. وأنتم بما أنكم من رعاياي، أقسمتم يمين الولاء لي، فأصدقوني القول، أولم تخفروا عهدكم لي هذا؟
حارس الصيد الأول : كلا، نحن كنا من رعاياك يوم كنت ملكاً.
الملك هنري : ماذا تقول؟ هل متّ أنا؟ أولم أعد في عداد الأحياء؟ أيها الرجال البسطاء، أنتم لا تدرون بما تقولون وتجدفون. أنظروا الى هذه الريشة التي أزيحها عن وجهي بنفسي، ونسمة الهواء تعيدها إليّ، هي تطيع نفَسي ثم تخضع لنسمة أقوى منها. فأسألكم أن لا تحنثوا بعد الآن بيمينكم، فلا أدينكم على غلطتكم هذه ولا أعتبركم مذنبين. إذهبوا إلى حيث تشاؤون فأنا الملك أظل الى جانبكم، أنتم تأمرون وعليّ أنا أن أطيع.
حارس الصيد الأول : نحن من رعايا الملك ادوارد الأوفياء.
الملك هنري : بما أنكم ستلبثون أمناء للملك هنري لو ظل على العرش، فأين أصبح الملك ادوارد؟
حارس الصيد الأول : ننذرك باسم الله والملك أن تأتي معنا الى القضاء.
الملك هنري : باسم الله، قودوني، ولتكن كلمة مليككم مطاعة، وليتمّ ما شاء الله، لأن مليككم سينفذ إرادته، وأنا أخضع بتواضع لما يمليه.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في لندن داخل أحد القصور.

(يدخل الملك ادوارد وريشار وكلارنس وليْدي كراي).

الملك ادوارد (لريشار) : يا أخي، كلوسستر قتل زوج هذه السيدة، سير جون كراي، في موقعة سنتلبان، واستولى المنتصر على أملاكه. أما هي فتطلب أن ننصفها ونردّ لها ممتلكاتها. والعدل لا يجيز لنا أن نرفض طلبها، لأن زوجها الكريم مات وهو يدافع عن أرض يورك.

ريشار : يا صاحب السمو، يجمل بك أن تستجيب طلبها، إذ من العار أن تهمله.

الملك ادوارد: هذا أمر عادل، على كل حال سأتريث قليلاً.

ريشار (لكلارانس بصوت خافت) : هكذا تفكّر إذاً! أرى أن علينا أن نمنح السيدة بعض الحق قبل أن يستجيب الملك طلبها الوضيع.

كلارانس (لريشار بصوت خافت) : هو خبير بالصيد، كما هو بارع في تقلبه مع الريح.

ريشار (لكلارانس بصوت خافت) : أصمت.

الملك ادوارد: سأدرس طلبك، أيتها الأرملة. فعودي إليّ قريباً لتعرفي ما أنوي عمله لأجلك.

ليدي كراي : مولاي الكريم، لا يسعني أن أصبر. فأرجو من سموّك أن تتنازل وتعلمني بقرارك منذ الآن، فأنا مستعدة لقبول مشيئتك بملء الرضى.

ريشار (على حدة) : أجل أيتها الأرملة، سيرد لك جميع أراضيك إذا وافقت على ما يرضيه. فكوني متبصرة وإلاّ واجهت بعض المشاكل.

كلارانس (لريشار بصوت خافت) : أنا لا أخشى عليها إلا إذا تعرضت لنكسة.

ريشار (لكلارانس بصوت خافت) : مشيئة الله هي عكس ذلك تماماً، أما هو فله غاية أخرى.

الملك ادوارد: قولي لي، كم هو عدد أولادك أيتها الأرملة.

كلارانس (لريشار بصوت خافت) : يخيّل لي أنه يطلب منها أن تنجب ولداً.

ريشار (لكلارانس بصوت خافت) : أنا مستعد لأن أجلد طائعاً إن لم يطلب منها بالأحرى ولدين.

ليدي كراي : بل ثلاثة، يا مولاي الكريم.

ريشار (على حدة) : سيكون لك أربعة إذا طاوعته.

الملك ادوارد: من المؤسف جداً أن يخسروا أراضي أبيهم.

ليدي كراي : أشفق عليهم، يا مولاي الجليل، وارجع لهم أملاكهم.

الملك ادوارد: أطلقوا لي حريتي، أيها اللوردات. فأنا أريد أن أمتحن ذمة هذه الأرملة.

ريشار (على حدة) : أجل أنت حرّ. وبإمكانك أن تستأثر بجميع الحريات حتى يدرك شبابك معنى الحرية ويتركك تتوكأ على عكازين.

(ينسحب كلارانس وريشار جانباً).

الملك ادوارد: والآن صارحيني يا سيدتي، هل تحبين أولادك؟

ليدي كراي : نعم، أحبهم كنفسي.

الملك ادوارد: وأنت مصممة على التضحية بالكثير لخيرهم.

ليدي كراي : أجل، لخيرهم لن أتأخر عن تحمّل كل مشقة وتضحية

الملك ادوارد: اذاً استردّي أراضي زوجك لخيرهم.

ليدي كراي : لهذه الغاية أتيت اليك يا صاحب الجلالة.

الملك ادوارد: سأبين لك كيف يتسنى استرداد هذه الأرزاق.

ليدي كراي : بهذا تجعلني أسيرة معروفك ورهن إشارتك الى الأبد يا صاحب السمّو.

الملك ادوارد: أية خدمة أنت مستعدة أن تؤدي لي إذا أنا أرجعت لك أرزاقك؟

الملك ادوارد: إنما يمكنك أن تدركي ما أعنيه.
ليدي كراي : لن تطاوع أبداً إرادتي ما يخيل إليّ أن سموّك تلمح اليه، إن كنت أفهم مرادك.
الملك ادوارد: بصراحة أودّ أن أنام بقربك.
ليدي كراي : بصراحة أنا أفضل أن أنام في السجن.
الملك ادوارد: لن تستردي إذاً أرزاق زوجك.
ليدي كراي : ستكون سعادتي هكذا كل إرثي، لأني لا أنوي أن أدفع ثمنها باهظاً.
الملك ادوارد: وبذلك تلحقين بأولادك أفدح الضرر.
ليدي كراي : هكذا أنت تؤذي أولادي يا صاحب السموّ كما تؤذيني. ألا أعلم يا مولاي القدير، أن أفراح المجون لا تتفق مع خطورة طلبي، فأرجو أن تنصفني بقولك لي : لا أو نعم.
الملك ادوارد: نعم إذا استجبت طلبي، ولا إذا رفضت تلبيته.
ليدي كراي : فإذاً، ردك يعني لا، يا مولاي. وهكذا لم يعد من داعٍ لالتماسي.
ريشار (لكلارانس بصوت خافت) : أرى أن الأرملة غير موافقة بتاتاً، لأنها قطبت جبينها.
كلارانس (لريشار بصوت خافت) : هذا أخشن رجل عديم اللياقة رأيته في حياتي.
الملك ادوارد (على حدة) : تصرفها يدل على تمسكها بأهداب الفضيلة، وحديثها يوحي نبلاً لا مثيل له، وجميع هذه الكمالات تشير الى تحليها بشخصية تجعلها تليق بملك، وستكون إما محظيتي، وإما زوجتي. (بصوتٍ عالٍ) ما قولك إذا اختارك الملك ادوار ملكة؟
ليدي كراي : هذا كلام بعيد عن الواقع، يا مولاي الكريم. لأني أتعرض للسخرية ولا أستحق أن أكون ملكة.
الملك ادوارد: أيتها الأرملة الفاتنة، أقسم بشرفي أني أقول ما أفكر به جدّيًا : أودّ أن تكوني عشيقتي.

ليدي كراي : هذه رغبة لا يسعني قبولها. فأنا أعرف أني أقلّ من أن أستحقّ أن أصبح زوجتك وأكثر من أن أكون محظيتك.

الملك ادوارد: أراك تذهبين بعيداً في تفسيرك، فأنا قصدت بكلامي أن تصبحي زوجتي.

ليدي كراي : سيصعب على سموّك أن تسمع أبنائي ينادونك يا والدنا.

الملك ادوارد: لا أكثر من مناداة بناتي إياك يا أمنا. أنت أرملة ولك أولاد. وأقسم لك بحياتي أنا الأعزب، إن لي أنا أيضاً أولاداً، ويسرّني أن أكون أب أولاد عديدين. لا تتسرعي في الجواب. ستصبحين زوجتي.

ريشار (لكلارانس بصوت خافت) : أرى الوالد المحترم قد أنهى اعترافه.

الملك ادوارد: تتساءلون يا اخوتي، عما دار بيننا من حديث.

ريشار (على حدة) : الأرملة ليست مرتاحة أبداً، لأن موقفها في غاية الخطورة.

الملك ادوارد: أيدهشكم حقاً أن أتزوج؟

كلارانس : من يا مولاي؟

الملك ادوارد: أن أتزوجها يا كلارانس.

ريشار : سأظل عشرة أيام غائباً عن الوعي على أثر هذا التصريح العجيب.

كلارانس : إذاً سأسبقك بيوم واحد في استيعابي الحقيقة المدهشة.

ريشار : هل ترى المفاجأة هكذا ضخمة؟

الملك ادوارد: يمكنكم أن تهزأوا بي يا اخوتي. لكني أؤكد لكم أن طلبها مقبول، وأنها ستسترد أملاك زوجها.

(يدخل أحد النبلاء).

النبيل : عدوك هنري، يا مولاي الكريم، احتجز واقتيد أسيراً الى باب قصرك.

الملك ادوارد: أرسلوه الى البرج. ونحن أيها الأخوة، سنذهب الى الرجل الذي أوقفه. تعالي معنا أيتها الأرملة. أرجو أن تحيطها بكل العطف والرعاية.

(يخرج الملك ادوارد وليدي كراي وكلارانس والنبيل).

ريشار (وحده): أجل، ادوارد ينظر بعطف ورعاية الى جميع النساء. وأنا أودّ أن يستنفد كل قواه حتى نخاع عظمه حتى لا يتسنى له أن ينجب أي ولد بمثل حيويته قادر على قطع الطريق الذهبي الذي أتوق الى سلوكه. على كل حال بين هدف عاطفتي ورغبتي، بعد دفن ملكية ادوارد وجميع ذرّيتهم غير المعروفة الآن باستطاعتهم أن يسبقوني في هذا المضمار. وهذه الفكرة تشلّ طموحي. لذا تراني لا أحلم إلا بالسيادة نظير رجل واقف على شرفة يبصر منها الشاطئ الرملي الذي تطأه قدماه ويتمنّى أن تكون نسبة خطواته بسعة المساحة التي يقع نظره عليها، ويلعن المحيط الذي يفصله عن هذا الهدف، وهو يقول في سره أنه سيجفف البحر ليشقّ لنفسه ممراً الى مأربه. فأنا أتوق الى وضع التاج على رأسي مهما كان بعيد المنال. وهكذا ألعن المعرقلين الذين يفصلونني عنه. لذلك أريد أن أزيل كل العقبات والعوائق التي تقف في وجهي، وأنوي أن أفعل المستحيل في هذا السبيل. ان نظري حادّ، وقلبي صامد، وقوتي وزندي ليسا في المستوى المرغوب. فإذا افترضنا ان العرش ليس من نصيبي أنا ريشار، فأية لذة في العالم تستهويني للتعويض لي عنه. هل يمكنني أن ألقى الجنة في أحضان امرأة، وأن أزيّن شخصي بأروع المجوهرات، وأن أسحر أجمل الحسناوات بحلو حديثي وثاقب نظري. هذه فكرة جهنمية يصعب تحقيقها أكثر من الاستيلاء على عشرين تاج من ذهب. لقد جفاني الحب منذ تكويني في بطن أمي، بوضع يخالف قانون الطبيعة فعاندتني الأقدار الجائرة التي لا ترحم وأعطتني عن طريق الشلل إذ جفّفت ذراعي كشجيرة يابسة ووضعت جبلاً قبيحاً على ظهري وللإمعان في مسخي علاوة على كوني أحدب،

جعلت رجليّ غير متوازيتين في الطول وخصّت جسمي بهيئة غير منسجمة كأني هيولي، أو بالحري كأني دب لم تلحسه أمه جيداً. فهل أنا كرجل مشوّه أستحق أن أكون محبوباً؟ يا لها من غلطة فظيعة أن أقتبل مثل هذه الفكرة المبتورة. فما أن هذه الأرض لا تمنحني سوى بهجة القيادة والتحكم والسيطرة على من هم أحسن مني منظراً، انحصرت جنتي في حلمي بالجلوس على العرش. وطوال عمري كان هذا العالم في نظري جحيماً لا يطاق، لأن مشوّهاً مثلي له رأس كرأسي لن يكتب له أن يحمل تاجاً مرصّعاً بالأحجار الكريمة التي لا تقدر بثمن. مع ذلك لست أدري كيف أحصل على هذا التاج. لأن أشخاصاً عديدين يقفون حائلاً دون وصولي الى تحقيق أمنيتي هذه. وأنا كالرجل الضائع في متاهة كلها أشواك، لا أكاد أقتلع شوكة حتى تخزني شوكة أخرى وتمزق جلدي، وأبحث أنا الهائم عن طريق لا أهتدي اليه، ولا أدري كيف السبيل الى بلوغه، رغم كل ما يرهقني به جهدي في الاستيلاء على تاج انكلترا. غير أني أنوي أن أتخلص من هذا العذاب وأن أمهّد دربي بفأس دامية. إذ يمكنني أن أبتهج وأن أقتل والبسمة مرتسمة على ثغري. فأصفق فرحاً لما ينخر قلبي من الأسى وما يبلّل وجنتي من دموع مصطنعة وأن أطبع قسمات وجهي بما يلائم كل مناسبة. أنا قادر على إغراق عدد من البحارة أكثر مما تستطيعه عرائس البحر، وعلى تسديد نار قاتلة أفتك من أنياب الغول وعلى إلقاء خطب أبلغ من فصاحة نسطور وعلى الخداع بفنّ أمهر من بطل الأسطورة أوليس، وعلى السيطرة نظير سينون على طروادة أخرى وعلى استعارة ألوان الحرباء وعلى تبديل سحنة بروطيوس وعلى ارسال ألف مكيافيل شرس الى الجحيم. أنا قادر على عمل كل هذا

ولن يتاح لي الوصول الى اغتصاب أي عرش. حتى إن كان هذا المطلب أبعد منالاً، سأمدّ اليه يدي وأستولي عليه.

(يخرج).

المشهد الثالث

في فرنسا داخل أحد القصور.

(تسمع موسيقى. يدخل الملك لويس الفرنسي والسيدة بون مع حاشيتهما يجلس الملك على عرشه، ثم تدخل الملكة مرغريت وابنها أمير ويلز وكونت اوكسفورد).

الملك لويس (وهو ينهض) : يا ملكة انكلترا الجميلة النبيلة، مرغريت. اجلسي بقربي اذ لا يليق بمقامك الرفيع ولا بمحتدك السامي أن تظلي واقفة عندما أكون أنا الملك لويس جالساً.

الملكة مرغريت : لا، يا ملك فرنسا القدير، من الآن وصاعداً، عليّ أنا الملكة مرغريت أن لا أرفع علمي عالياً وأن أتعلم أن أخدم حيث يأمر الملوك. عليّ أن أعترف بأني كنت ملكة البيون العظيمة في عهد ذهبي قد ولّى. لكني بت الآن تعيسة بعد أن زال ما كان لي من سلطة وانهارت مكانتي بخساسة. عليّ اذاً أن اساير وضعي الجديد الخائب وأن ألزم حد حظي الوضيع العاثر.

الملك لويس : لكن قولي لي أيتها الملكة الحسناء، ماذا دفعك الى كل هذا اليأس؟

الملكة مرغريت : الكارثة التي تملأ مآقيّ دموعاً وتخنق صوتي في حنجرتي، بينما قلبي يتخبّط في لجج الهموم.

الملك لويس : مهما جرى لك، عليك أن تتمالكي نفسك. فاجلسي الى جانبي (يجلسها بقربه). ولا تحني رأسك هكذا تحت نير الحظ

العاثر، بل رفرفي بأجنحة روحك المنتصرة فوق كل الويلات. اشرحي لي ما بك أيتها الملكة مرغريت وابسطي امامي جميع همومك فلا بد لها من أن تنفرج اذا كانت فرنسا قادرة على معالجتها.

الملكة مرغريت : حديثك الحلو المشجع يحيي آمالي المنهارة، ويعيد النطق الى جرأتي وقد أخرستها آلام المصائب. الا اعلم، يا مولاي لويس النبيل، ان هنري مالك قلبي الوحيد، كان ملكاً واصبح الآن طريداً مضطراً الى العيش متوارياً مهجراً في اسكتلندا بينما الوقح المتغطرس ادوارد دوق يورك اغتصب لقبه الملكي وعرشه وأزال عنه ما مسحه به السيد من زيت الملوك الشرعيين على عرش انكلترا. هذا ما جئت انا الملكة مرغريت المسكينة وابني الأمير ادوارد الحاضر ها هنا وهو وريث هنري الشرعي، لالتماسه منك كي تنصفنا وتساندنا في استرجاع حقنا الشرعي السليب، وبغير هذا الموقف من قبلك سيضيع كل أملنا في هذا المجال. اسكتلندا ترغب في مساعدتنا ولا تملك الامكانية اللازمة. وهكذا ضاع شعبنا ونوابنا وانتزعت أموالنا منا عنوةً وشرّد جنودنا، وها نحن بين يديك في حالة يرثى لها.

الملك لويس : أيتها الملكة اللامعة، قابلي العاصفة بصبر ريثما نفكر وندبر لك وسيلة لازالة محنتك وتفريج كربتك.

الملكة مرغريت : كلما تأخر حلّ مشاكلنا، كلما ازدادت قوة خصمنا.

الملك لويس : بل كلما أجلّت معالجة قضيتك كلما قويت نجدتي لك.

الملكة مرغريت : لا تنسَ، يا مولاي، ان قلة الصبر حليفة العذاب الحقيقي. وهذا بالذات سبب شقائي.

(يدخل ورويك وحاشيته).

الملك لويس : من هو القادم بمثل هذه الجسارة الى مقرنا.

الملكة مرغريت : هذا هو كونت ورويك أخلص أصدقاء الملك ادوارد.
الملك لويس : أهلاً ومرحباً بك يا ورويك الشجاع. ماذا جاء بك الى فرنسا؟

(ينزل عن عرشه وتقف الملك مرغريت).

الملكة مرغريت (على حدة) : نعم، أرى عاصفة جديدة مقبلة لأن هذا الرجل يتحكم بالرياح والأمواج.

ورويك : أنا قادم من قبل النبيل ادوارد ملك ألبيون، مولاي وصديقك المخلص، مزوداً بأصدق مودته القلبية، أولاً لأحيّي شخصك الملكي، ثم لأطلب منك عقد معاهدة تحالف، ولتوطيد هذا الاتفاق بوثاق الزواج اذا تنازلت ومنحت السيدة بون الفاضلة شقيقتك الفاتنة كزوجة شرعية لملك انكلترا.

الملكة مرغريت (على حدة) : اذا نجح هذا المسعى، قضي على آمال هنري.

ورويك (لبون) : والآن يا سيدتي الكريمة، باسم ملكنا، انا مكلّف، اذا تكرمت وسمحت، أن أقبّل بكل تواضع يدك الناعمة وأن أعبر لك بصوتي عن أشواق قلبه النبيل حيث وضعت شهرتك التي تطبق الآفاق، رسم جمالك وفضيلتك في أعزّ مكان.

الملكة مرغريت : أيها الملك لويس، وأنت يا سيدتي بون، أرجو أن تستمعا اليّ قبل استجابة طلب ورويك. رغبة ادوارد ليست وليدة حب نزيه شريف بل ابنة سياسة ودهاء وتطاول. لأنه يشبه الطغاة الذين لا يتسنى لهم أن يحكموا حتماً بأمان داخل البلاد اذا لم يؤمنوا لهم حلفاء في خارجها. ولاثبات طغيانه، يكفي أن يكون هنري لا يزال حياً. حتى إن مات فأمامنا الأمير ادوارد ابن الملك هنري. أحرصْ اذاً يا لويس على أن لا تجلب على نفسك الخطر والعار بتحالفك في مثل هذا الزواج. لأن المغتصبين قادرون على سلب الحكم بعض الوقت، لكن السماء العادلة والزمن المنصف كفيلان بتبديد كل ظلم واستبداد.

وارويك : تباً لك من وقحة يا مرغريت.

امير ويلز : ولماذا لا تعتبرها ملكة؟

وارويك : لأن والدك هنري مغتصب، وأنت لم تعد أميراً أكثر مما هي ملكة.

اوكسفورد : هكذا أزيل من الوجود حنّا دي غان الكبير الذي أخضع الجزء الأكبر من اسبانيا. وبعد حنّا دي غان أتى هنري الرابع الذي كان بحكمته مرآة لأكثر العقلاء رصانة. وبعد هذا الأمير أتى هنري الخامس الذي احتل بجرأته وشجاعته كل أرجاء فرنسا. وهنري الذي نتكلم عنه هو سليل هؤلاء النبلاء.

وارويك : كيف أمكنك، يا اوكسفورد، أن لا تشرح لنا في هذا الخطاب المعسول أسباب خسارة هنري السادس كل ما ربحه هنري الخامس؟ هكذا كنت أضحكت علينا شجرة المواليد التي تعاقبت مدة اثنتين وستين سنة. وفي هذه الأثناء لم تسرد لنا أي جديد عن المملكة.

اوكسفورد : كيف تتكلم بهذه اللهجة يا وارويك عن مليكك الذي خضعت له طوال ست وثلاثين سنة بدون أن تبوح بخيانتك أو يحمر وجهك خجلاً منها؟

وارويك : هل يستطيع يا أوكسفورد، هو الذي دافع دائماً عن الحق أن يكتشف أكاذيب هذا التسلسل الملكي. ولو من قبيل الحياء، عليك أن تترك هنري هنا وتعترف بادوارد كملك.

اوكسفورد : تريدني أن أعترف بسلطة من أَهْلَكَ، بقراره الجائر، أخي البكر لورد أوبري فيري. ماذا أقول؟ أَهْلَكَ أبي حين مالت شمسه نحو المغيب وأضحى على حافة قبره. لا، يا وارويك، لا. ما دام فيّ عرق ينبض بالحياة سأظل اساند بسواعدي أسرة لنكاستر.

وارويك : وأنا سأناصر أسرة يورك.

الملك لويس : أيتها الملكة مرغريت، ويا أيها الأمير ادوارد وأنت يا

أوكسفورد، أرجو منكم أن تتنحّوا جانباً بعض الوقت، وأن تدعوني أتابع حديثي مع ورويك.

الملكة مرغريت : أسأل الله أن لا تسحره كلمات ورويك.

(تنسحب جانباً مع الأمير وأوكسفورد).

الملك لويس : والآن يا ورويك، قل لي بصراحة وضمير حيّ، هل تعتبر ادوارد مليكك الشرعي؟ لأني آبى أن أرتبط بأمير غير شرعي.

ورويك : أؤكد لك شرعيته، بشرفي وعلى ذمة سمعتي.

الملك لويس : وهل هو حائز على رضى الشعب؟

ورويك : أجل، بقدر ما لم يكن هنري سعيداً في حياته.

الملك لويس : لي كلمة أخرى. وبعيداً عن كل تورية، قل لي بصدق، كم هو مبلغ حبه لشقيقتي بون؟

ورويك : عاطفته تليق بملك مثله. لقد سمعته أنا بنفسي يؤكد ويقسم بأن حبه خالد، عميق الجذور في تربة الفضيلة التي تضاعف الأوراق والثمار تحت شمس جمالها الفاتن الذي يكره النبذ ويتصدّى للازدراء اذا لم تبادله السيدة بون شعوره.

الملك لويس : والآن يا أختاه، ما هو قرارك النهائي؟

بون : القبول أو الرفض، حسب جوابك، هو قراري، (لورويك) مع ذلك أقرّ بأني سمعته يفاخر باستحقاقات مليكك، فمالت اذني الى استلطافه، والأذن تعشق قبل العين أحياناً.

الملك لويس : اذاً اليك، يا ورويك، جوابي : ستكون أختي زوجة ادوارد. وحالاً سننظم العقد الذي نحدّد فيه ما سيدفعه لها مليكك كحق بنسبة البائنة التي ستقدمها هي له. اقتربي أيتها الملكة مرغريت وكوني شاهدة على أن السيدة بون أضحت خطيبة ملك انكلترا.

امير ويلز : خطيبة ادوارد، لا ملك انكلترا.

الملكة مرغريت : ما أبرعك يا ورويك. استنبطت هذه المحالفة لتسقط

حقي بما اطلبه. فقبل مجيئك كان لويس صديق هنري.

الملك لويس : لا أزال صديقه كما أنا صديقك، يا مرغريت. لكن ما حيلتي اذا كانت حقوقكم بالعرش ضعيفة كما تدل عليه بوادر نجاح ادوارد. فالعدل يعفيني من منح المساعدة التي وعدتك بها. مع ذلك سأحفظ لكم كل الاكرام والاحترام الذي يحق لكم بموجب مقامكم وسموّ حسبكم.

وورويك : هنري يعيش الآن في اسكتلندا راضياً. وبما أنه لا يملك شيئاً فلن يخسر شيئاً. أما أنت بصفتك ملكة سابقة، فان والدك قادر في الوقت الحاضر، ويمكنك أن تكوني على عاتقه أكثر مما على عاتق ملك فرنسا.

الملكة مرغريت : اسكت، يا وورويك الوقح. اسكت يا متعجرف، يا هدّام عروش الملوك. لن أرحل من هنا إلا ودموعي الصادقة تتحدى بحضور الملك لويس، مكيدتك الدنيئة وحبك الكاذب لسيدك، لأنكما عصفوران غريبان من فصيلة واحدة شاردة.

(يسمع صوت نفير).

الملك لويس : هذه رسالة عاجلة لا أدري اذا كانت لي أو لك.

(يدخل ساعي البريد).

ساعي البريد (لوورويك) : يا مولاي السفير، هذه الرسالة موجهة اليك من قبل أخيك مركيز مونتيكو. (للملك لويس) وهذه لجلالتك من قبل مليكنا. (للملكة مرغريت) وهذه أيضاً لك يا سيدتي، ولا أعلم من قبل من.

(يقرأ كل واحد منهم رسالته).

اوكسفورد : يسرّني أن أرى ان ملكتنا الجميلة وسيدتنا تبتسم لهذه الأنباء، وأن تبدو على محيا وورويك امارات الامتعاض والقلق.

الملكة مرغريت : هذا الكلام، يا ورويك، قلب حقدي الى محبة. فأنا أغفر اساءتك وأنسى كل الأخطاء القديمة وأبتهج بعودتك الى الصداقة التي كنت تحفظها للملك هنري.

ورويك : أجل بالطبع أنا صديقه الوفي، اذا تنازل الملك لويس الى تأمين عدد من نخبة الجنود ليساعدونا على انزال الطاغية عن العرش بالقوة. اذ لا يسع العروس إسعافه في هذه المحنة. اما كلارانس، حسب ما جاء في الرسالة، فربما تخلى عن أخيه بعد هذا الزواج الذي أوحت بعقده أهواؤه وشهواته، بالرغم من الشرف والعظمة والأمان المتوفرة في بلدنا.

بون : يا أخي الحبيب كيف يمكنك أن تثأر لأختك بطريقة أفضل من المبادرة الى مساعدة هذه الملكة المنكوبة؟

الملكة مرغريت : أيها الأمير الشهم، كيف يعيش الملك هنري اذا لم تنتشله من يأسه القاتل؟

بون : ان قضيتي وقضية ملك انكلترا هما عندي قضية واحدة.

ورويك : وقضيتي، يا سيدتي الحلوة بون، تشبه قضيتكم.

الملك لويس (لورويك) : وقضيتي وقضيتك وقضية بون وقضية مرغريت جميعها تهمّني كثيراً. ولذلك صمّمت على مدّكم بكل عون ومساعدة.

الملكة مرغريت : دعني أشكرك جزيل الشكر بتواضع على حسن نيتك، يا مولاي.

الملك لويس : يا ساعي البريد، عد الى انكلترا وقل حالاً للخبيث ادوارد مليكك أن لويس فرنسا سيرسل له أقنعة ليشترك في الرقص معه ومع عروسه. ألا ترى أن ما حدث سيرتجف له الملك حين تروي له تفاصيله؟

بون : قل له أني أتوقع أن يترمّل قريباً. سأطوّق عنقي، لهذه المناسبة، بعقد من الزهور النضرة.

ورويك : قل له من جهتي أنه بادرني بتصرف غير مشرف، ولكي

أثأر لنفسي سأنتزع التاج عن رأسه بأقرب فرصة. خذ هذا مكافأة لك، واذهب.

(يخرج ساعي البريد).

الملك لويس : يا ورويك، ويا أوكسفورد، مع خمسة آلاف رجل ستجتازون البحار وتشتبكون في معركة ضارية للقضاء على ادوارد المخادع. ثم عندما يحين الأوان ستلحق بكم هذه الملكة النبيلة ومعها الأمير الشهم بصحبة مدد جديد. مع ذلك، قبل الرحيل، أسألك أن تزيل عني بعض الغموض وتقول لي : ما هي الضمانة التي تقدمها لي لأثبات أمانتك؟

ورويك : اليك البرهان القاطع على وفائي الأكيد : اذا كانت ملكتنا وهذا الأمير الشاب يوافقان، أربط بينه حالاً بوثاق الزواج وبين ابنتي الكبرى التي أعتبرها فرصة عمري.

الملكة مرغريت : أجل أنا موافق، وأشكرك على شعورك. يا ابني ادوارد، هي جميلة وفاضلة، فلا تتردد في مدّ يدك الى ورويك، ومع يدك قدّم له تعهداً بأن لا يكون لك امرأة غير ابنته الرائعة.

امير ويلز : نعم، أرضى بها لأنها تستحق ذلك، وعربوناً على حسن نيتي هاك يدي.

(يمد يده الى ورويك).

الملك لويس : ماذا تنتظر الآن؟ هيا. سيزحف هؤلاء الجنود، وأنت يا مولاي بوربون أميرالنا الكبير ستنقلهم في اسطولك الملكي. يصعب عليّ أن يرزح ادوارد تحت وقر ويلات الحرب. وفي سبيل نجدته اعرض على سيدة فرنسية هذا الزواج الباهت.

(يخرج الجميع ما عدا ورويك).

ورويك : لقد جئت كسفير ادوارد. لكني انقلبت وأضحيت ألد أعدائه.

فلقد كلفني بمهمة في عقد زواج، وسيكون جوابي على هذا الطلب حرباً شعواء أشنها عليه. إن كنت الوحيد الذي اعتبرني خيالاً في صحراء، سأعرف أنا وحدي كيف أحول مهزلته الى عذاب أليم. كنت العامل الأهم في رفعه الى سدة الملك، وسأكون العامل الأهم أيضاً على دحرجته عنها، لا لأني أشفق على بؤس هنري، بل لأني أريد أن أنتقم وأثأر لنفسي لقاء الإهانة التي ألحقها بي ادوارد هكذا.

(يخرج).

الفصل الرابع

المشهد الأول

لندن، في أحد القصور.

(يدخل ريشار وكلارانس وسومرست ومونتيكو وغيرهم).

ريشار : قل لي يا أخي كلارانس، ما رأيك في هذا الزواج الجديد بليدي كراي؟ ألم يكن اختيار أخينا لائقاً؟

كلارانس : يا للأسف! ألا ترى أن المسافة بعيدة بين هذا المكان وفرنسا؟ كيف استطاع أن لا ينتظر رجوع ورويك.

سومرست : كفّ يا مولاي عن هذا الحديث. فها قد أقبل الملك.

(تسمع موسيقى. يدخل الملك ادوارد وحاشيته ثم ليدي كراي وقد أصبحت الملكة اليزابيت، وبمبروك وستافورد وهاستنيكس وغيرهم).

ريشار : ومعه رفيقته الرفيعة المقام.

كلارانس : كم أود أن أعبّر له عن فكري.

الملك ادوارد: ما رأيك يا أخي كلارانس في أمر اختياري هذا؟ أراك كثير التفكير وألاحظ عليك أنك لست مرتاحاً كل الارتياح.

كلارانس : رأيي مطابق لما قاله الملك لويس الفرنسي وكونت ورويك

اللذان لا يمتازان بالشجاعة الكافية ولا يودان مجابهتنا في هذا الموضوع.

الملك ادوارد: لنفرض أنهما انزعجا بدون حق، فانهما يظلان لويس وورويك، ولا بد من أن تتم مشيئتي.

ريشار : يجب أن تتم لأنك مليكنا. على كل حال، لا ننسَ أن الزواج العاجل قلما يكون ناجحاً.

الملك ادوارد: أجل، يا أخي ريشار، أنت أيضاً مغتاظ؟

ريشار : أنا، لا، لا. لا سمح الله أن أرضى بتفريق ما جمعه الله، ومن الحيف أن يفترق من اجتمعوا على أساس الانسجام.

الملك ادوارد: لنضع جانباً خلافاتكم وقلة تفاهمكم، وقل لي لأي سبب لا يجمل بليدي كراي أن تصبح زوجتي وملكة انكلترا؟ وأنت أيضاً يا سومرست، ويا مونتيكو قولا لي بصراحة ما هو رأيكما؟

كلارانس : رأيي أنك اكتسبت عداوة الملك لويس بسبب هزئك باقتران جلالتك بالسيدة بون.

ريشار : ثم أن ورويك الذي سعى الى تحقيق ما طلبته منه يرى أن عدم تحقيق هذا الزواج قلّل مهابته.

الملك ادوارد: واذا توصلت انا الى ارضاء لويس وورويك بوسيلة من ابتكاراتي؟

مونتيكو : هذا لا يهم. لأن هذا الزواج كان قوّى علاقاتنا بفرنسا ووطّد أركان أمبراطوريتنا في وجه العواصف الخارجية بشكل أمتن مما يؤمنه لنا زواج من داخل البلاد.

هاستينكس : ما هذه الحجة؟ أولا يدري مونتيكو أن انكلترا بوسائلها الخاصة هي في مأمن من كل خطر طالما هي وفيّة لنفسها؟

مونتيكو : لكنها تكون في مأمن أفضل عندما تحصل على مساندة فرنسا.

هاستينكس : الأولى أن نسيطر على فرنسا لا أن نلقي اتكالنا عليها. فلنتكل على الله وعلى البحر الذي يحمينا كحاجز منيع، وعند الحاجة

نجد فيهما خير مدافع وخير معين، فبهما وبهمتنا، علينا أن نصون سلامنا.

كلارانس : بهذا الكلام فقط يستحق لورد هاستينكس حصوله على وريثة لورد هنكرفورد.

الملك ادوارد: وبعد ذلك؟ يسرّني أن أمنحه اياها. وفي هذه المسألة يمكن اعتبار كلامي بمثابة قانون.

ريشار : مع ذلك، أعتقد بأنك يا صاحب الجلالة، أحسنت صنعاً باعطائك الوريثة للورد سكايل شقيق زوجتك الحبيبة. كانت تليق أكثر بكلارانس أو بي أنا، لكنك دفنت حبك الأخوي لصالح زوجتك.

كلارانس : وإلا لما وافقت على تخصيص وريثة لورد بونفيل بابن زوجتك الجديدة وتركت اخوتك يبحثون عن نصيبهم في جهة أخرى.

الملك ادوارد: يا للأسف، يا كلارانس المسكين. الأجل امرأة تحنق؟ هيا سأساعدك على الوصول الى مبتغاك.

كلارانس : عندما اخترت لنفسك زوجة، أظهرت تبصراً قل نظيره، وعليه أرجو أن تسمح لي بتدبير شؤوني بنفسي. وعلى هذا الأساس، أودّ أن أغادرك قريباً.

الملك ادوارد: ان بقيت الى جانبي أو غادرتني، سأصبح مليكاً ولن تلين عزيمتي أمام أي أخ.

الملكة اليزابيت : يا مولاي، قبل أن يطيب لجلالتك أن ترفعني الى مقام الملكة، وجميعكم موافقون على أن تروا هذا عادلاً، لم أكن وضيعة النسب. وكم من النساء ممن هن أدنى مني حسباً، حالفهن الحظ نظيري. انما إن كان هذا الارتقاء يشرّفني، ويشرّف اسرتي، فإن الكراهية التي تظهرونها لي، أنتم الذين أود أن أرضيكم، تنشر على سعادتي غيمة من الأخطار والأحزان.

الملك ادوارد: يا حبيبتي، لا تتنازلي الى دغدغة عدائهم. أية مخاطر وأية

أحزان يمكنها أن تنال منك، ما دمت أنا ادوارد صديقك ومليكك الشرعي الذي يدين له الجميع بالطاعة والولاء؟ أجل عليهم، أن يطيعوني وأن يحبوك، ان لم يريدوا اكتساب بغضي. واذا تعرضوا اليه، سأعرف كيف أدافع عنك، وسيواجهون انتقام غضبي.

ريشار (على حدة) : أنا أسمع بدون أن أحري جواباً، فهذا ما أفكر به أنا أيضاً.

(يدخل رسول).

الملك ادوارد: ما وراءك، أيها الرسول؟ بأية أنباء وبأية رسائل تأتينا من فرنسا؟

الرسول : لا رسائل، يا مولاي الملك. انما فقط بعض الكلام الذي لا يسعني أن أفضي به الى جلالتك، الّا اذا منحتني سماحك الخاص.

الملك ادوارد: هيا قل، أنا أسمح لك، وبدون تأخير قل لي هذا الكلام بأمانة على قدر ما تحفظه ذاكرتك. ما هو جواب الملك لويس على رسالتي؟

الرسول : ها هي الكلمات التي سمعتها حرفياً عند مجيئي : اذهب وقل لملكك الخبيث ادوارد، ان لويس ملك فرنسا سيرسل له أقنعة لكي يشترك في الرقص هو وزوجته الجديدة.

الملك ادوارد: هل أصبح لويس وقحاً الى هذه الدرجة؟ أراه يظنني نظير هنري؟ لكن، ماذا قالت السيدة بون عن زواجي؟

الرسول : اليك بما قالته يا مولاي بلهجة هادئة ساخرة : قل له أني، بمناسبة ترمّله قريباً، سأضع في عنقي لهذه المناسبة عقداً من الأزهار النضرة.

الملك ادوارد: أنا لا ألومها إذ لا يسعها أن تقول أقل من هذا، ما دامت هي التي اغتاظت. لكن، ماذا قالت زوجة هنري؟ لأني علمت أنها كانت حاضرة.

الرسول : لقد صاحت : قل له ان الثياب التي ارتديها للحداد موضوعة جانباً، وأني مستعدة لارتداء درعي.

الملك ادوارد: يظهر أنها تريد أن تتسلى بركوب الخيل. وماذا كان ردّ ورويك على هذه الاهانات؟

الرسول : هو مستاء أكثر منهم جميعاً من أقوال جلالتك، لأنه صرفني بهذه العبارة : بلغه من قبلي انه حقرني، ولقاء استهتاره بي سأسعى لنزع التاج عن رأسه في أقرب مناسبة.

الملك ادوارد: تبًّا له من خائن تجاسر على توجيه مثل هذا الكلام القبيح لشخصي. ها أنا على حذر وسأتسلح لمحاربته، وسيدفعون جميعهم غالياً ثمن شموخهم هذا وتمردهم على مشيئتي. لكن اخبرني، هل تصالح ورويك ومرغريت؟

الرسول : نعم، يا صاحب الجلالة. أضحت الصداقة تربط بينهما الى حد أن الأمير ادوارد الشاب سيتزوج ابنة ورويك.

كلارانس : على الأرجح الابنة الكبرى، على أن أحظى أنا كلارانس بالصغرى. فالوداع يا أخي الملك، وما عليك الا الصمود لأني عازم على طلب يد ابنة ورويك. واذا لم أحصل على العرش بهذا الزواج، على الأقل أكون أقرب الناس اليك. فمن يحبني ويحب ورويك يتبعني.

(يخرج كلارانس ويتبعه سومرست).

الملك ادوارد: ذهب كلارانس وسومرست ليلحقا بورويك. هذا لا يهمني لأني مستعد لمواجهة اسوأ الاحتمالات، انما عليّ أن استعجل الأمور في هذه الوضعية اليائسة. يا بمبروك ويا ستافورد اذهبا واجمعا باسمي كل رجالنا وسلّحاهم للقتال، لأن أخصامنا لا يلبثون أن يحلّوا في ديارنا إن لم يكونوا قد أقبلوا. وسألحق بكم حالاً. (يخرج بمبروك وستافورد). لكن قبل أن أمضي. يا هاستينكس، وأنت يا مونتيكو، أزيلا عني هذا

الشك. انتما بنوع خاص مقربان الى ورويك بالنسب وبالزواج. فقولا لي بصراحة إن كنتما تحبّان ورويك أكثر مني. فإذا كان هذا حالكما يمكنكما أن تلحقا به. فاني أفضّل أن أعتبركما كأعدائي أكثر من صديقين مريبين. اما اذا صمّمتما على البقاء وفيين وخاضعين لي، فطمئناني واقسما لي بأنكما ستحافظان على مودّتي. وهكذا لا يخامرني أي ريب من ناحيتكما.

مونتيكو : لا وقاني الله شراً، إن لم أظل مخلصاً لك.

هاستينكس : وكذلك أنا، ان لم أدافع عن قضيتك، يا مولاي ادوارد.

الملك ادوارد: وأنت يا أخي ريشار هل تبقى الى جانبي؟

ريشار : أجل بالرغم من جميع من ينحازون الى خصمك.

الملك ادوارد: حسناً. اذاً أنا واثق من الانتصار. والآن هيا بنا نبتعد من هنا بدون أن نضيع ساعة من الزمن، اذ لا بد لنا من مواجهة ورويك وجيشه الغريب.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في سهل من مقاطعة ورويك شاير

(يدخل ورويك وأوكسفورد مع فصائل فرنسية وغيرها).

ورويك : صدقني، يا مولاي، كل شيء حتى الآن يسير على ما يرام، والشعب بأكمله ينضم الينا.

(يدخل كلارانس وسومرست).

ها هما سومرست وكلارانس قد أقبلا. أجيبا يا سادة بأننا جميعاً أصدقاء.

كلارانس : بدون شك يا مولاي.

ورويك : أهلاً بك يا كلارانس الكريم ومرحباً بك بجواري، وأنت أيضاً يا سومرست أنا أعتبر نفسي جباناً إن شككت بكما، لأنكما مددتما يدكما إليّ بقلب نبيل دلالة على التمسك بصداقتي. وإلا اعتبرت أن كلارانس شقيق ادوارد لا يحبّذ موقفي الحالي. مهما كان الأمر، أهلاً بك يا عزيزي كلارانس، فأنا أمنحك ابنتي. والآن هيا الى العمل ولنغتنم فرصة عتمة الليل لأن أخاك خيّم بدون ترتيب ليس بعيداً من هنا، وجنوده متفرقون في المدن المجاورة، وهو شخصياً لا تحميه إلا فرقة صغيرة من الجنود. لذلك نستطيع مهاجمته وأسره بسهولة، لا سيما أن جواسيسنا وجدوا المغامرة هينة. وكما تسلل البطل أوليس والشجاع ديوماد، ببسالة وبراعة الى خيم ريزوس واصطحبا معهما في العودة رسل تراقيا، هكذا نغتنم فرصة ظلام الليل لكي نهاجم بغتةً حرس ادوارد ونمسك به هو شخصياً بدون أن نقتله، لأني لا أريد سوى مفاجأته. فيا من تريدون أن تتبعوني في هذه المهمة اهتفوا مع رئيسكم بحياة هنري. (يهتف الجميع : يحيا هنري) والآن هيا نتقدم بصمت. فالله وشفيعنا جاورجيوس يحميان ورويك ورجاله.

(يخرجون).

المشهد الثالث

في مخيم ادوارد بقرب ورويك.

(يدخل عدد من الحرّاس لحماية خيمة الملك).

الحارس الأول : تقدموا يا سادتي وليأخذ كل منكم مكانه، فالملك متمدد هنا يغطّ في النوم.

الحارس الثاني : ماذا تقول؟ هو لا يريد الاستلقاء على سريره.

الحارس الأول : كلا، لأنه أقسم اليمين علناً بأن لا ينام ولا يرتاح إلا عندما يهلك ورويك أو يهلك هو نفسه.

الحارس الثاني : غداً إذاً سيكون يوم الحسم. إذا كان ورويك هكذا قريباً كما بلغنا؟

الحارس الثالث : لكن أرجو منك أن تقول لي من هو هذا المولى الذي يرقد في خيمة الملك والى جانبه.

الحارس الأول : هو لورد هاستينكس أخلص أصدقاء الملك.

الحارس الثالث : حقاً؟ لكن لماذا يأمر الملك بأن يمكث كبار ضباطه في المدن المجاورة بينما هو يستقر في منطقة حائدة.

الحارس الثاني : لأن الاقتراب من الخطر شرف زائد مرموق.

الحارس الثالث : أجل، أنا يهمني الحصول على الراحة ورغد العيش أفضل من المخاطرة والشرف. لو درى ورويك ما هو وضع الملك الآن، لخاف على حياته وجاء يوقظه.

الحارس الأول : إذا لم تحمه رماحنا وتسدّ له الطريق.

الحارس الثاني : نعم، لماذا نحن نحرس خيمة الملك، إذا كنا لا نحميه من أعدائه.

(يدخل ورويك وكلارانس وأوكسفورد وسومرست، ورجالهم).

ورويك : هذه خيمته، وهنا يعسكر حراسه. فتشجعوا يا سادتي، إذْ

ليس أمامنا إلّا شرف الانتصار أو الهلاك الى الأبد. اتبعوني فقط ويكون ادوارد في حوزتنا.

الحارس الأول : من القادم الى هنا؟

الحارس الثاني : قف مكانك، أو قضيت عليك.

(ورويك ورجاله يهتفون معاً : ورويك ورويك، وينقضّون على حراس ادوارد الذي يفرّ صارخاً : الى السلاح، الى السلاح. وورويك وجماعته يطاردونهم. يقرع الطبل وينفخ البوق. ورويك وجماعته يعودون ومعهم ادوارد بقميص النوم وهو جالس على كرسي. يهرب ريشار وهاستينكس).

سومرست : من هم الهاربون هناك؟

ورويك : ريشار وهاستينكس. دعوهما يذهبان. هذا هو الدوق.

الملك ادوارد: الدوق! آه، يا ورويك! في آخر مرة افترقنا كنت تدعم الملك.

ورويك : نعم، لكن الوضع تغير. بما أنك ألحقت بي العار في انتدابي كسفير، أنا نزعت عنك لقب الملك وجئت الآن أعيد اليك لقب دوق يورك. يا للأسف! كيف تريد أن تحكم مملكة وأنت لا تعرف كيف تداري بلباقة موقف السفراء، ولا أن تكتفي بزوجة واحدة، ولا أن تعامل اخوتك بإنسانية، ولا أن تسعى لخير الشعب، ولا أن تحمي نفسك من أعدائك.

الملك ادوارد: أجل يا أخي كلارانس، أنت لا تزال هنا؟ أرى أن لا بد لي من السقوط كملك. مع ذلك يا ورويك، بالرغم من كل المعاكسات، وبالرغم منك ومن أعوانك، سأظل أنا ادوارد أتصرف كملك. ومهما عاكستني الظروف وقلبت لي ظهر المجنّ وأزالت سلطتي، فإن نفسي ستبقى خارج نطاق مفعولها.

ورويك (وهو ينزع التاج عن رأسه) : ليظل إذاً ادوارد ملك انكلترا في مخيلته. لأن هنري هو الذي من الآن وصاعداً، سيحمل التاج وسيكون الملك الحقيقي. أما أنت فما عدت سوى ظلّ. يا مولاي سومرست، نزولاً عند طلبي، أرجو أن تقود ادوارد الى شقيقي

رئيس أساقفة يورك. وبعد أن أنهي حملتي على رفاقه، سألحق بكم وسأعلم ادوارد بالجواب الذي أرسله اليه لويس ملك فرنسا والسيدة بون. والآن وداعاً يا دوق يورك.

الملك ادوارد: على الرجال أن يتحملوا ما يفرضه عليهم مصيرهم، إذ لا جدوى من قتال لا أمل فيه بالظفر.

(يؤخذ الملك ادوارد برفقة سومرست).

اوكسفورد : لم يبقَ أمامنا، يا مولاي، إلا الزحف مع جنودنا على لندن.

ورويك : أجل هذا أول أمر علينا أن نحققه : ألا وهو تخليص الملك هنري من السجن وإعادته الى العرش.

(يخرجون).

المشهد الرابع

في لندن، داخل أحد القصور.

(تدخل الملكة اليزابيت وريفرز).

ريفرز : يا سيدتي، ماذا دعاكِ الى هذا التبدّل المباغت؟

الملكة اليزابيت : ماذا أرى يا أخي ريفرز؟ أتراك لم تعلم بعد بالمصيبة التي حلت بالملك ادوارد.

ريفرز : ماذا تعنين؟ خسارة معركته مع ورويك.

الملكة اليزابيت : كلاّ، بل خسارة شخص الملك بالذات.

ريفرز : هل قتل ملكنا؟

الملكة اليزابيت : أجل، تقريباً لأنه سيق الى الأسر، سواء كان ذلك عن طريق خيانة حرسه أو على أثر مهاجمة أعدائه له فجأةً،

المهم ما سمعته فوق ذلك، أنه أخذ الى حرس الأسقف شقيق يورك الصارم الذي نعتبره الآن كعدونا.

ريفرز : لا بد من الاقرار بأن هذه الأنباء مؤلمة جداً، مع ذلك، يا سيدتي الكريمة عليك أن تتحملي هذا المصاب بصبر، لأن ورويك الذي ربح اليوم المعركة، لا يستبعد أن يخسرها غداً.

الملكة اليزابيت : حتى الآن هناك أمل يحميني من الانهيار. على كل حال، لا بد لي من الابتعاد عن كل يأس حباً بجنين ادوارد الذي أحمله في أحشائي. لذلك أضع حداً لتأثري وأتحمل بإذعان وقر سوء طالعي. أجل، هذا ما يدعوني الى ابتلاع دموعي وحبسها في تنهدات محرقة خشية أن تذبل لوعتي وحسرتي ثمرة حبي للملك ادوارد وريث تاج انكلترا الشرعي.

ريفرز : لكن، يا سيدتي، ماذا حلّ بورويك؟

الملكة اليزابيت : علمت أنه زاحف على لندن، ليعيد التاج الى رأس هنري. وعليك أن تتوقع الباقي، وعلى أصدقاء ادوارد أن ينسحبوا من الميدان. ولكي أتجنب عنف الطاغية، لأن من يحنث بقسمه لا يؤمن جانبه، سألجأ الى أحد المعابد لأنقذَ على الأقل وريث حقوق ادوارد في العرش. وهناك سأكون بعيدة عن كل عمل عدائي وكل مناوأة. تعال إذاً نهرب، بينما لا يزال المجال منفسحاً أمامنا. فإذا وقعنا في قبضة ورويك هلكنا لا محالة.

(يخرجان).

المشهد الخامس

في حديقة بقرب قصر ميدلهام في مقاطعة يورك شاير.

(يدخل ريشال وهاستينكس وسير وليم ستانلي وغيرهم).

ريشار : الآن يا مولاي هاستينكس، وأنت يا سير وليم ستانلي، لا تعجبا إذا قدتكما من هنا الى مجموعة كثيفة من أشجار الحديقة. فالوضعية هي كما يلي : أنتم تعلمون أن أخي الملك أسَرَه الأسقف الذي يحترمه ويمنحه بعض الحرية، وغالباً ما يكون حراسه قليلي العدد، وانه يأتي الى هذه الجهات ليتسلّى بممارسة الصيد. لقد نبهته بطريقة سرية، إذا أراد، أن يأتي في هذه الساعة الى طرفنا بداعي الصيد حسب العادة. وهنا يجد أصدقاءه وحصانه ورجالاً مستعدين لتخليصه من الأسر.

(يدخل الملك ادوارد وأحد الصيادين).

الصياد : من هنا، يا مولاي. من هنا تصل الى الطريدة.

الملك ادوارد: كلا، من هناك يا صديقي. انظر الى مكان الصيادين. هناك شقيق كلوسستر لورد هاستينكس. لقد وقعتم جميعكم في كمين لأنكم تصطادون في أملاك الأسقف.

ريشار : الوقت والظرف يقتضيان العجلة، يا أخي، وحصانك ينتظرك في زاوية الحديقة.

الملك ادوارد: لكن، الى أين نذهب؟

هاستينكس : الى « لين » يا مولاي. ومن هناك نركب البحر الى شواطئ فلاندر.

ريشار : هذه فكرة رائعة، صدقني، وهي فكرتي أنا أيضاً.

الملك ادوارد: يا ستانكي، سأجزل لك المكافأة على غيرتك.

ريشار : لكن لماذا التأخّر؟ ليس الآن وقت التمادي في الحديث.
الملك ادوارد: ما قولك أيها الصياد؟ هل تريد أن ترافقنا؟
الصياد : هذا أوفق، وإلا كان الشنق نصيبي.
ريشار : هيا نذهب بدون زيادة كلام.
الملك ادوارد: وداعاً أيها الأسقف. وحذار من غضب ورويك. صلي لكي أستردّ التاج.

(يجرون).

المشهد السادس

في برج لندن.

(يدخل الملك هنري وكلارانس وورويك وسومرست والشاب ريتشموند وأوكسفورد وملازم البرج ورجال الحاشية).

الملك هنري : سيدي الملازم، الآن وقد أنزل أصدقائي ادوارد عن العرش بعون الله، وأبدلوا أسري بالحرية، وقلقي بالأمل والطمأنينة، وأحزاني بالأفراح. ماذا تستحق في فترة بحبوحتي حين تعود المياه الى مجاريها.

ملازم البرج : الرعايا ليس لهم أن يطالبوا مليكهم بشيء. لكن إذا كان رجائي مستجاباً، فألتمس عفو جلالتك.

الملك هنري : لماذا أيها الملازم؟ لأنك أحسنت معاملتي. كن على يقين بأني سأكافئك بسخاء لأنك جعلت من سجني متعة، أجل متعة يتذوقها العصافير في القفص حيث لا ينقصها شيء فتألف الأسر بما يعوضه عليها من عناية، لقاء فقدان حريتها. ولكن، بعد الله يا ورويك، أنا مدين لك بخلاصي. لذلك أشكر الله وأشكرك على هذه النعمة، فهو الأصل وأنت

الوسيلة. لقد أراد خصمي أن ينتصر عليّ ويذلّني، فإذا به يقع في الحفرة التي أعدّها لي. لذا أودّ أن يشعر شعبنا على هذه الأرض المباركة بأن يد العناية ترعاه، أريد منك يا ورويك، مع أني أنا صاحب التاج، أن تتسلم أنت الحكم لأني واثق بمهارتك وحَنكتك في إدارة شؤون المملكة..

ورويك : أنت تمتاز، يا مولاي، عن سواك بما تتحلّى به من فضائل. وها أنت تبرهن عن حكمتك وتبصرك، لأن الرجال الذين يحسنون التصرف قليل عددهم. مع ذلك، اسمح لي يا صاحب الجلالة أن أعاتبك على اختيارك إياي لهذه المهمة، بينما كلارانس حاضر بيننا.

كلارانس : كلا، يا ورويك. أنت تستحق السلطة لأنك منذ أن أبصرت عيناك النور كنت تحمل غصن الزيتون وإكليل الغار، وهما رمزان نبيلان أيام الحرب والسلم. لذلك أنا أؤيد اختيار الملك منحك هذه الثقة الغالية الموضوعة في محلها.

ورويك : وأنا أختار كلارانس حامي المملكة.

الملك هنري : يا ورويك ويا كلارانس، ليعطني كل منكما يده، والآن ضمّا يديكما، ومعهما قلبيكما كي لا تتغلب أية عقبة على مسيرة الحكم. إني أجعلكما معاً حاميين للمملكة، بينما أنا ألتزم حياتي الخاصة، وأنهي أيامي بالتأمل والتكفير عن ذنوبي وتمجيد خالقي.

ورويك : ما هو جواب كلارانس على تمنيات ملكه؟

كلارانس : أنا أوافق إذا وافقت أنت يا ورويك. لأني أنا أيضاً أرتاح الى تدبيرك وحسن إدارتك.

ورويك : عليّ إذاً أن أوافق ولو بشيء من الاضطرار. سنتكاتف كأننا ظلّيْ شخص هنري، ونقوم مقامه بقدر الإمكان. أعني سنحمل أعباء الحكم بينما يعود اليه شرف الملك في إخلاده الى

الراحة. والآن يا كلارانس لا بد من أن نعلن فوراً خيانة ادوارد، وأن نضع يدنا على جميع أملاكه وأرزاقه.

كلارانس : وماذا تريد أيضاً؟ ان خلافته مفتوحة.

ورويك : طبعاً، أنت بالفعل لك حق فيها.

الملك هنري : لكن، قبل كل شيء دعني ألتمس منك، لأني لم أعد أنا الآمر، أن تعاد الملكة مرغريت وابني ادوارد من فرنسا على جناح السرعة، لأنني حتى لحظة مشاهدتهما قريباً سيظل القلق المشوب بالشك يحرمني نصف فرحي بخلاصهما.

كلارانس : سيتم ذلك بأسرع ما يمكن، يا صاحب الجلالة.

الملك هنري : مولاي سومرست، من هو هذا الشاب المحاط بكل هذه الحفاوة والحنان؟

سومرست : هذا هنري الشاب كونت ريتشموند. يا مولاي.

الملك هنري : تعال، يا أمل انكلترا (يضع يده على رأس ريتشموند) إذا كانت هذه هي الحقيقة، فإن قوة عجيبة توحي إليّ بأن هذا الفتى الوسيم سيغمر بلادنا بالسعادة والرخاء. لأن نظراته ملأى بالجلال والهدوء، ورأسه تهيئه الطبيعة ليحمل التاج، ويده لتمسك بالصولجان، وهو مدعوّ ليتربع يوماً على عرش الملوك. حيّوه يا سادة، لأنه أهل لأن يوفر لكم الخير أكثر مما سببته أنا لكم من شر.

(يدخل رسول).

ورويك : ما وراءك من أخبار، يا صديقي؟

الرسول : هرب ادوارد من حرّاسة أخيك الى بوركون، كما بلغني الآن.

ورويك : نبأ مزعج. لكن كيف هرب؟

الرسول : اصطحبه ريشار دوق كلوسستر ولورد هاستينكس اللذان كانا ينتظرانه في مكمن سرّي عند طرف الغابة. فخطفوه من

بين صيادي الأسقف، لأن الصيد كان رياضته اليومية المفضلة التي يمارسها بكل حرية وابتهاج.

وورويك : لم يسهر عليه أخي كما يلزم ولم يؤدّ وظيفته كما يجب. هيا نذهب من هنا يا مولاي، لنبحث سلفاً عن علاج لجميع المتاعب التي قد تصيبنا.

(يخرج الملك هنري وورويك وكلارانس وملازم البرج ورجال الحاشية).

سومرست : لم يعجبني هرب ادوارد، يا مولاي. لأن بوركينيون سيمدّ اليه يد المساعدة بدون شك وسنواجه حروباً أخرى عن قريب. فإذا صدقت نبوءة هنري عن مستقبل ريتشموند الشاب، أغتبط قلبي لأن الخوف عليه من المؤامرات لا يفارقني، لذا أرى من الأنسب أن نبعده من هنا بإرساله الى بريطانيا حتى تنقشع غيوم الخلافات والدسائس وتهدأ رياح العاصفة الهوجاء.

اوكسفورد : أجل، فإذا استولى ادوارد على العرش من جديد، عليك أن تأتي فوراً لنعمل بسرعة على تدارك الأمور.

(يخرجون).

المشهد السابع

أمام مدينة يورك.

(يدخل الملك ادوارد وريشار وهاستينكس والجنود).

الملك ادوارد: كما ترون، يا أخي ريشار ويا لورد هاستينكس وأنتم جميعاً أيها الحاضرون، قد عوّضنا الحظّ عمّا حلّ بنا، وعلى ما أعتقد ستتبدّل أحزاننا برجوعي الى اعتلاء عرش هنري. لقد

قطعنا البحار ذهاباً وإياباً وعدنا من بوركون بالعون المرتجى. والآن وقد وصلنا من مرفأ رافنسبروك الى أبواب يورك ما علينا إلا أن ندخل الى مقرّنا في مقاطعتنا.

ريشار : أرى الأبواب مغلقة، يا أخي، وهذا يقلقني. إذ من يتعثر عادة على العتبة، عليه أن يخشى خطراً كامناً في الداخل.

الملك ادوارد: هذه التوجسات يا عزيزي، يجب أن ترعبنا الآن أكثر من قبل. إذ يتحتم علينا، شئنا أو أبينا، أن ندخل لموافاة أصحابنا.

هاستينكس : مولاي، عليّ أن أطرق الباب مرة أخرى ليفتحوا لنا.

(يدخل الى حواجز المدينة محافظ يورك وزملاؤه).

المحافظ : يا مولاي، لقد وردنا نبأ بقدومكم وأغلقنا الأبواب لنكون في مأمن، ما دمنا الآن مضطرين لتقديم ولائنا الى هنري.

الملك هنري : لكن يا سيدي المحافظ، إذا كان هنري ملككم، فأنا ادوارد على الأقل دوق يورك.

المحافظ : هذا صحيح يا مولاي، أنا أعترف بصفتك هذه.

الملك ادوارد: وأنا لا أطالب إلا بدوقيّتي، وكلّي استعداد للاكتفاء بها.

ريشار (على حدة) : لكن متى مدّ الثعلب رأسه يجد حيلة لإدخال باقي جسمه.

هاستينكس : لماذا، يا سيدي المحافظ، تتردّد هكذا؟ افتح لنا الأبواب، فنحن أصدقاء الملك.

المحافظ : حقاً؟ سنفتح لكم الأبواب اذاً.

(ينسحب من الحاجز هو وزملاؤه).

ريشار : هذا ضابط أصيل لن يلبث أن يستجيب.

هاستينكس : العجوز الكريم يعتقد أحياناً بأن كل شيء يسير على ما يرام حين تجري الأمور حسناً بالنسبة اليه. لكن، حالما ندخل

لا شك في أننا نستطيع أن نعيده سريعاً هو ورفاقه الى الجادة التي نسير عليها.

(يظهر المحافظ واثنان من العصاة على الحاجز).

الملك ادوارد: حسناً يا سيدي المحافظ، هذه الأبواب يجب أن لا تغلق إلا ليلاً، أو في زمن الحرب. هيا، لا تخف، أيها الصديق، وسلمنا المفاتيح (يأخذ مفاتيح المدينة) فعلاً أنا ادوارد مصمم على الدفاع عن المدينة وعن جميع من يتنازلون ويتبعونني.

(يسمع قرع طبول. يدخل منتكومري ومعه جنود. تسمع مشية عسكرية).

ريشار : يا أخي، هذا هو سير جون مينتكومري صديقنا المخلص، إذا لم أكن مخطئاً.

الملك ادوارد: أهلاً وسهلاً يا سير جون. لماذا تأتينا مدجّجاً بالسلاح.

منتكومري : لإغاثة الملك ادوارد أثناء هذه العاصفة كما يجب أن يفعل كل مواطن وفيّ.

الملك ادوارد: شكراً يا منتكومري الكريم. لكني الآن، عليّ أن أنسى حقي بالتاج وأن لا أطالب إلا بدوقيتي حتى يمنَّ الله عليَّ بالباقي.

منتكومري : الوداع اذاً، لأنني عائد من حيث أتيت. جئت لأخدم الملك لا الدوق. اقرعوا الطبول، ولنواصل السير.

(تبدأ السيرة).

الملك ادوارد: لا، قف قليلاً يا سير جون لأرى بأية وسيلة أكيدة يمكنني استرداد العرش.

منتكومري : ماذا تقصد بقولك؟ لنختصر : إذا كنت لا تريد أن تعلن نفسك ملكاً، أتركك الى حظك وأطلب من الذين أتوا الى نجدتك أن يعودوا من حيث أتوا. لماذا نحارب إذا كنت لا تطالب بأي لقب؟

ريشار : هيا بنا يا أخي، لماذا تتوقف أمام هذه المشاكل؟

الملك ادوارد: عندما أصبح أقوى مما أنا عليه الآن أقدم مطالبي. حتى هذه الساعة أظن من الأنسب أن أخفي رغباتي.

هاستينكس : سحقاً للوساوس. لا شيء كالسلاح يقرر المصير.

ريشار : والرجل الجسور هو الذي يصل بسرعة الى التاج. فما قولك يا أخي أن ننادي بك بالقوة ملكاً منذ الآن؟ فهذا الاعلان وحده يجلب لك العديد من الأصدقاء والمناصرين.

الملك ادوارد: كما تشاء. فالحق الى جانبي وهنري ليس سوى مغتصب العرش.

منتكومري : نعم، الآن يتكلم مليكي لغة تليق به، وأنا أريد أن أكون بطل ادوارد.

هاستينكس : انفخوا الأبواق، لنعلن ادوارد ملكاً. هيا يا صاح أعلن نفسك.

(يعطي أحد الجنود ورقة، وتصدح الموسيقى).

الجندي (يقرأ) : ادوارد الرابع أصبح بعون الله ملك انكلترا وفرنسا ولورد إرلندا الخ.

منتكومري : ومن ينكر هذا الحق على الملك ادوارد، أنا أتحداه لقتال منفرد.

(يرمي بقفازه الى الأرض).

الجميع : يحيا ادوارد الرابع.

الملك ادوارد: شكراً يا منتكومري الشجاع، وشكراً لكم جميعاً. إذا حالفني الحظ سأكافئكم على إخلاصكم. سنقضي هذه الليلة هنا في يورك، وحالما تطلع الشمس غداً فوق الأفق سنتوجه نحو ورويك وعصابته. لأني أعرف جيداً انه بالنسبة الى هنري ليس جندياً يخشى بأسه. تباً لك يا كلارانس الخشن، أنت لا تعرف كيف تتملق هنري وتتخلى عن أخيك. هذا

لا يهمني. سنتصدّى لك ونعارض يورك بقدر استطاعتنا. فإلى الأمام أيها الجنود البواسل ضعوا النصر نصب أعينكم، ومتى أصبح في يدنا يمكنكم تأمين سلام طويل الأمد.

(يخرجون).

المشهد الثامن

لندن ــ في قصر لمبث

(يدخل الملك هنري وورويك وكلارانس ومونتيكو وأكساتر وأوكسفورد).

ورويك : بماذا تنصحوني أيها اللوردات؟ لقد ذهب ادوارد من بلجيكا مع جماعته من الألمان المغرورين والهولنديين البلهاء، وقطعوا المضيق بأمان، وكل هؤلاء الرجال يزحفون على لندن، بعد أن انضم اليهم عدد من المتهورين.

أوكسفورد : تعالوا نجمع بعض المحاربين وندحر أخصامنا.

كلارانس : النار الخفيفة سهل وسريع إطفاؤها. أما إذا تركتموها تمتد فإن أنهاراً برمتها لا تكفي حينئذٍ لإخمادها.

ورويك : لديّ في منطقتي، ورويك شاير، أصدقاء مخلصون، وإن لم يكونوا مشاغبين في أيام السلم، تراهم من الشجعان في زمن الحرب. سأجمعهم يا ابني كلارانس، في مناطق سوفولك ونورفولك وكنت، ونستعجل الفرسان الوجهاء لينضموا اليك. وأنت يا أخي مونتيكو في مناطق بوكنكهام ونورتمتون ولايسستر ستجد رجالاً أشداء على أتم الاستعداد للانضواء تحت إمرتك وأنت يا أكسفورد الباسل بصفتك محبوباً للغاية في منطقة أوكسفورد شاير ستجمع أصدقاءك العديدين ليناصروك. أما مليكي الذي يحيط به المواطنون الأوفياء كما

تحيط البحّارة بهذه الجزيرة الصامدة، وكما تحلّق عرائس البحر حول ديانا العفيفة، سيظل في لندن الى أن تأتي لملاقاته. فيا أيها السادة الأجلاء استأذنوا الملك بالانصراف واذهبوا بدون أي تأخير. الوداع يا صاحب الجلالة.

الملك هنري : الوداع، أيها البطل، يا أمل هذه الجزيرة الوطيد.

كلارانس : وإثباتاً لأمانتي أقبّل يدك، يا صاحب السمو.

الملك هنري : أتمنى لك حظاً سعيداً، يا كلارانس الأمين.

مونتيكو : تشجع، يا مولاي. أستأذنك بالانصراف.

أوكسفورد (يقبّل هنري) : هكذا أرسّخ إيماني بك، وأنا أودعك.

الملك هنري : يا عزيزي أوكسفورد ويا حبيبي مونتيكو وأنتم جميعاً أقول لكم مرة أخرى الوداع، وأسعد الله أوقاتكم.

ورويك : الوداع، أيها اللوردات الأعزاء. الحقوا بنا الى كوفنتري.

(يخرج ورويك وكلارانس وأوكسفورد ومونتيكو).

الملك هنري : سأستريح لحظة هنا في القصر. يا ابن عمي أكساتر، ما رأي سيادتك؟ أظن أن القوات التي أرسلها ادوارد الى ساحة القتال لا تعادل ما لدينا من قوات. ولا يسعها أن تقاومنا.

أكساتر : يخشى أن يأتي بغيرها أيضاً.

الملك هنري : هذا لا يقلقني، لأن خطَّتي باتت معروفة. فأنا لم أصمَّ أذني عن سماع طلبات أفراد الشعب، ولم أؤجّل التماساتهم الى مدى طويل. وكم أشفقت على المصابين وضمّدت جراحهم وقد خففت آلامهم بطيبة قلبي ورحمتي كفكفت دموعهم الغزيرة ولم أطمع بأموالهم ولم أرهق كاهلهم بالجزية. ورغم شرودهم أحياناً، لم أقسُ عليهم ولم أنتقم منهم. فلماذا يحب هذا الشعب ادوارد أكثر مني؟ لا يا اكساتر. إن كل الحسنات تستدعي أفضل معاملة. وعندما يلاطف الأسد الحمل، لا يلبث هذا الحمل أن يتبعه.

(تتعالى من الداخل صيحات : لنكاستر، لنكاستر).

اكساتر : اسمع، اسمع، يا مولاي. ما هذا الصراخ؟

(يدخل الملك ادوارد وريشار وبعض الجنود).

الملك ادوارد: اقبضوا على هنري صاحب الوجه المشؤوم، وخذوه من هنا ونادوا بي من جديد ملك انكلترا. (للملك هنري). كنت أنت الينبوع الذي تتفرع منه عدة سواقي. والآن قد نضبت مياهك، وابتلعها بحر حظي وتضخمت أمواج همي. خذوه الى البرج بدون أن تدعوه يتكلم. (يخرج بعض الجنود مصطحبين هنري) والآن أيها اللوردات لنوجه مسيرتنا الى كوفنتري. أين هو الآن هذا المدّعي ورويك. الشمس مشرقة وساطعة. فإذا تأخرنا سيعضنا برد الشتاء ويتبدد محصولنا الذي طالما رجوناه.

ريشار : هيا نذهب بسرعة قبل أن يجمع قواته، ونفاجئ بغتةً هذا الخائن اللعين. أيها المحاربون الشجعان، هيّا بنا نزحف على كوفنتري.

(يخرجون).

الفصل الخامس

المشهد الأول

في كوفنتري.

(يصل الى الحاجز ورويك ومحافظ كوفنتري ورسولان وغيرهم).

ورويك : أين ساعي البريد الذي جاء من قبل أوكسفورد؟ وعلى بعد أية مسافة يقع مقر سيدك، صديقي الحميم؟

الرسول الأول: أعتقد بأنه في دنْسمور، وسيوافيكم.

ورويك : وعلى بعد أية مسافة هو أخي مونتيكو؟ أين ساعي البريد الذي وصل قبله؟

الرسول الثاني: أظنه في دنْتري، ومعه مدد وافر العدد.

(يدخل سير جون سومرفيل).

ورويك : ماذا يقول صهري الحبيب يا سومرفيل؟ وحسب تقديرك في أية بقعة يقف الآن كلارانس؟

سومرفيل : لقد تركته في سوْتهام مع قواته، وأنا أنتظر قدومه الى هنا بعد ساعتين تقريباً.

(يسمع قرع طبول).

وورويك : في هذه الحالة، يعسكر كلارانس على مقربة منا، وأنا أسمع قرع طبوله.

سومرفيل : هذا ليس قرع طبوله، يا مولاي. لأن سوْتهام من هذه الجهة. أما صوت الطبل الذي تسمعه جلالتك فآتٍ من جهة وورويك.

وورويك : وما عسى أن يعني هذا؟ لا شك في أن هناك اصدقاء غير منتظرين.

سومرفيل : هم قادمون. وسنرى من يكونون؟

(يسمع قرع طبول. يدخل الملك ادوارد وريشار، وجنودهما في مشية عسكرية نشيطة).

الملك ادوارد: اقترب يا نافخ البوق صوب الحاجز، واعطِ اشارة الاستسلام.

ريشار : انظر الى العابس وورويك كيف يقف على الحاجز كالحارس.

وورويك : هذه مشاكسة غير متوقّعة، لأن المستهتر ادوارد وصل. أين نام اذاً كشّافونا، وكيف ارتشوا، ولم يعلمنا أحد باقترابهم؟

الملك ادوارد: الآن يا وورويك، افتح أبواب المدينة، والقِ خطاباً يجعل الركاب تنطوي والهامات تنحني بوضاعة. نادِ ملكك ادوارد.

وورويك : لا، أبعدْ أنت رجالك من هنا، وحيِّ من رفعك ثم أنزلك. هيّا استسمحني، أنا معلمك وورويك، واندم فتظلّ دوق يورك.

ريشار : كنت أعتقد بأنه سيثبّت بقاءه ملكاً. هل كان ذلك منه مزاحاً غير مقصود؟

وورويك : يا مولاي، أولا تعتبر الدوقية هدية قيّمة.

ريشار : إي وربي، لا سيما حين يكون مقدّمها كونتاً مرموقاً. أشكرك جزيل الشكر على هذه الهدية الرائعة.

وورويك : أنا قدمت العرش لأخيك.

الملك ادوارد: هو طبعاً لي، وان كان هدية من وورويك.

وورويك : أنت لست الجبار أطلس لتنهض بمثل هذا الحمل الثقيل.

انظر الى هزالك ولا تنسَ أني أحرمك من هذه الهدية، لأن هنري مليكي، وأنا أحد رعاياه.

الملك ادوارد: لكن مليكك، يا ورويك، سجيني انا الملك ادوارد. فقل لي أيها الباسل الفهيم، ما قيمة جسم بلا رأس؟

ريشار : يا للأسف! لماذا فقد ورويك صفاء ذهنه وتبصره؟ فبينما كان يحاول أن ينتشل مني عشرة فقط، اذا بالملك ينسحب من اللعبة بلطف. لقد تركت هنري المسكين في قصر الأسقف، وأراهن على واحد مقابل عشرة بأنك تجده الآن في البرج.

الملك ادوارد: هيا يا ورويك، اغتنم الفرصة واركعْ، أجل اركعْ. لم يحن الوقت بعد، ومتى حان، ستضرب الحديد وهو حامٍ.

ورويك : أفضّل أن أقطع يدي هذه بضربة قاسية وأن أرميها في وجهك باليد الثانية على أن أنحدر بدناءة الى مستواك، وأصبح ألعوبة بين يديك.

الملك ادوارد: رفرف كما يطيب لك، واجه الرياح العاصفة. فان هذه اليد التي ستلتفّ على شعرك الفاحم السواد، وترفع رأسك المقطوع الذي لا يزال ساخناً وتهزه بعنف، ستجبر يدك أن تكتب على التراب : ورويك السريع التقلّب لن يسعه أن ينقلب الآن على أحد.

(يدخل اوكسفورد، وطبوله تقرع وأعلامه ترفرف).

ورويك : ما أزهى هذه الألوان؟ ها هوذا اوكسفورد قد وصل.

أوكسفورد : أنا أناصر اسرة لنكاستر.

(يدخل أوكسفورد مع قواته الى المدينة).

ريشار : الأبواب مفتوحة. لندخل نحن أيضاً.

الملك ادوارد: هناك أعداء آخرون قد يباغتوننا من الخلف. فلنبقَ هنا

مرصوصي الصفوف، وإلّا خرجوا حتماً الينا وقاتلونا. فالمدينة في حال عدم قدرتها على المقاومة بسبب ضعفها تدعونا الى أن نقتحم الخونة ونهاجمهم.

وورويك : أهلاً ومرحباً بك، يا أوكسفورد، نحن بحاجة ماسّة اليك.

(يدخل مونتيكو وطبوله تقرع واعلامه تخفق).

مونتيكو : أنا أناصر اسرة لنكاستر.

(يدخل مع جنوده الى المدينة).

ريشار : أنت وأخوك ستدفعان باهظاً ثمن هذه الخيانة بدمكما الذي يجري الآن في عروقكما وسيهدر قريباً.

الملك ادوارد: كلما ازدادت المقاومة ضراوة كلما ازداد النصر بريقاً. قلبي يحدثني بأن نجاحنا سيكون منقطع النظير.

(يدخل سومرست وطبوله تقرع وأعلامه تخفق).

سومرست : أنا أناصر أسرة لنكاستر.

(يدخل مع قواته الى المدينة).

ريشار : دوقان من اسرتك يا سومرست، واثنان من أسرة يورك قد سفك دمهما وستكون أنت ثالثهم اذا ظل هذا السيف بتّاراً.

(يدخل كلارانس وطبوله تقرع وأعلامه تخفق).

وورويك : انظروا، هذا جورج بن كلارانس يتقدم مع قواته الكافية لسحق أخيه في ساحة القتال. ما أعظم غيرته على شرعية الحق الذي تغلب على حبه الأخوي. تعال، يا كلارانس، واستجب طلبي.

كلارانس (ينتزع الوردة الحمراء من قبعته) : يا أبي وورويك، هل تعلم ما معنى

هذا؟ الا انظر، أنا أرشقك بتحقيري. انا لا أريد أن أهدم بيت أبي الذي وطد أركانه ببذل دمه الغالي، وأن أعلي شأن أسرة لنكاستر. هل تعتقد، يا ورويك، بأني صلب وشرس وقليل الوفاء لأقلب ظهر المجن لأخي ومليكي الشرعي؟ ربما تعترض عليّ بسبب قسمي المقدس. فإن أنا لم أحنث يميني، بتّ أحقر من يافث الذي ضحّى بابنته. أنا نادم على غلطتي السابقة. ومن الآن وصاعداً أنا اناصر أخي، وأعلن منذ هذه اللحظة عدائي لك حتى الموت. وأنا مصمم على مجابهتك وواثق بأن أقضي عليك مهما بالغت في التحفظ والحيطة بعدم خروجك من هنا. وسأعاقبك على جرم تضليلك اياي. فبناء على ذلك أتحدّاك يا ورويك المتعجرف، وأدير نحو أخي وجهي المحمرّ خجلاً منك ومن أفعالك الشائنة. سامحني اذاً يا أخي ادوارد، فأنا مستعد أن أكفّر بشرف عما بدر مني. ألتمس منك يا ريشار، أن لا تنظر بغضب الى ذنوبي لأني نويت أن أنبذ كل تصرفاتي المريبة.

الملك ادوارد: أهلاً ومرحباً بك، أنا أحبك عشر مرات أكثر مما كنت تستحق في الماضي من غيظي وغضبي.

ريشار : أهلاً ومرحباً بك يا كلارانس. أنت الآن تتصرف كأفضل شقيق.

ورويك : سحقاً لك من خائن جبان.

الملك ادوارد: هل تريد يا ورويك أن تغادر المدينة لتحاربنا؟ أم علينا أن نرجمك بالحجارة حتى تموت؟

ورويك : والله، أنا لا أريد أن أكون سجينكم هنا ولو للدفاع عن نفسي. بل أود أن أذهب الى بارني لأحاربك يا ادوارد، إن كنت تقبل التحدي.

الملك ادوارد: أجل يا ورويك، أنا أقبل تحدّيك فهيّا نخرج للقتال. هيا

بنا أيها اللوردات الى ساحة المعركة وسينصرنا الله وشفيعنا جاورجيوس.

(يخرجون).

المشهد الثاني

في ساحة المعركة قرب بارني.

(تسمع موسيقى إنذار وضجة جنود يتحركون يدخل الملك ادوارد ويؤتى بورويك جريحاً).

الملك ادوارد: هكذا مددوه هنا. متْ يا لئيم، لأنك خيال صحراء وان ارعبتنا جميعاً. أما الآن فاستعدّ يا مونتيكو لتسلّيك عظام ورويك.

(يخرج).

ورويك : من الآتي الى هنا؟ تعال اليّ ان كنت صديقاً أو عدواً وأخبرني من المنتصر، يورك أم ورويك؟ لكن لماذا اطرح هذا السؤال؟ ان تشويه جسمي ونزف دمي وخور قواي وانقباض قلبي، كلها دلائل دامغة على انتصار أخي، وإلاّ لما شعرت بهذا الذل والانكسار. هكذا سقطت الشجرة الشامخة تحت ضربات الفأس ولم تعد قادرة على حماية النسر الملكي الذي كان يتفيأ تحت أغصانها وكان الأسد المتوثب سيظل جذعها الراسخ الذي كان يساند الشجيرة الضعيفة في احتمائها به أثناء عواصف الشتاء. لقد كانت نظراتي التي خيّم عليها ظلام الموت، تنفذ نظير أشعة الشمس في رابعة النهار وتخترق حجب الخيانات السرية في العالم أجمع. وكانت تجاعيد

جبهتي الملوثة دماً، تشبه غالباً قبور الملوك اذ لم يكن هناك من ملك لم تستطع أن تحفر قبره وتدفن فيه سلطته. فمن كان يجرؤ على الابتسام عندما كنت أعبس؟ واأسفاه! ها قد مرّغ شرفي في الوحل وتلوث بالدم. أين الجنائن والنزهات ومماشي القصور التي غابت كلها عني، ولم يبقَ لي من الأراضي الواسعة سوى مدى جسمي؟ أين العظمة والفخفخة؟ أين السلطة والنفوذ؟ كلها أضحت تراباً تدوسه الأرجل. فمهما كانت الحياة مرفهة عزيزة، لا بد للانسان يوماً من أن يموت.

(يدخل أوكسفورد وسومرست).

سومرست : آه، يا ورويك! لو كنت كما أنا الآن، لكنت عوّضت عن جميع أخطائي. فالملكة عادت من فرنسا بنجدة قوية، بلغتني أخبارها منذ وقت قريب. ليتك تستطيع الهرب.

ورويك : حتى ان لم أهرب، أنت أخي يا مونتيكو، وأسألك أن تأخذ بيدي وألتمس منك أن تمنع روحي بشفتيك من الخروج ولو لحظة. أنت لا تحبّني، ولو كنت تحبّني يا أخي، لكانت دموعك غسلت هذا الدم المتجمد على شفتيّ لأنه يعيقني عن التكلم. تعال اليّ حالاً يا مونتيكو، وإلا متُّ.

سومرست : تعال يا ورويك. فان مونتيكو قد أسلم روحه وكان الى آخر أنفاسه يناديك إذ قال : أوصوا أخي الشجاع بي خيراً. وحاول أن يقول أكثر من هذا. لكن ما فاه به جاء دويّه مشوّشاً كقصف المدفع من مغارة تحت الأرض، لا سبيل الى تمييز أيّ من ألفاظه المغمغمة. أخيراً تمكنت من سماع آخر تنهداته وهو يتمتم : وداعاً يا ورويك.

ورويك : ليرقد بسلام. اهربوا أيها اللوردات جميعاً، وسيكون لقاؤنا في السماء.

(يموت).

أوكسفورد : هيا بنا نذهب، هيا بنا ننضم الى جيش الملكة الجرّار.

(يخرجون حاملين جثة ورويك).

المشهد الثالث

في مكان آخر من ساحة القتال.

(تصدح الموسيقى. يدخل الملك ادوارد منتصراً يرافقه كلارانس وريشار وجنود).

الملك ادوارد: حتى الآن خاننا الحظ في صعود نجمنا، وقد زينت أعناقنا قلادات الظفر. لكننا في منتصف النهار المشرق أرى غيمة سوداء مشبوهة تهدّدنا وتتّجه نحو شمسنا لتحجبها عنا قبل أن تبلغ مغيبها الهادئ. أعني أيها اللوردات ان قوات الملكة المقبلة من فرنسا قد وصلت الى شواطئنا زاحفة علينا كما قيل لي لكي تقاتلنا.

كلارانس : أول رشقة سهام ستبدّد قريباً عنا هذه الغيمة الكأداء، وتعيدها الى مصدرها، وترد كيد أعدائنا الى نحرهم. اشعاعك وحده يكفي لتبديد هذا البخار، لأن الغمامة الصغيرة لا تولّد العاصفة.

ريشار : قوات الملكة تقدّر بثلاثين الف رجل، وقد لجأ اليها سومرست موقناً بأن بطشها سيكون له قوة تضارع قوتنا.

الملك ادوارد: اخبرنا بعض أصدقائنا المخلصين بأن هذا الجيش يزحف على تويكسبري. فعلينا، وقد حالفنا الحظ حتى الآن، أن نبادر الى سهل بارني ونهاجم هذا العدو حالاً، لأن السرعة ستشق لنا طريق النصر النهائي. وأثناء الطريق ستزداد قوتنا

بمن ينضم الينا من أهالي المناطق التي نجتازها. اقرعوا الطبول، واصرخوا : الى الأمام، تشجعوا.

(يخرجون).

المشهد الرابع

في سهل قرب تويكسبري.

(تسمع موسيقى عسكرية. تدخل الملكة مرغريت وأمير ويلز وسومرست وأوكسفورد وبعض الجنود).

الملكة مرغريت : أيها اللوردات البواسل، لا يتأخر الرجال الحكماء في التحسر على خسائرهم. لكنهم لا يلبثون أن يعوّضوا عن كوارثهم. لا غضاضة علينا إن جرفت العاصفة معها صاري مركبنا وقطعت الحبال وضيّعت المرساة وابتلعت الأمواج نصف البحّارة في طياتها. فالربّان لا يزال حياً. وهل من اللائق أن يترك الدفّة لمبتدئ جبان كهذا، يضيف سيل دموعه الى لجة البحر ويحاول أن يساند من هو أقوى منه بما لا يقاس، بينما آلامه تفتّت الصور التي تحطم عليها المركب الذي كانت الجهود المبذولة ربما أنقذته من شر التحطيم. يا للعار، يا للغلط الفظيع! تقول ان مرساتنا كانت همّة ورويك. هذا لا يهم، ان مونتيكو هو الآن صارينا المتين. قلت لك هذا لا يهم. فقد أضحى اوكسفورد مرساتنا وسومرست صارينا الجديد. أوليس أصدقاؤنا الفرنسيون أشرعة وحبالاً نعتصم بها؟ فمهما كنا نفتقر الى المهارة، فأنا وادوارد نستطيع أن نقوم مقام الربان والبحارة معاً. نحن لا نريد أن نفلت الدفة لنجلس وننتحب. انما عندما تعاندنا العاصفة،

نريد أن نتجنب نواتئ الصخور التي تهددنا بالتحطيم والغرق. فالأحرى بنا أن نغالب الأمواج من أن نمالئها. أوليس ادوارد أشبه بالبحر العاجز؟ ليس كلارانس إلا رمل جديد من المخاتلة والخداع. وريشار، أوليس نذير شؤم مريع؟ هذه آفات سفينتنا المتمايلة. أما قلت لي انك تحسن السباحة؟ يا للأسف، لن تدوم هذه الحالة سوى لحظة. وكيف نسير على رمل متحرك؟ لا بد لنا من أن نغوص في جوفه. وان استطعنا تسلق الصخور سينال منّا مدّ البحر ويجرفنا أو نهلك جوعاً، وهذا يعني أننا سنموت ثلاث مرات. أصارحكم بهذا أيها اللوردات لأفهمكم في حال تفكير أحدكم بالتخلي عن موقفه، اننا سنكون تحت رحمة هؤلاء الأخوة الثلاثة الذين لا أمل يرجى منهم أكثر مما يرجى من الأمواج الطاغية والرمال المتحركة والصخور الناتئة. فتشجعوا اذاً. ان ما لا سبيل الى تجنبه، يُعتبر فينا ضعف صبياني، إن ندبناه أو خشيناه.

امير ويلز : يخيل اليّ أن امرأة بهذه الهمة والجرأة، وبمثل ما تتلفظ به من كلام يشدد العزيمة ويبعث الأقدام في نفس الانسان الأعزل، على مقاتلة الرجل المدجج بالسلاح. وحديثي بهذه اللهجة لا يدل على شكي بأيّ منكم، وان شككت بوجود جبان في صفوفنا، فسأسمح له بالابتعاد سريعاً خوفاً من أن يفسد تصميمنا، عندما تدق ساعة الحرج، ويلقي الرعب في قلوب المقاتلين. فان وُجد أحد من هذه الفئة، لا سمح الله، عليه أن يرحل حالاً، لأننا لسنا بحاجة الى أي عون من هذا النوع.

اوكسفورد : بارك الله نساءً وأولاداً في مثل هذه الشجاعة. لا أنكر أن بيننا عدداً من المحاربين لا يستبعد أن يضعفوا. أجل، وهذا عار لا يمّحى الى الأبد. فسقياً لك أيها الأمير الشاب الباسل. ان جدك الشجاع يحيا اليوم في شخصك، ألا أطال الله

عمرك لتذكرنا بصورته المشرّفة وتجدّد لنا مجده الأثيل.

سومرست : اما من لا يريد أن يحارب لأجل مستقبل زاهر، فليذهب ويرقد. ونظير نعيب البوم في رابعة النهار، لا يسمع صوته إلا لاستقطاب الهزء والسخرية.

الملكة مرغريت : شكراً لك يا سومرست، ولك أيضاً يا اوكسفورد.

امير ويلز : واقبلوا مني تشكراتي التي لا يسعني أن أهديكم سواها.

(يدخل رسول).

الرسول : استعدوا، أيها اللوردات، لأن ادوارد اقترب وهو متأهب للتقال. فواجهوه بشجاعة وتصميم.

اوكسفورد : كنت أترقب منه ذلك. لأن خطته تقوم على استعجال الأمور واستخدام عنصر المباغتة.

سومرست : لكن أمله سيخيب، ما دمنا نحن أيضاً متأهبين.

الملكة مرغريت : قلبي يرقص طرباً وأنا أبصركم في مثل هذا الحماس.

اوكسفورد : لنأخذ مراكزنا هنا، ولا نتزحزح عنها قيد أنملة.

(تسمع موسيقى عسكرية. يدخل الملك ادوارد الى صدر المسرح برفقة كلارانس وريشار وجنودهم).

الملك ادوارد: أيها الرفاق الشجعان، أنتم ترون هناك الشجيرات الشائكة التي بعون الله وهمتنا، ننوي أن نقتلعها من جذورها قبل هبوط الليل. لست بحاجة الى ازكاء لهيب حميّتكم، لأني أعلم جيداً أنها في أوج الاندفاع لصب الويلات على رؤوس أعدائنا. أصدروا اشارة بدء المعركة، وهبوا الى القتال، أيها اللوردات.

الملكة مرغريت : أيها الفرسان المغاوير، ماذا يسعني أن أقول لكم لمقاومة الدموع السخينة؟ لدى كل كلمة اتفوّه بها، كما تلاحظون، ابتلع قطرات دموعي. انما لي كلمة أخيرة : هنري ملككم

المحبوب، هو أسير لدى أعدائنا، وقد اغتصبت سلطته ومملكته تتأرجح الآن بين الحق والباطل، ورعاياه مشردون أو مذبوحون وقوانينه ملغاة وثروته مبددة. وهناك يمعن الذئاب فتكاً، ويعيثون فساداً بينما أنتم تحاربون لاستعادة حقّكم. فباسم الله أيها اللوردات، استحلفكم بأن لا تدخروا وسعاً، وأن تبذلوا كل ما أوتيتم من جهد وبسالة. فأعلنوا بدء القتال.

(ينسحب الجيشان).

المشهد الخامس

في ساحة الحرب.

(تسمع موسيقى الانذار وضجة الجيوش المتحركة، ثم الانسحاب. عندئذ يدخل الملك ادوارد وكلارانس وريشار وجنودهم وهم يقودون الملكة مرغريت وأوكسفورد وسومرست الى الأسر).

الملك ادوارد: هذه نهاية كل هذه المعارك الصاخبة. خذوا أوكسفورد سريعاً الى قصر هاميس. اما سومرست المجرم فاقطعوا رأسه حالاً. هيا خذوهما من هنا لأني لا أريد سماع صوتهما بعد الآن.

اوكسفورد: من جهتي لن يزعجك صوتي بعد اليوم.

سومرست: ولا أنا، لأني أزعن بخضوع لمصيري.

(يخرج اوسكفورد وسومرست يحيط الحرس بهما).

الملكة مرغريت: هكذا نفترق بحزن في هذا العالم المضطرب لنلتقي بفرح في جنة الخلد.

الملك ادوارد: أولم يعلن البعض أن من يدل على مكان ادوارد يُمنح مكافأة قيّمة، كما يمنح ادوارد نفسه الأمان وصيانة حياته؟

ريشار : لقد فعلنا ذلك. ها هوذا الشاب ادوارد.

(يدخل جنود مصطحبين أمير ويلز).

الملك ادوارد: هاتوا هذا الظريف الى جانبي. ولنسمع ما سيقول لنا. كيف تسنى لهذه الشوكة الفتيّة أن تقتلع منذ الآن؟ يا ادوارد، أي تعويض تمنحني لأني حملت السلاح في وجهك، وحافظتْ رعاياي عليك رغم كل المشاكل التي سببتها لي؟

امير ويلز : تكلم يا يورك، كأحد الأهالي بفخر واعتزاز. وافترض انك في هذه اللحظة تسمع صوت أبي. أجلسني مكانك واركع حيث أنا، بينما أوجّه اليك الأسئلة التي تدّعي، أيها الخائن، أن عليّ أن أقدم لك ردودها.

الملكة مرغريت : ليت لأبيك نفس عزمك وتصميمك.

ريشار : ستظل ولداً ترتدي السروال القصير، إن لم تسرق أثواب اسرة لنكاستر.

امير ويلز : خبّئ يا إيزوب الشاعر قصائدك لليالي الشتاء. لأن هذه الأقوال الفارغة لا مكان لها هنا الآن.

ريشار : والله، يا غلام، سأعاقبك على هذه الألفاظ الصبيانية.

الملكة مرغريت : أحقًّا، أنت خلقت لمعاقبة الرجال؟

ريشار : استحلفكم بالسماء، أن تأخذوا من هنا هذه الأسيرة الوقحة.

امير ويلز : لا، خذوا بالحري هذا الأحدب السخيف البغيض.

الملك ادوارد: اخرس أيها الصبي اللئيم، والْجُم لسانك.

كلارانس : حذار يا مغفّل من هذه الوقاحة السمجة.

امير ويلز : أنا أعرف واجبي، بينما أنتم جميعاً تتجاهلون واجباتكم. يا ادوارد المغامر، وأنت يا جورج المنافق، وأنت يا ريشار المشوّه، أقول لكم جميعاً أني أنا سيدكم، أيها الخونة السفلة، لا سيما أنت يا مغتصب حقوق أبي وبالتالي حقوقي أنا أيضاً.

الملك ادوارد: هذا لك، يا وجه النحس، يا صورة هذه المرأة النجسة.

(يطعن أمير ويلز).

ريشار (للأمير) : تخبّط الآن بدمك، وخذ هذا للقضاء عليك ولوضع حد سريع لنزاعك الأخير.

(يطعنه).

كلارانس (للأمير) : وخذ هذا لقاء ما وجهته اليّ من اهانات.

(يطعنه).

الملكة مرغريت : عليك أن تقتلني أنا أيضاً.
ريشار : أمرك مطاع. خذي أنت ما نابهم.

(يحاول طعنها).

الملك ادوارد: قف يا ريشار، قف. اننا فعلنا أكثر من اللازم.
ريشار : هل تريد أن تبقيها على قيد الحياة لكي تعيث في الأرض فساداً بكلامها السامّ.
الملك ادوارد: ماذا أرى؟ هل أغمي عليها؟ حاولوا أن تعيدوا اليها وعيها.
ريشار : استعذر لي من أخي الملك يا كلارانس. أنا ذاهب الى لندن لأجل قضية هامة. فقبل أن تصلوا اليها عليكم أن تصغوا اليّ لسماع خبر هامّ.
كلارانس : ما هو، ما هو؟
ريشار : البرج، البرج.

(يخرج).

الملكة مرغريت : آه! يا عزيزي ادوارد. كلّم والدتك، يا بني. أولم تعد قادراً على النطق؟ تبًّا للخونة، وسحقاً للقتلة. ان من طعنوا قيصر بالخنجر لم يسفكوا دماً ولم يرتكبوا اثماً ولم يستحقوا عقاباً اذا قيس عملهم بهذه الجريمة النكراء. ذاك كان رجلاً،

بينما هذا لا يعدو كونه ولداً، وليس من الرجولة أن يصبّ الانسان جام غضبه على صبي. هل هناك اسم أحقر من القاتل لكي أخلعه عليه؟ لا، لا. ان قلبي يكاد ينفجر من الغيظ. سأتكلّم حتى يبحّ صوتي. تباً للجزارين القتلة وسحقاً لسفاكي الدماء وأكلة اللحوم البشرية. أية زهرة نضرة قطفتم قبل الأوان؟ أنتم لا أولاد لكم أيها الجلادون. ولو كان لكم أولاد لكانت الرحمة وجدت طريقاً الى أفئدتكم. ولو أصبح لكم ولد يوماً ما، عليكم أن تترقبوا رؤيته مقتولاً في عزّ صباه كما فعلتم أنتم وفعل رجالكم يا رسل الموت، يا قتلة الأمير الشاب في نضارة عمره.

الملك ادوارد: اخرجوا هذه المرأة من هنا، هيا اخرجوها بالقوة.

الملكة مرغريت : كلا، لا تأخذوني من هنا. هيا أغرس خنجرك في صدري، فأنا اسامحك على ارتكابك جريمة قتلي. ماذا أرى؟ ألا تريد أن تنفذ ما أطلبه منك؟ هيا أنت نفذه، لا كلارانس.

كلارانس : بحق السماء، لن أمنحك هذه النعمة.

الملكة مرغريت : هيا نفذ يا كلارانس الكريم. ألتمس منك أن تلبّي طلبي.

كلارانس : أولم تسمعيني؟ لن أفعل هذا أبداً.

الملكة مرغريت : نعم أنت معتاد على تحمّل هذه الخساسة. في الماضي كان تملصك من تعهدك جريمة أما الآن فهو محبة وعدالة. ماذا أقول؟ أنت لا ترد. أين هذا الجزار؟ أين ابليس اللعين؟ أين أنت يا ريشار الفظيع؟ أين أنت؟ القتل هو إحسانك، وأنت لم تكافئ من شجّعوك على سفك الدماء.

الملك ادوارد: كفى، قلت لك، كفى. آمركم أن تأخذوها من أمامي، هيا خذوها حالاً من هنا.

الملكة مرغريت : هل تريد أنت وذووك أن تكون نهايتكم كهذا الأمير؟

(تخرج مجرورةً بالقوة).

الملك ادوارد: الى أين مضى ريشار؟

كلارانس : الى لندن، الى موقف العربات، على ما أظن، لكي يشترك في البرج بوليمة دموية.

الملك ادوارد: حالما تخطر بباله فكرة تراه يصبح مستعجلاً. هيا نذهب نحن أيضاً من هنا. ولنصرف الجنود البسطاء بعد أن ندفع لهم اجرتهم ونشكرهم، ثم نزحف على لندن. تعالوا لنرى كيف حال ملكتنا اللطيفة. آمل أن تحمل الآن مني طفلاً.

(يخرجون).

المشهد السادس

في برج لندن.

(الملك هنري جالس وفي يده كتاب، والى جانبه ملازم البرج.
يدخل ريشار).

ريشار : صباح الخير يا مولاي. أنت لا تزال منشغلاً في المطالعة.

الملك هنري: نعم يا مولاي الكريم. هل عليّ أن أدعوك: مولاي؟ ان التمليق نقيصة، والكلمة الطيبة ليست سوى ممالأة. وكلوسستر الكريم وابليس اللئيم متساويان في السخافة. لذلك لا أدعوك اللورد النبيل.

ريشار (للملازم): اتركنا وحدنا أيها الصديق. لأننا نريد أن نتحدث.

(يخرج الملازم).

الملك هنري: هكذا هرب الراعي من الذئب، واسلمت النعجة المسالمة جزّتها أولاً ثم عنقها لسكين الجزار. فما هو الدور المدمّر الذي سيقوم به الممثل الروماني القدير روسيوس؟

ريشار : الشك يستبدّ بروح المجرم، والسارق يخاف الوقوع في قبضة العدالة.

الملك هنري : والعصفور الذي كاد أن يلصق بالدبق يخشى على جناحه المرتجف أن يعلق كلما لامس غصناً نضيراً. وأنا الأب التعيس أخاف على ابني العطوف الذي أراه أمام عينيّ، من أي شرك مشؤوم أو دبق منشور يمكن أن يأسر ابني الحبيب ويقتله.

ريشار : ما أعند هذا الكريتي المجنون الذي طلب من ابنه أن يقلد الطير، لأنه رغم الأجنحة التي زوده بها سقط وتحطم شر تحطيم.

الملك هنري : انا « ديدال » والد إيكار الذي غامر في أول محاولة للطيران، يا بني. وفينس الذي عرقل مسيرتنا، والشمس التي أذابت ما الصقت الريشات بواسطته من شمع في أجنحة ابني، هي شخص أخيك ادوارد الحاقد وأنت البحر العجاج الذي ابتلعته طيات أمواجه الهائجة المتلاطمة. هيا اقتلني بسلاحك المرهف الحدّين لا بكلامك الجارح. لأن صدري لا يحمل ذؤابة خنجرك أكثر مما تحتمل اذناي سماع قصتك المأسوية. لكن لماذا تأتي اليّ؟ هل لتستلّ حياتي من جسمي المرهق المضني؟

ريشار : هل تعتقد بأني أنا منفذ ما تخشى أن يصيبك من مكروه؟

الملك هنري : أنت في يقيني، مصدر هلاكي وموتي. فاذا كان قتل الأبرياء تنفيذ حكم الاعدام، فأنت اذاً منفذ هذا الحكم الجائر.

ريشار : لقد قتلت ابنك بسبب وقاحتك.

الملك هنري : لو كنت قُتلتَ لدى أول وقاحة صدرت عنك، لما كنت عشت الى هذه الساعة لتقتل ولدي. لذلك أتوقع من ألوف الأحياء ممن لا يرتابون حتى من تحذيراتي، شيوخاً كانوا أو عاجزين ملوّعين ينتحبون أو أرامل يندبْن أزواجهنّ أو

يتامى يبكون متحسرين على ذويهم المفقودين باكراً، أن يلعنوا جميعهم تلك الساعة التي ولدوا فيها وكانت وبالاً عليهم كنعيب البوم المشؤوم ونباح الكلب المسعور حين عشعش النحس في زوايا البؤس وراح يملأ الأجواء بنشاذ انغامه الفظة. فتألمت والدتك، أكثر مما تعذبت سائر الأمهات، من جراء شذوذ أولادها، إذْ وضعت في هذه الدنيا، بيأس بعيد عن آمال سائر الوالدات، كتلة مشوّهة وثمرة ممسوخة خالية من أي جمال بشري. لقد ولدتك أمك وفي فمك اسنان تدل على أنك منذ مجيئك الى هذا العالم أتيت لتعضه بأنيابك الحادة، وبما أن كل ما سمعته عنك صحيح فأنت خلقت لتكون...

ريشار : لن اسمع المزيد. متْ أيها النبي الدجال في طيات نبوءتك الكاذبة. (يطعن الملك). فأنا لهذه الغاية حقاً قد خلقت.

الملك هنري : نعم، ولقتل الكثيرين بعدي. يا الهي ارحمني واغفر ذنوبي. سامحك الله أنت أيضاً.

(يموت).

ريشار : ماذا أرى؟ أهو دم لنكاستر المتجبّر مهدوراً على الأرض؟ كنت آمل أن يتدفق الى أعلى. أنظر كيف دمع سيفي لموت الملك الطيب القلب. أرجو أن يذرف دموعاً هكذا حمراء كل من يبغي اذلال اسرتنا. فاذا بقي لك نسمة من حياة، أنزل الى الجحيم وقل أني أنا ارسلتك الى هناك (يطعنه ثانية). أنا الذي لا يعرف قلبي الشفقة ولا المحبة ولا الخوف. في الحقيقة، كل ما رواه لي هنري صحيح. اذ غالباً ما سمعت أمي تردد أني جئت الى هذا العالم، أقدامي قبل رأسي. أولم يكن الحق بجانبي في تصرفي المصيب وتحطيم من يغتصبون حقوقنا؟ فالقابلة القانونية شدهت والنساء

صرخن: « سترك اللهم، لقد ولد والأسنان تملأ فمه ». في الواقع هكذا وُلدت، وهذا يعني بوضوح أني مزمع أن أغمغم وأن أعضّ وأن أصبح حقيقةً من رجال البطش والتحدي. وبما أن السماء شاءت أن يكون جسمي على هذه الصورة من التشويه، كان على نيران الجحيم أن تشوّه نفسي أيضاً على خلاف العادة. أنا لا أخوة لي ولا أتّسم بصفة الأخوّة. هذا الحب الذي ينعته أصحاب اللحى التي وخطها الشيب، بالحب الالهي لا يناسبني، بل يناسب الأشخاص المتشابهين المنسجمين. فأنا فريد من نوعي. حذارِ يا كلارانس أن تمنع عني النور. لذا سأسعى كي أجعل يومك معتماً. وسأنشر في الأجواء نبوءات تدع ادوارد يرتجف هلعاً طوال حياته، ثم لكي أبدد مخاوفه سأعجل في موتك. فالملك هنري وابنه الأمير قد غابا. وجاء دورك يا كلارانس، ثم يأتي دور الآخرين. لأني اعتبر نفسي سافلاً حتى أتحوّل الى مخلوق رفيع المستوى. سأنقل جسدك الى قاعة أخرى يا هنري وسأسيطر على آخر أيام حياتك.

(يخرج).

المشهد السابع

في لندن ــ في قصر وسنمستر.

(يشاهد الملك ادوارد جالساً على عرشه وبقربه الملكة اليزابيت حاملةً طفلها الأمير، وكلارانس وريشار وهاستنكس وغيرهم).

الملك ادوارد: مرة أخرى، ها أنا أجلس على عرش مملكة انكلترا الذي اشتريته بدم جميع أعدائي. فلتحصد ارواح اخصامي الشجعان

كأنها سنابل الخريف في قمة مجدها. ثلاثة من أسرة سومرست، كل منهم بلقب دوق، ابطال بارزون عرفوا ببسالة لا تهاب المنايا، واثنان من أسرة كليفورد، الأب وابنه واثنان من أسرة نرتمبرلند لم يكن مقاتل اشجع منهما يبرع نظيرهما في همز بطن مطيته لتنطلق بسرعة كالسهم المارق لدى سماع صوت البوق، ومعهم دبّان نشيطان ورويك ومونتيكو كانت سلالتهما مرتبطة بالأسد الملك، الذي كان يُرعد الغابات بزئيره. هكذا بددنا القلق وأقصيناه عن العرش، ووطدنا أقدامنا في حكم البلاد بأمان وسلام. اقتربي يا اليزابيت لكي أقبّل ولدي الصغير ادوارد. لأجلك يا بني أنا وأعمامك سهرنا ليالي الشتاء الطويلة ونحن مرتدون دروعنا. ومشينا أياماً طويلة في حرارة الصيف المحرقة. لذا تستطيع أن ترث التاج بسلام وتقطف ثمار جهودنا.

ريشار (على حدة) : لكني سأبدد غلتك حالما أريح رأسي، لأني لست محسوباً الى الآن من هذا العالم. وأكتافي لم تكتسب هذه القوة المدهشة إلا لتحملا الأثقال وإلا يجمل بي أن أكسر عمودي الفقري (يشير الى رأسه ثم الى ذراعه)، أنت تخطط وأنت تنفذ.

الملك ادوارد: يا كلارانس، ويا كلوسستر، احفظا مودتكما لمليكتي الحبيبة، وعانقا ابن أخيكما الأمير، يا أخويّ.

كلارانس : الاحترام الواجب عليّ نحو جلالتك، اطبعه كوسمة على فم هذا الطفل العزيز.

الملك ادوارد: شكراً يا أخي النبيل كلارانس، شكراً جزيلاً.

ريشار : كم أحب الشجرة التي أعطت هذه الثمرة الحلوة. وهذه القبلة برهان على صدق ما أقول. (على حدة) في الحقيقة، هكذا أسلم يهوذا معلمه عندما خاطبه قائلاً : عليك السلام، وهو يريد أن يقول : عليك الشقاء.

الملك ادوارد: الآن أتربع على العرش، والفرح يترع نفسي، موقناً بسلام بلدي وبمحبة اخوتي.

كلارانس : ماذا يريد أن يقول عن مرغريت؟ لقد وضع والدها رينيه جزيرة صقلية ونابولي بين يدي ملك فرنسا. وحوّل الينا مبالغ جزيته.

الملك ادوارد: دعها تنتقل الى فرنسا. فاليوم لم يبقَ أمامنا سوى تكريس وقتنا لحفلات الانتصار ولمشاهدة الابتهاج والمرح والهرج الذي يلائم لهو البلاط. فاقرعي يا طبول وانفخي يا أبواق. وداعاً يا أحقاد الأعداء، لأني اليوم آمل أن أبدأ أفراحي الدائمة.

(تمت)